علم التوحيد في ثوب جديد

بقلم

دكتور
عبد الستار محمد عبده

يوجد بعض
الصفحات المائلة
من الاصل

الإهداء

إلى روح المغفور له والدى الحبيب
الذى قال لى .... يوم قادنى صغيراً
إلى سيدنا لتحفيظى القرآن الكريم
« لتـــدعو لى بعد مماتى وصدرك
عامر بكتاب الله » .

اهدى ثواب هذه الصفحات إلى
روحه الطاهرة وإلى روح سيدنا الشيخ
محمد أبى حـــلاوة الذى حفظنى
كتاب الله . . . .

عبد السلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه من اهتدى بهديه إلى يوم يبعثون .

وبعـــد :

فالإسلام هو آخر الكلمات التي أفرغتها السماء في أذن الإنسانية وهي تخط لها سبل رشادها وفلاحها .

ولقد جاءت هذه الكلمات الخاتمة إلى الإنسانية بعد أن تجاوزت فترتي طفولتها وصباها ويفعت واستكملت ما به رشادها وأمست قابلة لتلقي التعاليم الخاتمة التي ستصاحب ركب حضارتها وتساير قوافلها التي تتقدم بالزمان ويتقدم الزمان بها يوما بعد يوم بل لحظة بعد أخرى للقاء الله رب العالمين .

فالإسلام إذن نظام رباني متكامل خطة الحكيم الذي لا يزل والخبير الذي لا يضل ليكون زاد الإنسانية وحياتها ما بقيت لها على ظهر هذه الحياة حياة .

فهو إذن ليس فوق العقول فلا تصل إلى فهمه ولا مناقضاً للفطر المستقيمة فتستغربه . بل هو بالمعاشرة والمسايرة طريق الإنسانية لتحقق مثلها العليا وأهدافها العظمى دون عثار أو تخبط .

وهذه هي حضارة الإسلام التي شهدتها القرون الوسطى — فشهدت بمشاهدتها لها ما أطربها وأعجبها — شاهد صدق على ما نقول .

لقد كانت هذه الحضارة منار السالكين وملاذ الخائفين ومحط أنظار الباحثين والفاقهين والمتأملين . قدمت لهم في مجال العلم كل طريف عجيب . وتراثها لا يزال حتى يومنا زاد الإنسانية في عهد تقدمها وازدهارها .

لكن المسلمين اليوم شوهوا من معالم الإسلام بقدر ماعصوا من تعاليمه فكانت هذه الوحشة الهائلة التى جعلت ألوفاً من المسلمين تحيا باسم الإسلام وهى أبعد ماتكون عنه فكيف يرجى من الإسلام أن يتقدم بأناس هكذا شأنهم فى تعاملهم معه .

والإسلام اليوم بعد هذا التاريخ الطويل يواجه أياماً حاسمة فإما أن يجتازها ويمضى مسدد الخطو نبيل القصد يهب الحياة رشادها وفلاحها وإما أن يتقاعس هذا الجيل فيقيض للاسلام من أجياله القادمة من يحمل الراية لتظل خفاقة عالية — قبل أن تسقط لأن رب الإســـلام تعهد له بالحفظ والبقاء .

وهذا المختصر الذى بين أيدينا تعريف متواضع بالعقيدة الإسلامية الحقة رجوت بتقديمها إلى المسلمين عودهم إلى دينهم الحق فى هذه الأيام التى إنتشرت فيها التيارات الإلحادية تبغى القضاء على الإسلام ، وإنقسم الناس إلى مضلل لا يخاف الله ومتقبل لا يعى الغث أو الثمين .

وعاش المسلم فى هذا الجو الموبوء دون حصانة أو تطعيم لا يكاد يميز الخطأ والصواب فكان هذا البعد عن الدين .

ولقد قسمت الدين إلى عقيدة وشريعة تركت ميدان الشريعة لفقهائها ليبينوا عن جوهرها الأصيل ومعدنها النفيس . وإنها — بلاشك — الطريق ممهد إلى الرشاد والنجاح والتقدم والإزدهار بل هى العصام والوجاء للمسلمين فى دنيا كشرت عن أنيابها لاستئصال شأفتهم .

واكتفيت فى هذا الموجز بعرض متواضع للعقيدة الإسلامية المنجية كما علمنا إياها ديننا من إيمان بالله — سبحانه وتعالى — وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب وبالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره .

على أننى فى هذا المختصر قد اعتمدت أصح الآراء ولم أشأ أن أتعب قارئى بكثرة الخلافات الكلامية التى قد تبعده عن القصد على أنى لم أتعرض لشىء منها إلا فيما لا بد منه لإبراز الأفكار أو حسن عرضها وتركت الخلافات المذهبية لمطول آخر أعددته واستعنت بالله — تعالى — كحلقة فى سلسلة طويلة عاهدت ربى إن امتد بى الأجل أن ترى نور الحياة توضيحاً لعقيدتى ودفاعا عنها أمام هذه التيارات الإلحادية الزاحفة علينا من الشرق والغرب على حد سواء .

وختاما . . . فإن مختصرنا هذا لا يزعم لنفسه أنه باع طالت ماقصرت عنه أذرع الآخرين أو أنه سنا حيث خبا غيره أو تقدم حين تقهقر سواه أو أدرك ما لم يجده إلا هو .

إنه لا يعدو إلا أن يكون ترديداً لما قيل بصوت جديد ومنهج شبه جديد . لكنها صرخة فى واد — دعوت الله لها مخلصا فى دعائى أن تتفتح لها القلوب قبل الآذان .

ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ؟

عبد السلام

أرض الجولف بمصر الجديدة فى

الثلاثاء . . الموافق ٢٠ من ذى الحجة سنة ١٤٠٠ هجرية

٢٩ أكتوبر سنة ١٩٨٠ م

[تصــدير]

- حاجة الانسانية إلى الدين
- ما يشتمل عليه الاسلام
- تعريف بعلم التوحيد

حاجة الإنسانية إلى الدين

الدين نظام ربانى كريم يقوم على مبادىء سامية خطها الحكيم الذى لا يخطىء ولا يضل ورضيها لعباده دستوراً يقودهم فى دنياهم إلى حياة حرة كريمة عزيزة ويعـــدهم فى أخراهم لميراث جنة عرضها السموات والأرض .

وهذا النظام الحكيم الذى أقامه الحكيم الخبير بعباده لعباده يقوم على أن الله وحده هو صاحب الجلالة والكرامة والاحترام والتوقير والتقديس فى مملكته التى أقامها برحمته لعباده وشرع لهم فيها بعدله ما أمرهم بالتمسك به لتخلو حياتهم من الطواغيت والجبابرة ومن منطق القوة وفلسفة الجبروت وقسوة العدوان والطغيان .

فهو إذن مطلب إنسانى رفيع يغذى جانب الروح ولا ينسى حاجة العقل وإن شئت فقل إنه مطمع العقل وغاية الروح والمعين الصافى لأنبل العواطف الإنسانية وأسماها .

فإذا أراد الفرد أن يحيا حياة هادئة يسودها الإستقرار وتملأ جوانبها المثل الرفيعة فلن يجد مثل الدين مأوى يلجه فيجد فيه بغيته :

وإذا قدر لأمة من الأمم أن تضرب بسهم وأفر فى ميدان المثالية والخلق اللذين يأخذان بيدها إلى التقدم والرقى فلن تجد كذلك مثل الدين دستوراً وقائداً وموجها يمسك بزمام أفرادها فيرد الشارد ويهدى العاصى ويحث الكسول ويوجه القلوب ويحيي الضمائر ويتجه بالجميع إلى المثل الأعلى الذى ينشدون وإلى الهدف والغاية التى يأملون :

وهذا جعفر بن أبي طالب . رضى الله عنه يبين النجاشي وقساوسة معالم الدين فيقول ...

(أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا كذلك حتى بعث الله إلينا رسولا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم . وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والصيام والزكاة والحج) إلى آخر ماعدد من أوامر الإسلام .

هذا ويمكننا أن نحصر وظائف الدين فيما يلى . .

١ — الدين يزكى النفس ويطهرها ويقيم فى حنا الوازع القوى المتيقظ الذى يحول دائما بين الإنسان وبين نوازع السوء والضلال فيه .

فصاحب الدين يشعر دائماً بمراقبة الله له فى كل شيء حتى لكأنه يرى الله فى كل خطوة يخطوها فهو حاضر لايغيب .

وإنسان هكذا شأن فإن نفسه تنتقل به من عالمنا الأرضى إلى عالم ملائكى تزكو فيه بفعل الخير والنزوع عن الشر — وهذا مبلغ ما ينبغى أن تسعى البشرية إليه .

٢ — الدين يبين الشر والفساد والرذيلة ليتق أتباعه شرها وينتهو عن اقترافها — كما يبين الخير والإصلاح والفضيلة ليقتفى الناس أثرها .

فهو يقيم لأتباعه نظاما كونيا نظيفاً ويدعوهم إلى أعتناقه والتمسك به كما يقيم لهم دستورا تاما حكيما يحفظ للانسان إنسانيته كما يحفظ له نفسه وعرضه وماله .

٣ — الدين خير معز للانسان إن ألمت به نوازل الدهر أو أصابه ما يوجب العزاء . كما أنه طاقة كبرى تدفع إلى الأمل والرجاء .

فالآلام التى تصادف الإنسان فى حياته والعثرات التى تقيض له فى طريق الآلام والآمال والصدمات التى تنزل به بين الحين والحين جديرة أن تقتل قوى المقاومة فيه وأن تحطم معنوياته وأن تجلب اليأس إلى قلبه .

ودور الدين هنا دور العاصم من هذا كله بما يدعو إليه من الرضى بما قدر الله والاطمئنان لما أراده الله فهو سبحانه وتعالى لا يريد بعباده ولا لهم إلا الخير . فما أخطأ الإنسان لم يكن ليصيبه وما أصابه لم يكن ليخطئه .. قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)[١] .

فإن لم يكن العزاء فى الدنيا فالصبر على البأساء والضراء له ثوابه الكبير يوم القيامة فى حياة آخرة .

وهذا العزاء لن يدركه إلا صاحب الدين وأما الذى يعيش بغير دين فإنه يلقى أحداث الحياة وحيدا لا سند له ولا عاصم فتسلمه هذه الوحدة إلى اليأس القاتل المميت .

وأما الرجاء فلطالما دعا الدين إلى الرجاء والتأميل فيما عند الله . وحث على عدم اليأس فقال تعالى (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)[٢] .

تلك الطاقة الكبرى من طاقات الأمل والرجاء إذا استحكم اليأس واشتد الكرب لا تنفتح إلا لمن كان على دين فهو وحده الذى يجد أمنه وطمأنينته .

---

(١) البقرة : ٢١٦ .

(٢) يوسف : ٨٧ .

٤ — والدين هو الذى كرم الانسان وعلمه ما لم يكن يعلم .

فالدين أولا : هو الذى أوقف الانسان من أول أمره فى الحياة على مكانته السامية فى الكون دون تهوين أو تهويل فبين له أنه سيد هذا الكون المدلل فقال فى حقه القرآن الكريم (ولقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم)[١].

وقال : (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)[٢] .

وهو الذى وضع بين يديه ثانيا كثيرا من مفاتيح القوة والطاقة التى أودعها الله هذا الوجود وجعلها مذللة مسخرة للانسان قال تعالى :

(ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة)[٣] .

وقال تعالى :

(وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين)[٤] .

وهو الذى صان الطاقات الانسانية حين حررها من الانقياد لغير الله خالقها ورازقها ومدبر أمرها ذلك لأنه وجهها لعبادة ترضى أشواقها الخفية دون أن يضيع بذلك كرامة العقل أو مصالح الدنيا .

يقول الأستاذ فتحى عثمان :

---

(١) التين : ٤ .
(٢) الاسراء : ٧٠ .
(٣) لقمان : ٢٠ .
(٤) الحجر : ٢٢ .

والاسلام يكرم الانسان لكنه لا يؤلهه بل يسلم أمره لله ويحل له طيبات الحياة الدنيا لكنه يذكره بمتاع خير وأبقى .

والدين فى هذا يحفظ على الانسان طاقته حتى لا تزل ولا تتبدد فى جحيم القلق دون قرار ويحقق له استمتاعه بإنسانيته ودنياه دون أن يحتملك الدوار فى افق ضيق لا يشتغل فيه بغير ذاته ومصالحه وحده :

إن سجن الأنانية والنفعية ليس أرحب من سجن الخرافات والتقاليد والاستبداد ومع ذلك ينبغى ألا يكون الداء فى الدواء .

والاسلام لم يلغ الكيان الانسانى باسم الدين ولم يقم الدار الآخرة لتصرف النظر عن دنيا يتفاقم فيها الحرمان والعجز والفساد .

إن ترقى الانسان وأزدهار الحضارة تسبيح لله العلى الأعلى وتمجيد للخالق صانع العظيم (١) .

٥ — والدين لم تهمل الدنيا فهى فى نظره مزرعة للآخرة لا يصح الانصرف عنها فقال تعالى (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور (٢) .

ولذلك فهو لم يهمل العلم والعمل بل دعا إليها وحث عليها ووعد بالأجر والثواب جزاء لها ومن هنا فإنه لم يربك الناس بالطقوس والشعائر التى لا تدع وقتاً لشىء والتى لا تجعل لأيامنا هذه التى وصفت بعصر السرعة مجالا أو مكانا بين مشيلاتها .

فشعائر الاسلام خمس صلوات تجدد صلة العبد بربه لا تستغرق بضع قا يغنى فيها القصر والجمع عند السفر والاستعداد لها لا يستغرق سوى أو دقيقتين للوضوء فإن عز الماء فالتيمم :

---

(١) الدين فى موقف الدفاع للاستاذ فتحى عثمان ص ٤٠ .

(٢) الملك : ١٥ .

والصيام شهر واحد فى العام والامساك فيه من الفجر للغروب فحسب وتعجيل الفطور وتأخير السحور من سننه التى كان يتبعها رسول الله لنأتم به فى العمل بها

والحج مرة واحدة للقادر :

وكل هذه العبادات طابعها التيسير . ورفع الحرج :

فعن جابر - رضى الله عنه - قال . خرجنا فى سفر فأصاب رجلا منا حجر فشج رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة فى التيمم ؟ فقالوا : مانجد ذلك رخصة وأنت تقدر على الماء فأغتسل فمات. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبر بذلك فقال (قتلهم الله ! ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما يكفيه أن يتيمم ويعصر أو يعصب على جرحه خرقة ثم يمسح عليها ويغسل سائر جسده) (١) .

فشعائر هذا الدين وماسبقه من أديان فى أوقاتها المختلفة لم تحبس الانسان عن الدنيا فهى محدودة ميسورة قال تعالى :

(مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون(٢) .

وأما العمل فقد حث الدين عليه حين سوى سبحانه وتعالى بين المسلم يدئب نفسه باحثا عن لقمة العيش يستبقى بها حياته وحياءه ويصون بها عرضه ودينه - سوى سبحانه وتعالى بينه وبين المجاهد فى سبيل الله يبيع نفسه رخيصة فى ميدان لا هدف من ورائه إلا إعلاء كلمة الله فقال :

(وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ماتيسر منه)(٣) .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجة والدارقطنى وصححه ابن السكن .
(٢) المائدة : ٦ .   (٣) المزمل : ٢٠ .

ويقول الرسول - ﷺ - (ما أكل ابن آدم طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده) .

وأما العلم فقد حثنا الدين عليه . فقال تعالى :

(وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) [٢] .

كما يحثنا القرآن في كثير من آياته على التأمل والتفكر والنظر . وهي الطرق الواسعة التي توصل إلى العلم :

فكما يحث الدين على العمل للآخرة يحث كذلك على العمل للدنيا .

٦ — والدين هو الذي عرف الناس العقيدة الحقه في الله ذاتا وصفاتا وفي الرسل الكرام مايجوز في حقهم وما يستحيل وما يجب ثم مد أبصارنا إلى اليوم الآخر ومافيه من بعث وحشر وحساب وجنة ونار ولولا الدين ما استطاع العقل الانساني مهما أوتي من حدة في الذكاء واستقامة في التفكير أن يدرك ذلك إدراكا صحيحا وبجلاء ووضوح كما جاء في الدين .

٧ — والدين هو الذي عرفنا الشريعة الحقة فعلمنا الصلاة والصيام والذكاة والحج . كما يبين لنا طرق المعاملات الصحيحة . كما حد الحدود التي تصون النفس والعرض والمال وأنه لو لا الدين لما كان هذا .

ويصف القرآن الكريم الدين بأنه الحياة وبأنه النور الذي يوضح للسالك سبيله فيقول (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) [٣] .

وهكذا فعلت الأديان السماوية مع من نزلت وفيما شرعت من شرائع .

٨ — الدين هو الذي أقام الحضارات الأولى وأقعدها . وبإسمه أسست

---

(١) الترغيب الترهيب ج ٢ ص ٥٢٢ رواه البخاري وغيره .

(٢) التوبة : ١٢٢ .　　(٣) الأنعام :

حضارة الإسلام التي كانت أعظم حضارة شهدتها القرون الوسطى .

كما تحول بالعرب البداه الجفاة من بداوتهم وغلظتهم وجاهليتهم إلى رحماء وساسة وقادة عمروا الدنيا وأزادن بهم تاريخها وكان لهم هذا التراث الضخم الذي تتلمذت عليه أجيال الدنيا جيلا بعد جيل ولا تزال ولن تزال .

ويمثل هذا ارتفعت الأمم السابقة بأديانها السماوية حين تمسكت بهديها وعملت بما جاءت به .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث عن حاجة الإنسانية إلى الدين .

ولكن هناك أموراً قد يتوهم البعض أن فيها الغناء عن الدين ، وعملنا الآن أن نبين وجه الصواب فيها ليتضح الحق من الباطل . . . لما لها من صلة بموضوعنا هذا .

وهذه الأمور هي :

(١) هل بالعقل يستغني الإنسان عن الدين :

الدين يقدس العقل فهل نفحة من صنع الله .

والمؤمن يتعبد بإعمال عقله تحدثا بنعمة الله ويقدر النتائج التي يتوصل إليها إخلاصاً في أداء الأمانة التي أئتمنه الله عليها .

والإسلام لا يفتأ ينمي طاقة العقل ويبارك ثمارها ، وكيف لا يكون هكذا موقفه وقد أئتمن على أخطر قضية في الوجود ، قضية إدراك حقائق الدين الأساسية نفسها .

لكن العقل رغم ما وصل إليه ورغم تقدير الدين له ورغم إدراكه لبعض الحقائق العليا فإنه ليعجز كل العجز عن إدراك بعض التفريعات والتفصيلات التي جاء الدين بها كما أنه لا يستطيع أن يدرك من نفسه السمعيات التي وضحها الإسلام بعد أن جاء بها ، وبعد أن أقام أدلته على وقوعها .

ولا شك أنه أضأل من أن يشرح المعاملات التى جاء بها الدين كما أنه أقصر باعا من أن يفتى فيها ، أو فى العبادات .

ولكن ليس معنى هذا أننا ننكر ما تميزت به الرسالة الاسلامية عن غيرها من أنها الرسالة التى خاطبت العقل وجعلت أحكامها وتشريعاتها فى متناول أوساط ذوى العقول من الناس .

يقول الأستاذ / عبد الكريم الخطيب وهو يتحدث عن الرسالة الخالدة (من أبرز ما يميز الرسالة الاسلامية عن غيرها من الرسالات السماوية هو ربطها بالعقل وجعل أحكامها وتشريعاتها فى متناول أوساط ذوى العقول من الناس بحيث تبدوا وكأنها بعض الحياة التى يحيونها ويقلبونها بين أيديهم ويختبرونها بكل ماعندهم من وسائل الاختبار فيقبلون منها ما يقبلون عن أطمئنان وثقة ورضى دون أن يكون هناك تسلطات من خداع مادى أو أدبى تغشى حمى العقل وتلفه بدخانها وتغرق فى ظلامها فلا يملك العقل من أمره شيئاً بل يتحرك حيث يتحرك التيار المتسلط عليه ويقف حيث يقف به .

من أجل هذا كانت رسالة الاسلام قائمة على طريق الخلود تلتقى بالانسان حيث كان فى كل زمان وفى كل مكان لأنها دعوة موجهة إليه توجيها مباشراً من السماء ليس بينه وبينها أحد . إلا الرسول الذى تلقاها من ربه ثم تركها ميراثاً مشاعاً بين الناس جميعاً .

شرط واحد اشترطه الاسلام لمن يتلقونه ويدينون به هو أن يتلقونه بعقولهم وأن يأخذوا أحكامه وتعاليمه عن نظر وبحث واقتناع ، فمن لم يكن مقتنعاً بعد البحث وتقليب النظر فهو فى حل من أمره . إذ (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) (١) فإن الذى يقف إزاء الحق موقف الطالب له

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٦ .

المخلص فى البحث عنه لا بد أن لا يلتقى به يوما ، إن لم يكن اليوم ففى غد أو بعد غد)(١) .

فالعقل فى نظر الدين عامة والدين الاسلامى خاصة له مكانته فهو مناط التكليف والحساب وبدونه يسقط التكليف والحساب لكن هذه المكانة السامية التى بوأ الدين العقل إياها لا تجعل فيه الغناء عن الدين .

فهناك أمور عدة لا يستطيع العقل إدراكها بدون الدين .

وهذه الأمور يمكننا أن نوجزها فيما يلى .

(ا) لا يستطيع العقل وحـــده أن يدرك صفات الكمال والجلال كما لا يستطيع أن يدرك صفات التنزيه والسلب من تلقاء نفسه دون وحى من السماء يحمله إليه رسول فيبين له وجه الصواب فى هذه القضية التى تعتبر من أخطر القضايا . حقاً إن العقل قد يهتدى بفطرته إلى وجود خالق مسيطر على هذا الكون ولكنه لا يستطيع أن يثبت له صفات الجلال والكمال التى تليق بذاته المقدسة . كما أنه لا يستطيع أن يسلب عن هذه الذات العلية مالا يليق بها من صفات السلب .

(ب) لا يستطيع العقل أن يدرك اليوم الآخر ومافيه من ثواب وعقاب فهذه أمور سمعية لا مكان العقل فى إدراكها ، فهى ثابتة بالدليل السمعى حملها إلينا نبى معصوم موحى إليه من عند الله .

(ج) كذلك لا يستطيع العقل أن يدرك الجانب العملى من الدين ، فهو لايستطيع أن يدرك الصلاة بهيئتها وبعدد ركعاتها وأوقاتها وتوزيع عدد ركعاتها على هذه الأوقات بهذا العدد الذى نصلى به .

---

(١) التعريف بالاسلام : الاستاذ / عبد الكريم الخطيب ص ٥٥ .

ولذلك قال الرسول ـ ﷺ ـ (صلوا كما رأيتمونى أصلى) .

وكذا بقية الشرائع من زكاة وصوم وحج ومعاملات وميراث وحدود وغير ذلك من شرائع عدة زخر بها الجانب العملى من الدين .

وخلاصة القول أن العقل لا يستطيع أن يقنن فى أحكام الدين أو ينشىء رأيا فى قضية ، من قضاياه الأصلية الشرعية أو العقدية ، فهو معيار ومقياس وميزان فقط : أما الحكم فى قضايا الدين العقدية والعملية فهو لله وحده إنشاء وتقنينا وصدوراً .

نعم قد يترك للعقل الاجتهاد فى بعض فروع الشريعة لا فى أصولها وفى فروع الشريعة لا العقيدة لكن هذا الاجتهاد لا يرتفع بالعقل إلى درجة إنشاء الحكم وإصداره .

(ب) هل بالقانون الوضعى يستغنى الانسان عن الدين :

يدعى بعض الناس أن فى القانون الوضعى ما يغنى عن الدين . ذلك لأن القانون الوضعى قد رصد لكل عقوبة ما يردع من يحاول ارتكابها عن إتيانها ، ففيه ـ إذن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم .

فهل هذه الدعوى صحيحة ؟ لننظر :

إن الواقع المشاهد والأحداث الجارية تقول لنا ، إن هذه الدعوى زائفة فلا يزال القانون قائما والعمل به مستمرا ووزارتا الداخلية والعدل تجندان الآلاف المؤلفة التى تدئب نفسها عاملة ناصبة فى المحافظة على الأنفس والأموال والأعراض : فهل حال هؤلاء وأولئك دون وقوع جرائم القتل والسرقة والزنى ؟ الواقع يقول لا .

فالقانون لايمنع المجرم الذى يحاول أن يقترف الجريمة من ارتكابها متى أمن عقلة القانون أو الهروب من عقابه .

لكن الدين على العكس من ذلك تماما ، فالدين يتغلغل فى النفس المؤمنة فيحسن لها الحسن ويقبح لها القبيح ، ويسهر على كبح جماح هذه النفس الأمارة بالسوء إذا زين لها شيطان ماكر ، سواء أكان ذلك فى جمع أو فى خلوه ، فى وضح النهار أو فى ظلام الليل .

ذلك لأن العقيدة السليمة تخلق الضمير الحى اليقظ الذى يكون الوجاء والعاصم من الزلل ، وليس هكذا ماتواضع عليه الناس من قانون أرضى بين الحقوق والواجبات المفروضة لكل منهم على الآخر .

ويوضح الدكتور / محمد عبد الرحمن بيصار الفرق بين القانون الوضعى والدين فيوجزه فى هذين الأمرين .

(الأول : أن القانون الوضعى قد يفقد فى بعض حالاته صفة الالزام لأن طاعة القانون خوفا من العقاب أو رغبة الجزاء لا يمكن أن تأخذ صفة الالزام ولا يتوفر لها عنصر القوة الذى هو ضرورى لسواد هذا القانون واحترامه فى جميع الأحوال وتحت كل الظروف ، فسرعان مايعصى القانون عند أمن إطلاع السلطة المنفذة على المخالفة ، بخلاف الدين فإن المراقب فيه لاتخفى عليه خافية وهو الله سبحانه وتعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) [1] .

الثانى : أن القانون من وضع البشر فالواضع له إما أن يخطىء خطأ غير مقصود فى تحرية للعدالة ووجه الحق وإما أن يتوخى فيه مصالح جماعة

---

(١) المجادله - ٧ .

معنية أو طائفة : خاصة ويعمل على حماية مصالحهم ضد الآخرين أو عطائهم حقوق أكبر من الآخرين فالقانون الوضعى لا يكفى ولا يغنى على الدين .

ويتساءل آخرون .

ألا يكفى أن تجتمع طائفة من رجال القانون الوضعى فتنظم للناس تشريعات وتسن لهم قوانين تصلح أن تكون بديلا عن قوانين السماء وشريعة الله تعالى ؟) .

ثم يجيبون :

(ولكننا نعرف أن العقل البشرى وليد حاجات صاحبه ونتاج البيئة الخاصة التى يحيا فيها فمن المحال أن يتجرد هذا العقل البشرى تجردا كاملا عن نوازع البيئة : والوراثة والتقاليد التى نشأ فيها وتنسم نسيمها ومن هنا كانت أكثر أحكام هذا العقل اتصافا بالموضوعية لا تخلو على الإطلاق من نزعة ذاتية تختلط فيها الميول والأهواء الذاتية بالأحكام العقلية البشرية .

محال إذن على العقل مهما كان لديه من القدرة على التجرد والموضوعية أن يتجرد عن نزعته وميوله وأهوائه . ومن هنا كانت هناك القيم والقوانين التى تعتمد اعتماداً مطلقا على العقل البشرى وحده . تتصف بالنسبة وتختلط بالذاتيـــة .

وأنظر إلى تجربة قريبة العهد منا . . ففرنسا التى أنتجت قانونا وضعيا مازالت تعمل به حتى الآن كثير من الدول فى الشرق والغرب . ولم تتورع قواتها عن ارتكاب أفظع الجرائم فى المستعمرات التى وقعت تحت نيرها ولم تعدم من بين مشرعيها من يبرر تلك الجرائم ارتكاناً على حجج واهية وليس لها وجود عند المنطق السليم .

---

(٢) المختصر فى العقيدة والإخلاق ـ للدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ص ٣٧ — ٣٨ .

ولماذا نذهب بعيداً أليست أمريكا هي التي أعلنت وثيقة حقوق الإنسان؟ وأليست أمريكا نفسها هي التي أرتكبت أكثر الجرائم بشاعة في بقاع متفرقة من الأرض؟ أليست أمريكا نفسها هي التي تمارس التفرقة العنصرية بين البيض والسود في هذا القرن العشرين؟.

لا بد إذن أن يكون المشرع أو واضع القوانين والنظم الأخلاقية ليس بشراً تنزع به الأهواء والميول كل منزع وتنحرف به النزعات الذاتية في كل اتجاه لا بد أن يكون المشرع العادل عدالة مطلقة هو الإله القادر العليم الذي يستوي أمامه الناس جميعاً من كل لون وجنس. وبذلك تأتي قوانينه ونظمه لتحقيق العدل الكامل الذي لا يشوبه أنحراف أو محاباة).

ثم يقولون..

(إن القوانين والنظم التي يشرعها الحق سبحانه وتعالى هي وحدها التي تظفر من الناس بهذا الخضوع المطلق وهذا الرضاء الكامل.. لأن الغني والقوي يعلمان أن في تنفيذها طاعة لربهما ومرضاة لمولاهما الذي هو أكثر منهما غنى وأشد قوة وبذلك تظفر النفس بالسكينة ويظفر القلب بالرضا والطمأنينة.

وبعبارة أخرى فإن تنفيذ هذه القوانين يلبي حاجتين. حاجة خارجية للمجتمع. وحاجة باطنية داخلية قوامها الرضا والطمأنينة والسكينة للنفس الانسانية. وإذا تمت تلبيه هاتين الحاجتين توطدت دعائم الاسلام والأمن بين طبقات المجتمع وتعمقت أواصر الحب والود فيه وأضحى أداء الحق والتزام الواجب عملا يؤديه بلا إكراه أو قسر وبلا حقد طبقي أو تباغض اجتماعي)(١).

---

(١) أضواء على العقيدة الاسلامية والأخلاق تأليف لجنة من كلية أصول الدين ص ١٥ – ١٦ – ١٧.

وخلاصة القول . أن هناك فروقا عدة بين الدين والقانون الوضعى توضح — بداهة — أن القانون الوضعى لا يغنى عن الدين . . ويمكننا أن نوجز هذه الفروق الواضحة فى هذه النقاط الآتية .

١ — أن واضع القانون السماوى هو الله — سبحانه وتعالى — فى صورة كتب تنزلت على هذا الفريق الكريم من البشر الذين اختارهم ربهم لأداء رسالته فكانوا الأمناء على كلمته الأوفياء لها . أو فى صورة هذه التعاليم الكريمة التى قام بها هذا الفريق النابه من الرسل الكرام عملا وقولا فكان قرين وحى السماء .

فهذا القانون كله إذن من عند الله الذى لا يضل ولا يزل . ولا يسهو ولا يغفل ولا يخطىء . أما واضعوا القانون الوضعى فهم البشر الذين هم عرضه للخطأ والسهو والغفلة : وقانونهم مثلهم عرضه لما هم عرضة له من خطأ وسهو وغفلة كذلك .

٢ — أن واضع القانون السماوى هو الحكم العدل عدالة مطلقة لا تميلها الأهواء ولا تثنيها الشهوات .

أما القانون الوضعى فواضع بنوده هم البشر الذين لا ينتزعون عن الأهواء والشهوات فلا يستطيعون التجرد للعدل المطلق تجرداً كاملا .

٣ — أن الناس أمام قانون السماء ســـواء لا يتفاضلون بالألوان ولا بالألسن ولا بالأجناس بل كلكم لآدم وآدم من تراب :

ولكن معظم القوانين الوضعية تفاضل بين الناس لاختلاف ألوانهم وأجناسهم وألسنتهم :

٤ — أن القانون السماوى له تأثير على النفوس وسلطان على القلوب

فيأتيه الإنسان رغبة ورهبة فى ملأ أو فى خلوة فى ظلام الليل فى رابعة النهار .

وليس كذلك القانون الوضعى الذى يخالفه الانسان باسما متى أمن عقابه أو الهروب منه .

وبعد هذا العرض الموجز للفروق الواضحة بين الدين والقانون الوضعى يتضح لنا أنه لا غناء بالقانون الوضعى عن الدين .

(ج) هل الحضارة القائمة يستغنى الانسان عن الدين :

لا يستطيع أحد أن ينكر أن حضارة الغرب قدمت للإنسان الكثير من متاع الحياة .

فقد أقامت ناطحات السحاب : وملأت البيوت بأنواع الرفه والترف مما يسر الحياة وانتقل بها من البداوة إلى الرقى ومن الشظف إلى الرفاهية وأنها فى مجال العلم قد قدمت الأكثر : فهاهى مراكب الفضاء تروح وتغدوا آيبة ذاهبة بين الكواكب تكتشف الطريف العجيب وهاهى الماكينات تملأ المصانع من كل صنف، ونوع ينتج دولابها الدائر مايثير الدهش والحيرة . فهل قدمت هذه الحضارة لأهلها طمأنينة الضمير وسكينة النفس .؟ وهل أنزلتهم منازل الأمن والقرار ؟ بعد أن أفاءت عليهم من برها ظلالها الرحمة والمودة :؟ .

لنؤجل الإجابة على هذا التساؤل حتى نسمع إجابة فلاسفة الغرب الذين يعايشون هذه المدنيه ويعاصرونها .

أ . . . يقول العلامة «كاميل فلامريون» .

(لا يجوز لنا أن نتجاهل من اعترافى بما وقعنا فيه من الإنحطاط لأننا رضينا به وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة والأنانيه لا هم لها إلا أغراضها الذاتية ! ! أليس حظنا اليوم من الحياة قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها والحصول على المجد بطريق الإغتيال لا الكسب والجمود وعدم الإهتمام بالواجبات وإن من التناقض البين المؤلم أن نرى أن الرقى الباهر الذى حصل فى العلوم مالا مثيل له فى التاريخ . وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للانسانية فى الطبيعة - بينما رفع عقولنا إلى الدرجات العالية هبط بإنسانيتنا إلى أخس الدركات) .

ومن المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا يوما بعد يوم تنطفى حرارة قلوبنا وتتصوح[1] زهرة حياتنا القلبية بتأثير غلبة المطامع المادية والشهوات الجسدية[2] .

(ب) ويقول « فيبر نس جيفارت » .

(إن الهيئة الإجتماعية الحاضرة التى توحدت تماما فى أحوالها الماديه المماشية نراها بعكس ذلك متشعبة منشقة بالنسبة لمراميها الفكرية والدينية .

ولقد أجهدنا أنفسنا فى بيان كيف أن جيلنا هذا قد تدلى شيئاً فشيئاً إلى حضيض هذه الفوضى الأدبية الأخلاقية وإنا لنعتقد أنه لا يوجد إلا علاج واحد يداوى به هذا الداء العياء وذلك الداء هو العقيدة الدينية . فانها وحدها تستطيع أن تداوى العالم الإنسانى مما ألم به[3] .

ثم يقول : —

---

(١) تذبل .

(٢) الإسلام فى عصر العلم . . للاستاذ . محمد فريد وجدى ص٢٨٣ ج١

(٣) الإسلام فى عصر العلم للاستاذ / محمد فريد وجدى ص٣٤٢ ج ١ .

(وفى الواقع ماذا يفيد الإنسان علمه ببعض الحوادث الطبيعية . بجانب ذلك الإلحاد المتجدد المؤلم الذى يجرنا إليه الفاقد لحرارة الحياة) ؟ .

ثم يقول . . .

(إن الحقد والعداء يزداد يوما فيوما فى نفوس أهل البأساء المحكوم عليهم بالفاقة إلى الأبد . وإن جنون البذخ والجبروت ينمو على قدر ذلك لدى أولى اليسار والبذخ . . وهذا الالحاد الآخذ فى النمو يسوق جماعتنا بعاطفة المساواة[1] إلى حالة ثورية هائمة . . ولقد رجونا أن نداوى مصائب النوع الإنسانى بالكنوز المادية التى ألقيت بين أيدينا منذ قرن من الزمان ولقد تكاتف العلماء والمهندسون والصناع والميكانيكيون على زيادة متاع الحياة الدنيا زيادة عظمى ولكن لم يكن من نتيجة كل تلك المكتشفات إلا نشر حمى المال فى الطبقات السحيقة جداً .

فأى قانون أخلاقى يكفى لكبح جماح أهوائنا وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة ؟ لقد ذهب عنا الكمال المعنوى ولم يبق فينا إلا الخوف المبهم من شىء غير مدرك لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس !

ولهذا فانا نرى الذين لا إحساس لهم يستفيدون من وراء ما وقعنا فيه من النكبات ونرى العقول المستنيرة بالعلم المحرومة من الدين تعذرهم فى ارتكابهم الجرائم وبهذا فقد أصبحت الشهوات غير واقفة عند حد !

وإن تحت هذا السلم الذى اقتضاه الخوف العام لأحقاد تختمر إختماراً

---

(١) يقصد الفيلسوف بعاطفة المساواة تلك النزعة التى أوقعها الالحاد فى قلوب الناس حيث استندت دعوة الالحاد على مبدأ إلا وصاية من السماء على الانسان وأنه حر فى كل ما يأتى وما يدع من شئون الحياة ومن هذه الدعوة ولدت الوجودية أ هـ من كتاب قضية الألوهية للاستاذ عبد الكريم الخطيب جـ ١ صـ ٢ هامش .

بأشد مما كانت فى أى زمن من الأزمان، فإن جرائم الفوضويين وإفلاس الماليين وانتحار الآمر بأجمعها . وهذه الوساوس الخرافية الآخذة فى الانتشار بين الناس والجنون الذى لا ينتظر إلا سنوح الفرص وأصحاب الأسرة البائسين .

وكل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة البعيد القرار الذى عم أجناسنا ناشىء من عدم وجود قاعدة دينية تصلح لأحداث الوحدة والاخاء بين إحتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للحب .

ولذلك ترى ظلمات من الحزن والكمد آخذه فى الأسوداد كل يوم ملقية أطنابها على عالمنا ، ويزعم الانسان فى غرور، أن حرية الأثرة ستحصل له كل ما يتمناه من سرور وانشراح حتى صرنا وكل يوم لنا مطلب جديد وكل طائفة تسعى لنيل امتيازات جديدة وكل فرد يدعى لنفسه حقوقاً ليس لها حد تنتهى إليه . لهذا فقد أصبح الانسان بين هذا العقاب المنصب عليه من الكبر والتمرد معترف بأنه أمام الحياة أضعف مما كان فى أى زمن من الأزمان ! (١) .

هاتان الصرختان الحزينتان لهذين الفيلسوفين من فلاسفة الغرب مثال واضح القسمات على ما فعلت الحضارة القائمة من جانبها القاتم الذى قد يخفى على البعض وهما مثل جى لمئات الأمثلة يمكننا أن نسوقها كجواب من بنيها المعاشرين لها كدليل على ما فعلت هذه الحضارة بالناس يوم بعدت عن الدين وظنت أنها بما أتت من متاع زائل ومنهج براق ستعالج قضايا الانسانية بعيداً عن الدين وأنها مغنية عنها .

هذا ويزعم أننا لا نستطيع أن ننكر ما قدمته هذه المدنية المعاصرة لانسان هذا العصر فى ميدان العمل . . . إلا أننا يمكننا أن نحصر مآخذنا عليها فيما يلى .

---

(١) الاسلام فى عصر العلم للاستاذ / محمد فريد وجدى ص ٢٨١ ج١ .

١ — إن هذه الحضارة يوم تجردت من الدين وتمحضت للمادة أدخلت على مشاعر الناس وأحاسيسهم القلق والحيرة ولم تسكب فى قلوبهم إلا الأثرة والأنانية وحب الذات ولم تثر فى تفكيرهم إلا العدوان والتسلط .

فقد اتعب الناس صراعهم من أجل العيش الذى علمتهم المدنية حين بعدت بهم عن الدين أنه كسبهم الوحيد من هذه الحياة فى هذه الحياة التى لا حياة لهم بعدها فأفنوا من أجل حياتهم حياتهم . . وأرهقهم اضطرابهم أمام المطامع والمطامح فى دنيا كشرت عن أنيابها ولم تعط بالكثير إلا القليل وبالوجيه إلا الحقير . فتولد من الصراع من أجل العيش ومن اضطراب المطامع والمطامح هذا الألم النفسى وذاكم القلق وتولدالنهم فتعلم انسان المدينة المعاصرة أن يأكل ليأكل بدلا من أن يأكل ليشبع ونسى فضيلة الرضى .

٢ — دعت المدنية المعاصرة إلى الحرية المطلقة وإلى نبذ كل ما فيه عبوديتها حتى ولو كان هذا المعبود هو الله وكانت هذه العبودية له .

فماذا حل بالانسان حين حاول أن يتحرر من عبوديته لله ؟

هل نجح فى تحرير نفسه من العبودية تحريراً مطلقاً ؟ بمعنى أنه تحرر من العبودية لله ولغيره .

الواقع يقول لا . . .

إن الانسان حين حاول أن يتحرر من عبوديته لله أتخذ إلهاً هواه فاستعبده كل شيء .

استعبدته شهوته واستعبده الخوف من اليوم الحاضر والأمس الدابر والغد المظلم واستعبده الطمع والجشع تخضع لكل هذه واتخذها من دون الله أربابا تعبد .

ذلك لأن الانسان ليس فى وسعه أن يعيش بغير ولاء إلا إن استطاع

أن ينخلع من كيانه ودوافعه وإلا إن استطاع أن ينزع نفسه من الكون والحياة وهو ليس بمستطيع تحقيق ذلك .

فالإيمان إذن ضرورة كونية لا تخلقها مشيئة الفرد فهي نابتة في نفسه كائنة فيها فإن لم يؤمن بالله آمن بنفسه وإيمانه بنفسه يكلفه الكثير .

ذلك لأن الفرد الذي يعيش لنفسه يؤله ذاته ، ويزن كل خطوة يخطوها بميزان المنفعة الشخصية ، فهو إذن منقاد لهواء خاضع له ، وفي هذا ما فيه من القلق والحيرة اللتين بيناهما سلفاً .

فالإنسانية إذن لم توفر على نفسها شيئاً حين كفرت بالله وادعت أنها بهذا الجحود تتحرر من كل عبودية بل ما أفدح الثمن الذي دفعته في هذا السبيل .

ولقد نعى القرآن الكريم على أمثال هؤلاء ضلالهم في اختيار الطريق المعوج وتفضيله على الطريق المستقيم فقال :

(قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين[1] .

٣ — أنها انتقلت بانسانية الإنسان إلى وحشية الوحوش الضارية حياته كلها عراك وصراع غاية ما هناك أن الأسلحة التي يستخدمها كلا الطرفين مختلفة فالوحش يستخدم الناب والمخلب وهي تستخدم الصاروخ والمدفع .

ولقد أغرى الناس بالقتال ودفعهم إليه هذا التقدم الرهيب العجيب في آلات الدمار والهلاك التي أتقن صنعها في عهد مدنية الربع الأخير من القرن العشرين وأمام مرآها ومسمعها ولقد تسابق الشرق والغرب في صناعة آلات الدمار المفزعة حتى أصبح العالم على شفا جرف هار وحتى أضحى

---

(١) الأنعام — ٧١ .

لدى بعض الدول العظمى ما تستطيع به إفناء العالم — من مخزون السلاح — أكثر من مرة لو يتأتى ذاك .

٤ — أنها أوجد جفوة متسعة الدائرة بين الجسد والروح ثم تنكرت للروح وحاربتها وعملت جاهدة على تلبية مطالب الجسد وحده ونسيت الروح نسيانا تاما وأعرضت عن الدين وادعت زورا أنه معوق لمسيرة التقدم الإنسانى بل إنه ليأخذ بيد الإنسان ليقوده إلى الوراء .

وهذه مغالطة ينبغى أن توضح وجه الصواب فيها :

فلا تزال آثار حضارة الإسلام التى شهد بها ولها العدو والصديق البعيد والقريب باقية حتى اليوم .

وهذه نصوص قالها بعض أعلام الغرب البارزين وهم أبناء هذه الحضارة التى زعمت أن الدين يعوق المسيرة أسوقها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر كدليل لدحض هذه المغالطة .

(أ) يقول « دروى » وهو مؤرخ فرنسى .

(بينما أهل أوربا تائهون فى دجى الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إذ سطع نور قوى من جانب الأمة الإسلامية . . . من علوم وآداب وفلسفة وصناعات وأعمال يد إلى غير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان وفاس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشرت فى الأمم واغتنم منها أهل أوربا فى القرون المتوسطة صناعات وفنونا) .

(ب) ويقول المؤرخ « هو مبلد » .

(إن العرب خلقهم الله ليكونوا واسطة بين الأمم المنتشرة على شواطىء الفرات إلى الوادى الكبير بأسبانيا وبين العلوم وأسباب التمدن فتناولتها تلك الأمم على أيديهم لأن لهم بمقتضى طبيعتهم حركة تخصهم أثرت فى الدنيا

تأثيراً لا يشبه بغيره وهذه حجة كما قال غيرنا — ونحن نعترف به — على أنهم أساتذتنا ومعلمونا)

(ﺟ) ويقول « درابر » الأستاذ بجامعة نيويورك بأمريكا .

(إن أقوى وأكبر الممالك الدينية التي لم ير العالم مثلها قد ولدت فجأة من المحيط الأطلنطي إلى أسوار الصين ومع ذلك فلم تك قد بلغت نهاية ما قدر لها من الامتداد والنفوذ . فلقد أتى بعد ذلك حين من الدهر طاردت فيه خلفاء القياصرة وملكت بلاد اليونان ونازعت النصرانية السلطة على أوربا ونشرت نفوذ عقائدها خلال الصحارى الوحشية والغابات المرهوبة من أول شواطىء البحر الأبيض إلى خط الاستواء .

لقد طاف العرب معاهد الفلسفة والعلم بسرعة تشبه السرعة التي طافوا بها مملكة الرومان . . وإنا لتأخذنا الدهشة أحيانا لما تصادف في كتبهم من آراء علمية كنا نظنها نشأت هذا القرن . . . ومن هذا القبيل مذهب النشو والترقى الكائنات العضوية فقد كان يدرس في مدارسهم . . . وإن أوربا الحالية لا تعلو في حسن الذوق والرقة والظرف في شيء من أشيائها عما كان في العواصم العربية الأندلسيه في الزمن الذى نتكلم عنه .:. كانت في شوارع هذه العواصم مضاءة بالليل ومبلطة تبليطاً متقنا . وكانت البيوت مفروشة بالبسط ومزينة حوائطها بالنقوش وكانت تسخن في الشتاء بالمدافىء وترطب في الصيف بتيارات من النسمات المعطرة تصل إليها من سراديب تحت الأرض مغطاة فوهتها بالأزاهر الزكية :

وكان شعار العرب في ملاعبهم القناعة وطلاقة النفس بخلاف جيرانهم الغربيين فقد كان ديدنهم التهم في الأكل والإدمان للسكر . وكان الخمر حراما عليهم لا يقربونه[1] .

---

(١) النصوص الثلاثة من كتاب قضية الألوهية للاستاذ عبد الكريم =

هذه هي حضارة الاسلام كما جاء على لسان أبناء حضارة الغرب .

استنبتها العقل الديني ونمت شجرتها وترعرعت في الحقل الإسلامي فأثمرت هذه المعارف والفنون التي تعتبر بحق هي الرائد والقائد لحضارة اليوم فكيف يكون الدين إذن هو العائق أو المثبط .

إن حضارة الإسلام راضت العقل ورقيت الجسد وطمأنت القلب وزرعت في سويدائه فضيلة الرضى وفتحت العينين على الدنيا بقدر ما فتحتهما على الآخرة .

فهي حضارة لم تشق بأهلها بقدر مالم يشق أهلها بها .

هي حضارة لم تحول بنيها إلى قطيع من الأغنام وجد مرعى ممرعا فانطلق بين شجره ونجمه آكلا آكلا بل دعتهم إلى غشيان الوغى والعفاف عند المغنم[1] .

ولقد أمسكت العقيدة الإسلامية بالعرب يوم تحضروا وكان سلطانهم . هو الحاكم والمقيم لكل عمل يعملونه يوم أنفتحت لهم البلدان وآمن بالاسلام أبناؤها .

ولولا العقيدة الاسلامية ممسكة بقياد هؤلاء الأعراب لانقلبوا إلى مغول ينتزعون ويستولون على ما بأيدي غيرهم بالقسر والقهر . ولاندفعوا

= الخطيب ج١ ص٣٦ ، ٢٧ ، ٢٨ نقلا من كتاب الاسلام في عصر العلم للأستاذ محمد فريد وجدي مرتبه حسب ذكرها في هذه الصفحات ٢٧٥ . ٢٧٦ ، ٢٨٠

(١) هذه العبارة مقبسه من قول عنترة العبس يمتدح نفسه .

يخبرك من شهد الوقيعة أنني .
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

أي أنها حضاره أبناؤها يعطون أكثر مما يأخذون .

بدافع الحرمان إلى الشرة والبطنة والاستيلاء على أموال الغير بغير وازع أو مانع .

لكن الحضارة الدينية والمدنية التى جاء بها الاسلام هى كما قال أحد الباحثين عنها .

(لقد أصبحت الجاهلية بعد نزول القرآن حركة رجعية فى العالم كله ـ تدل على الجمود والغباوة ـ بعد أن أحدث الاسلام أثره فى النفوس كما يحدث الربيع أثره فى الحياة . فغير عقائد الناس واتجاهاتهم الفكرية ونظرتهم إلى الكون وإلى الطبيعة وإلى الحياة ، ونقلهم من صميم الظلمات إلى منطقة الضوء والاشعاع وانتشلهم من وهاد الفساد إلى قمة الصلاح . وصيرهم أساتذة العالم وسادة الوجود . كما أختفت الكهانة وأصبحت حركة مهينة بعيدة عن روح الحياة والعلم ، ، ورأى العالم منا الأعاجيب فعلمنا الجاهل وأعززنا الذليل . وقومنا المعوج ، وعالجنا المريض وأهدينا إلى البشرية الخائفة المذعورة أمنها وسلامها واستقرارها وكرامتها ، وأطلقنا مواهب الانسان وخصائصه لتصنع التقدم وتتفاعل مع الكون ، تعبد الله كما أفضنا على العالم حرية طلقة لا تستذل رقاب البشر ولاتخضعهم إلا لله) [1] .



(١) قيم حضارية فى القرآن الكريم تأليف توفيق محمد السبع ص٣٥٥ ، ص٣٥٦ .

ما يشتمل عليه الإسلام

المتأمل لما جاء به الاسلام من حقائق يراها قسمين :

القسم الأول ـ يتحدث عن أمور تتعلق بأمر قلبي أو بتعبير أوضح يتعلق بمعتقد محله القلب ، وذلك كالتصديق بوجود الله سبحانه وتعالى والتصديق باتصافه بصفات الكمال وبنفي صفات النقص عنه وبأحقية القرآن ورسالة محمد ﷺ وكالتصديق بالبعث وبالجنة والنار ، وغير ذلك من أمور اعتقادية نظرية تتعلق بالاعتقاد الذى محله القلب ودائرته الفكر والنظر وواجب المسلم ـ ليكون مسلما ـ أن يصدق بهذه الأمور تصديقاً يقينيا لا يقبل الشك .

وهذه الأمور يسمى فى تعبير القرآنى باسم الايمان ، كما تسمت فى العرف العام باسم العقيدة .

وهذا القسم تحدث القرآن الكريم فأكثر الحديث عنه .

قال تعالى :

« قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد [1] » .

كما قال :

« الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم [2] » .

---

(١) سورة الاخلاص .   (٢) البقرة ٢٥٥

وقوله تعالى :

« لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (١)

وقوله تعالى :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » (٢) .

وغير ذلك من آيات كثيرة عرضت قضايا العقيدة وناقشتها وردت بالأدلة الدامغة ماحاول به المفترون أن ينالوا من الحق الصراح الذى جاء به الاسلام ودعا أتباعه إلى التصديق به .

القسم الثانى : يتحدث ، عن أمور لاتتعلق بقلوب المكلفين من الناس أو اعتقاداتهم وإنما تتعلق بأعمالهم وبعبارة أوضح تتعلق بكيفيات أعمالهم .

وذلك كالحكم على الصلاة المفروضة بأنها واجبة وكالحكم على صلاة العيد بأنها مسنونة وكالحكم على القتل والسرقة بأنها حرام وغير ذلك من الأحكام التى بينتها الشريعة الاسلامية وتحدثت عنها .

وهذه الأمور تسمى فى التعبير القرآنى باسم العمل الصالح - وفى التعبير العام باسم الشريعة .

وهذا القسم : تحدث القرآن الكريم عنه كذلك فأكثر الحديث .

قال تعالى :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » (٣) .

---

(١) الأنبياء ٢٢ .
(٢) الطور : ٣٥ — ٣٦
(٣) المزمل (٢٠)

وقال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون (١) » .

وقوله تعالى :

« وأتموا الحج والعمرة لله » (٢) .

وقوله تعالى :

« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » (٣) .

وقوله تعالى :

« ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً » (٤) .

وقوله تعالى :

« ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا (٥) .

وغير ذلك من آيات كثيرة عرضت مسائل الشريعة أصلا وفرعاً وناقشت وبينت أنها السبيل حيث لا سبيل سواها فى إقامة مجتمع مطمئن على نفسه وعلى عرضه وعلى ماله فى يومه وغده .

ويمكننا أن نوضح العقيدة والشريعة ببيان الفروق التى تميز كلتيهما عن

---

(١) البقرة : ١٨٣ — ١٨٤ (٢) البقرة : ١٩٦
(٣) المائدة : ٣٨ (٤) الاسراء : ٢٣
(٥) الاسراء : ٣٢

الأخرى وهذه الفروق هى :

١ — أن العقائد واحدة لاتختلف من دين الآخر فلقد قالها الرسل جميعاً ماتخلف عن قولها واحد « منهم أن أعبدوا الله وأرجو اليوم الآخر » والقرآن الكريم وهو أصدق مرجع يقرر هذه الحقيقة حين يقول :

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا [١] .

يقول مجاهد عند تفسير قوله تعالى (شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينابه إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب [٢] .

« أى أوحينا إليك يامحمد وإياهم دينا واحد » .

وإذا كان هذا شأن العقائد فى أنها لاتختلف من دين لآخر من الأديان السماوية فإن الشرائع تختلف من دين لآخر .

قال الله تعالى ـ (لكل جعلنا منكم شريعة ومنهاجا [٣] .

يقول قتادة عند تفسيره هذه الآية .

للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة يحل الله فيها مايشاء ويحرم مايشاء بلاء ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ولكن الدين الواحد لا يقبل غيره : التوحيد والاخلاص لله الذى جاءت به الرسل ويقول أيضاً الدين واحد وشريعة مختلفة » .

---

(١) النساء — ١٦٣

(٢) الشورى — ١٣

(٣) المائدة — ٤٨

يقول الدكتور / سيد عبد التواب بعد ذكره هذين النصين .

(ولا يقتصر الاختلاف على الشرائع المتعددة وإنما يتم أيضاً في الشريعة الواحدة فمثلا وهذا رأى كثير من العلماء : أن عقوبة الزنا في أول الاسلام كانت بالنسبة للنساء الحبس في البيوت والمنع من مخالطة الناس حتى الموت وبالنسبة للرجال الايذاء وذلك بالسب والضرب بالأحذية قال تعالى :

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابا رحيما » (النساء : ١٥ — ١٦) .

ثم غيرت هذه العقوبة إلى الجلد لغير المحصنين رجالا ونساء والرجم للمحصنين رجالا ونساء قال تعالى « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » (النور ٢) .

وثبت في السنة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — رجم ماعزا والغامدية وكانا محصنين [١] » .

٢ — العقيدة هي الجانب النظرى من الدين أما الشريعة فهي الجانب العملى منه ولذلك فإن محل العقيدة هو القلب حيث يكون التصديق الجازم مع الشعور بالرضى والقبول وإقبال النفس عليه والاطمئنان به « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » أما الشريعة فتأنيها الجوارح ظاهرة واضحة كالصلاة والزكاة

---

(١) العقيدة الدينية في ضوء القرآن الكريم — للدكتور / سيد عبد التواب ص ٩ — ١٠

والحج وما إلى ذلك .

٣ — العقيدة نزلت كاملة مستوفاة لم يترك شيء منها لاجتهاد المجتهدين أو لعقول الباحثين بل تحدث القرآن الكريم عن جميع موضوعاتها أما الشريعة فقد اكتفى القرآن الكريم والسنة المطهرة ببيان أصولها وبعض تفصيلاتها وترك البعض الآخر من فروعها لاجتهاد المجتهدين وآية ذلك أنه جعل لذلك المجتهد المخطىء أجراً المحاولة الاجتهاد وقبول الرسول — صلى الله عليه وسلم — الرأى من رسول له أرسله إلى اليمن فى القضية التى لم يجد فيها حكم لله أو لرسوله .

فقد ثبت عن معاذ بن جبل — رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له « كيف تصنع إن عرض لك قضاء ، قال أقضى بما فى كتاب الله : قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله » قال : فبسنه رسول الله ﷺ قال « فإن لم يكن فى سنه رسول الله ؟ قال : أجتهد رأيى ولا آلوا قال فضرب بيده فى صدرى وقال « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضاه رسول الله » .

كما أن الشريعة لم ينزل دفعة واحدة بل نزلت متلاحقة فكانت الصلاة مثلا أسبق من الصيام فى الفريضة .

٤ — أن العقيدة أسبق فى الوجود من الشريعة . ذلك لأن العقيدة من عمل القلب والشريعة ترجمة عملية لما هو وأقر فى القلب وشأن العمل القلبى أن يتقدم على العمل الذى يفصح ويبين عنه ، كما أن العقيدة هى أول ماجاءت به دعوة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ودعوات الرسل من قبله فلقد كانت دعوتهم جميعاً تبدأ بهذه القاعدة أعبدوا الله مالكم من إله غيره .

فالعقيدة هى المرحلة الأولى من مراحل الدعوة ولقد جاءت نصوص

القرآن الكريم داعية لذلك فى مكة مثلا كانت الدعوة إلى الإيمان بالله ونبذ الأوثان وإلى الإيمان بالبعث وباليوم الآخر ومافيه .

والشريعة هى المرحلة الثانية فهى فوق كونها ترجمة عملية للعقيدة الواقرة فى القلب فإنها تنظم حياة الأمة الإسلامية فى الداخل والخارج ففى الداخل نظمت علاقة الأفراد بعضهم مع بعض بعد أن نظمت علاقة الفرد بربه وبالدولة التى يقيم فى كنفها وتحت إشرافها ورعايتها وفى الخارج رسمت سيادة الدولة الإسلامية بغيرها من الدولة المجاورة محاربين كان أبناء هذه الدولة أم مسالمين .

٥ ـ العقيدة هى الأصل والأساس ولذلك فإن غير المصدق بها يكون كافراً خالداً فى النار أما الشريعة فهى الفرع ولذلك فإن الإمام الشافعى رضى الله عنه ـ يرى أن تارك الصلاة على ضربين إما أن يتركها كسلا مع أعتقاده فى فرضيتها فإنه يستتاب ثلاثة أيام فإن تاب وصلى فذاك وإن لم يصل قتل حداً لا كفراً ، بمعنى أنه تجرى عليه أحكام الإسلام من غسل وتكفينه وصلاة عليه ودفن فى مقابر المسلمين وأحكام ميراث وغير ذلك أى أنه مسلم عاص فقط ، أما إن تركها غير معتقد لفرضيتها فإن يقتل كفراً لأنه أنكر أمراً معلوماً معلوماً من الدين بالضرورة ، وتقاس عليها بقية أحكام العبادات على الأصح .

فترك التصديق يؤدى إلى الكفر لأنه الأصل ، ولكن ترك الجانب العملى فى الإسلام وهو الشريعة لايؤدى إلى ذاك إلا إذا أنكرها المسلم فإن الإنكار ينقله من الإيمان إلى الكفر .

وإلى هنا يتضح لنا أن الإسلام ينقسم إلى عقيده وشريعه ولكن هذا الإنقسام لا يعنى أن المرء يستطيع أن يستغنى بأحداهما عن الآخرى فإن تارك الإيمان الآنى لفروع الشريعة من نطق بالشهادتين ومن صلاة وصوم وحج

وغير ذلك منافق ، والنفاق مرتبة أشد من الكفر توعد القرآن صاحبها بأنكى مما توعد به المشركين أنفسهم فقال :

(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) [1] .

كما أن المؤمن الذى يترك العمل بفروع الشريعة لايكون مسلماً لو ترك العمل إنكاراً له أما لو اعتقده ثم تكاسل عنه فإنه فى الإسلام يكون قد ارتكب جريمة تبيح دمه .

وإن كان الاسلام لايزال ينظر إلى الجانب العقدى الواقر فى نفس هذا الانسان فيعتبره من أبنائه العصاة على أن بعض الباحثين يرى أن تارك العمل بفروع الشريعة كالصلاة كسلا مثلا فإنه يقتل كفراً لاحداً بعد أن يستتاب ثلاثة أيام ذلك لأن الرجل الذى يفضل القتل على الوقوف بين الله - سبحانه وتعالى - لايصح أن يقال عنه وهو الذى فضل القتل على الوقوف بين يديه أنه لقيه على دينه الذى رضيه - سبحانه وتعالى لعباده .

فالعقيدة والشريعة تكمل كلتاهما الأخرى فيكون منهما معا هذا الدين الحق الذى رضيه الله سبحانه وتعالى لعباده طريقاً قويماً يلقونه عليه .

ولقد كانت كلمة الله الجامعة لمعرفة شعبتى الاسلام هو القرآن الكريم الذى جاء للناس بالهدى ودين الحق وبين لهم أن الاســـلام لايكون ولايثبت معناه ولاينجى المسلم يوم القيامة إلا إذا أخذ هذان القسمان (العقيدة والشريعة) طريقهما إلى قلبه وجوارحه معاً ولقد بين القرآن الكريم هذا المعنى أوضح بيان .

قال تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) الآية[2] .

---

(١) النساء - ١٤٥ .

(٢) فصلت ٣٠

ولعل الاستقامة هنا هى السير على أفرع الشريعة :

وقوله تعالى :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا »[1].

ولا شك أن العمل الصالح مما جاء به الاسلام من شرائع كالصلاة والصيام والزكاة والحج والحدود التى أقامها لعباده .

وليس من عملنا أن نتحدث عن الشريعة كجانب من جانبى الاسلام فللشريعة رجالها الذين تناولوا بأقلام واعية وأفكار نابهة مسائلها وقضاياها .

وإنما عملنا أن نتناول الآن الجانب الأول والأصيل فى الاسلام وهو الجانب العقدى وهذا ما أفردنا له الباب الثالث .

فعلى بركة الله إلى هناك .

---

(١) الكهف ١٠٧

اختبار لمراجعة التصدير . .

١ — يزعم بعض الملحدين من الناس « أن الدين مخدر للشعوب » .

ناقشى هذه العبارة ببيان وظائف الدين موضحة ما تذكرين . .

٣ — أجيبى عن التساؤلات الآتية ببيان وجه الصـــواب فيها . . معللة تذكرين .

(ا) هل بالعقل يستغنى الإنسان عن الدين ؟

(ب) هل بالقانون الوضعى يستغنى الإنسان عن الدين ؟

(جـ) هل بالحضارة القائمة يستغنى الإنسان عن الدين ؟

ينقسم الإسلام إلى عقيدة وشريعة . .

فما هى العقيدة ! . وما هى الشريعة ؟ مثلى لكليهما ثم بينى مع التوضيح والتعليل الفرق بينهما . وهل تكفى إحداهما للنجاة يوم القيامة ؟

تعريف بعلم التوحيد :

- تعريفه
- نشأته . . كيف ؟ متى ؟ الأطوار التى مر بها
- أسماؤه
- موضوعه
- الفرق بينها وبين الفقه وأصول الفقه
- الفائدة من دراسة هذا الفن

قبل أن نبدأ معاً خطونا على الدرب الطويل فإنه يتعين علينا أن نتعرف على هذا العلم الذى سنصحبه ويصحبنا فنعرف من خلال صحبتنا له عقائدنا الحقة فى الله ذاتا وصفاتا . وفى الرسل الكرام الذين توافدوا مع مواكب الزمن لرد قوافل الانسانية التائهة عن القصد المستقيم إلى القصد المستقيم .

ما يجب لهم وما يستحيل فى حقهم وما يجوز عليهم — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . ثم نمد بصحبتنا له أبصارنا إلى ما بعد الموت فنرتاد المجهول فنعرف اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وبعث وحشر .

فما هو هذا العلم ؟ وما هى أسماؤه ؟ وما أصل نشأته ومتى وكيف نشأ ؟..

وما هو موضوعه ؟ وما حكم الاشتغال به ؟ وما الغرض من دراسته ؟ وما الفرق بينه وبين الفقه ؟ ثم ما هى منزلته بين العلوم ؟

فعلى بركة الله إذن نضع قدمنا التى ندعو الله لتثبيتها على الدرب .

تعريفه :

عرف الباحثون فى هذا العلم بتعاريف شتى اختلفت باختلاف وجهة نظرهم إلى هذا العلم موضوع دراستنا وسنعرض منها ما يتناسب وهذا المختصر.

١ — علم يتضمن الحجاج عن العقائد — عقائد الايمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة [١] .

٢ — علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجب أن ينسب إليهم وما يمتنع أن يلحق بهم [٢] .

---

(١) ابن خلدون — المتوفى عام ٨٠٦ هـ - ١٤٠٦ م فى مقدمته .

(٢) الإمام محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م رسالة التوحيد .

٣ — يطلق التوحيد باطلاقين .

(أ) بالمعنى الشرعي الذى جاء به الإسلام وقرره القرآن فى كثير من سوره وآياته أعنى أفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفاتا وأفعالا .

(ب) بالمعنى الاصطلاحي المدون . وهو العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإراد الحجج ودفع الشبه . أو هو العلم الباحث فيما يجب لله وما يستحيل وما يجوز وعن السمعيات[1] .

نشأته : كيف ؟ .. ومتى ؟

كيف ؟ يكاد المتكلمون يجمعون على أن علم الكلام نشأ بنشأة الفرق الكلاميه من خوارج وشيعة ومعتزلة مرجئة وأشعرية . وأن مادة هذا العلم هى نتاج هذا التطاحن الفكرى العقدى الذى هو تراث الفرق الكلامية .

وهذا ينتج ـ بداهة ـ خلو عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم وعصر الخلفاء الراشدين من بعده من النظر العقلى العقدى . ويرجىء نشأة هذا العلم إلى الفترة الأخيرة من حكم الخليفة الرابع الراشد : على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ حيث كانت فرق الخوارج تتصارع فكريا مع فرق الشيعة ثم كانت بعد ذلك فرقتا المعتزلة وأهل السنة وغير ذلك من فرق كلامية أكثرت القول فى قضايا العقيدة وطال جدلهم حول مسائلها .

وشبه الإجماع هذا على خلو عصر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم والراشدين الأربعة من بعده من النظر العقلى العقدى وإعلانه تسليم الصحابة

---

(١) الدكتور سليمان خميس فى مذكراته الطلبة ـ كلية أصول الدين عام ١٣٨٢ ـ ١٩٦٣ م .

بكل ما جاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من عند ربه وربهم فى قضايا العقيدة دون نقاش رأى لانستريح له. فمع تسليمنا المطلق بخلو عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من هذا الجدل الذى ألف حامياً وطيسه بين الفرق الكلامية إلا أننا نعتقد أن هذا لا يعنى خلو هذه الحقبة من الزمن من النظر العقلى العقدى - غاية ما هناك أن هذه الفترة التأسيسية من حياة الإسلام طهرت من أدران الشبهات والفكر الملوث الدخيل وامتازت بنظافة القلب والعقل معاً . والقلب والعقل إذا خليا من أدران الشبهات وتطهرا وخلصا للحق أدركا الحق ولم يختلفا عليه وبإنعدام الخلاف تظهر الوحدة الفكرية ويتضح الإجماع المؤمن بها .

وهذا ما اتسم به عهد النبوة والراشدين من بعده فتوهم أنه تسليم دون نظر عقلى .

فعهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعهد الراشدين من بعده خليا من الجدل لا من النظر العقلى .

أن علم الكلام نشأ للدفاع عن العقيدة الإسلامية وإثبات قضاياها ودرء الشبهات عنها لا لعرض مواطن الخلاف بين الفرق الكلامية فقط .

فهو إذن لسان حق للدفاع عن العقيدة ولاشك أن حاجة العقيدة إلى هذا اللسان المدافع ماسة فى كل دور من أدوارها ابتداء من إعلان نبئها هذا وإلى مابعد يومنا هذا : فكيف يقال بخلو عصر الرسول والصحابة الراشدين منه ؟

الحقيقه أن علم الكلام نبتت جذوره الأصيلة فى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم وتطورت هذه الحياة العقلية بتطور الزمن حين ظهرت الفرق الكلامية فى آخر عهد الراشدين وبداية عهد بنى أمية فكان هذا التراث الضخم الذى ترعرع من الجذور النابتة فى عهد الرسول - ﷺ يقول الإمام محمد عبده :

(هذا النوع من العلم - علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوات كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض وكثيراً ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل ومقدماته فكان جل باقى علوم الكلام تأويل وتفسير . وادهاش بالمعجزات أو الهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فنهج بالدين منهجا لم يكن عليه ما سبقه من الكتب المقدسة منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقدموا عليه . فلم يقصد الاستدلال على نبوة النبى - ﷺ - بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة بل جعل الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه وقص علينا من صفات الله ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين .

وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والأتقان على أنظار العقول وطالب بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما أدعاه ودعا إليه[1] .

فقد بين الإمام المرحوم محمد عبده أن الله لم يطلب منا التسليم لمجرد الإخبار إليه . لكنه أقام الدعـــوى وبرهن عليها ولو كانت مجرد نسبة

(١) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٦ - ٧ - ٨ .

الإخبار إليه لا تحتاج إلى البرهان الذى هو المعنى المفهوم من التسليم ما برهن عليه لكنه برهن . بما يثبت للعقل النابه والبديهة الحاضرة صدق ما يذهب إليه .

إذن فعدم الخلاف فى مسائل العقيدة فى عهد رسول الله — ﷺ — لا يعنى تسليم الصحابه بما جاءهم به الرسول — صلى الله عليه وسلم لمجرد أن القائل رسول الله والمتكلم من السماء فهو لا يضل ولا يزل ولكنهم أجالوا فيه بصائرهم فوجدوه الحق الذى قامت عليه الأرض والسماء .

وانتهى عصر الرسول - ﷺ وكلمة المسلمين واحدة فلم يؤثر أن اختلف المسلمون فى عصر الرسول — ﷺ — فى قضية من قضايا العقيدة التى نزلت كامله ولم يترك العصر النبوى منها شيئاً .

فلما انتهى عصر الرسول — صلى الله عليه وسلم — حدثت خلافات بعضها عقديه وبعضها عملية كان لها الأثر فى نشأة علم الكلام .

هذا وسنوجز من هذه الأحداث ما يتناسب وهذا المختصر :

(ا) الخلاف فى موت رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

لقد ذهب بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه إلى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يمت وإنما ذهب إلى ربه كما ذهب موسى وليرجعن .

بل أن عمر بن الخطاب قرر أنه ليقطعن أيدى وأرجل رجال يزعمون أن محمداً قد مات .

لقد أحدث موت رسول الله - الحبيب إلى قلوب المسلمين جميعاً ذهولا جعل بعض كبار الصحابة يذهل عن هذا المصير الذى ينتظر العائلة الانسانية كلها ورسول الله واحد منها بل وينسى وهو فى ذهوله قول الله تعالى وهو يخاطب رسوله (إنك ميت وإنهم ميتون) .

وانحسم هذا الخلاف . بعودة أبي بكر رضى الله عنه من السنح[1] .

فدخل على رسول الله ﷺ - فى حجرة عائشة — رضى الله عنها — فوجده ممدودا على فراشه ومسجى ببردته فكشف عن وجهه فوجده قد فارق الحياة . فقبله قبلات الوداع بقلب منفطر حزنا وعينان تهيمان بدموع الفراق ثم قال قولته المأثورة .

(بأبي أنت وأمي يا رسول الله . طبت حيا وطبت ميتا . وانقطع لموتك ما لم ينقطع لموت احد من الأنبياء من النبوة والوحي ولولا أنك نهيتنا عن البكاء يارسول الله لأفضنا عليك ماء الشئون[2] أما مالا أستطيع رده عنا يارسول الله فهو حزن وأدناف[3] يتحالفان ولا يبرحان . اللهم فأبلغه عنا السلام) .

ثم صعد أبو بكر المنبر يكرر مقالته السابقة ثم أنشأ يقول :

من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ثم تلا قول الله تعالى :

(وما محمداً إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين)[4] .

---

(١) مكان بعوالى المدينة — وكان الصديق — رضى الله عنه — قد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم — أن يزور أهله هناك فقبض رسول الله وهو غائب .

(٢) شئون العين بمعنى عروقها — كناية عن دمع العين .

(٣) سقم أو هزال أو مرض .

(٤) آل عمران - ١٤٤ .

ثم يذكرهم بقول الله لرسوله (أنك ميت وأنهم ميتون)[1] فينتهى الخلاف وتتفق الكلمة .

(ب) الخلاف فيمن يلى الأمر بعد رسول الله - ﷺ - فقد اختلف الصحابة عقب موت رسول الله فيمن يخلفه . فقد اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعده يتشاورون فيمن يلى أمر المسلمين منهم وعلم المهاجرون بذلك فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فوجدوا الأنصار وقد هموا بمبايعة خليفة منهم .. واشتد الخلاف فى فيمن يلى الأمر حتى قال أحد الأنصار منكم أمير ومنا أمير .

ولكن أبا بكر بكياسته وحكمته استطاع أن يقنع الأنصار بأن الإمامة فى قريش وهذا حكم الله الذى ينبغى ألا تخالفه الأنصار لأن الله يقول :

(للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون)[2] .

قال أبو بكر - فسمانا الله الصادقين .. ثم أمر المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين فقال تعالى .. (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)[3] .

ثم روى لهم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال (الأئمة من قريش[4]) فانتهى أيضاً هذا الخلاف عند هذا الحد .

هذه على سبيل المثال لا على سبيل الحصر بعض الخلافات التى لاصقت العهد النبوى الكريم .. فلما تولى أبو بكر الخلافة واجه كذلك عددا من

---

(١) الزمر - ٣٠
(٢) الحشر - ٨ .
(٣) التوبة - ١١٩ .

الخلافات التى كان لها الأثر الذى لا ينكر فى نشأة علم الكلام وأن لم تكن فى ذاتها عقديه .

نكتفى منها بذكر :

(ا) الاختلاف فى المكان الذى يدفن فيه رسول الله :

(ب) الاختلاف فى تسيير جيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام .

(حـ) الاختلاف فى قتال مانعى الزكاة .

وسنعرض بإيجاز لكل واحدة من هذه الثلاث على حدة :

(ا) أين يدفن رسول الله — صلى الله عليه وسلم ... ؟ .

بينما كان المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون فيمن يلى الأمر بعد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى لا تتفرق الكلمة . كان جثمان النبى — صلى الله عليه وسلم على سرير موته يحيط به الأقربون من أهله فلما تمت البيعة لأبى بكر — رضى الله عنه — أقبل الناس على جهاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم لدفنه لكنهم اختلفوا إلى فرق ثلاث فى المكان الذى يدفنون فيه الرسول .

فقالت جماعة من المهاجرين يدفن فى مكة مسقط رأسه وبين أهله وقال آخرون — يدفن فى بيت المقدس حيث دفن الأنبياء من قبله مع أن الروم آنذاك كانت تسيطر على بيت المقدس وكانت بين الروم والمسلمين من الإحن والعداوات ما جعلت الرسول — صلى الله عليه وسلم — يجهز جيش أسامة ابن زيد للثأر فيقصر به الأجل دون رؤية هذا النصر الذى حققه أسامة على الروم فى البلقاء .

وقال آخرون بل يدفن فى المدينة المنورة دار هجرته وعاصمة الإسلام الأولى ومنزل هذا الرعيل النابه من أصحاب رسول الله الذين آووا الدعوة

ونصروها وفى رحابهم ترعرعت شجرة الاسلام وأتت أكلها كل حين بإذن ربها . ولكن أين يدفن بالمدينة ؟

أيدفن فى البقيع فهو مترحل أجساد أهل المدينة بعد مفارقة أرواحها لها ؟ أم يدفن بأحد وفيه وارى الرسول صلى الله عليه وسلم . أجساد نيف وسبعين شهيدا من خير جنده ولطالما نبه الرسول إلى مكانة هذا الجبل عنده ومنزلته من نفسه وحبه له فقال فيه : (أحد جبل يحبنا ونحبه) فلعل رسول الله أراد بهذا التنويه أن يرغب فى أن يدفن بعد موته بجوار هذه الأجساد التى افتدته بحياتها فوق قمة هذا الجبل . فتجمعهم ساحة أحد مخلصين فى رحاب الله كما جمعتهم قبلا فرسانا زائدين عن دين الله .

وظل الاختلاف قائما حتى حسم أبو بكر النزاع حين قال أنى سمعت رسول الله يقول :

(الأنبياء يدفنون حيث يموتون) فدفن الرسول فى حجرة عائشة ـ رضى الله عنها ـ .

(ب) الاختلاف فى تسيير جيش أسامة بن زيد لبلاد الشام :

فقد عقد الرسول ﷺ اللواء لأسامة بن زيد على رأس جيش وجهه لمنازلة الروم الذين أكثروا من الإغارة على القبائل الإسلامية المتاخمة لحدودهم ولرد اعتبار مؤته .

لكن الجيش ماكاد يبعد عن المدينة المنورة حتى دهمه الخبر المشئوم خبر وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فعاد الجيش أدراجه ليشارك فى وداع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولحماية المدينة من غارات المغيرين فى هذه الظروف العصيبة .

فلما انتهى الصحابة من دفن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر

أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ أسامة أن يقود الجيش إلى مهمته تنفيذاً لأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإتماما لعمل قصر الأجل برسول الله عن إتمامه واعترض عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ لأن انفاذ هذه المهمة يؤدى إلى تعرية المدينة من حاميتها فى ظروف تهددتها فيها الأخطار بعد أن انتفضت الجزيرة العربية كلها على الإسلام ما بين مرتد عنه إلى الوثنية أو منتقص لأركانه بامتناعه عن دفع الزكاة مما اضطر معه أبو بكر إلى عقد أحد عشر لواء لأحد عشر جيشاً لإخماد هذه الفتنة فى معارك حامية سميت بحروب الردة استغرقت فترة خلافة أبى بكر ـ رضى الله عنه .

لكن أبا بكر رضى الله عنه حرك الجيش تنفيذا لما أمر به رسول الله قبل وفاته ثم عاد عمر ـ رضى الله عنه ـ فاعترض على تعيين أسامة وهو حدث لقيادة الجيش وفيه كبار الصحابة والسابقون الأولون . فثار أبو بكر ثورته التى حفظها له التاريخ وقال . . « ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أيوليه رسول الله ويعزله ابن قحافة » .

فانحسم النزاع وتحرك الجيش بقيادة أسامة بن زيد .

لقد هدف أبو بكر إلى تنفيذ كل ما أمر به رسول الله قبل وفاته فغلبت حجته حجج الآخرين ولا شك لدينا أن فى تولى أسامة بن زيد قيادة هذا الجيش الذى يضم ـ بلا مراء ـ من هم أكثر منه دربة وخبرة وأسن منه فى ميادين القتال كان لحكمة قد تخفى على بعض المفكرين .

فأسامة هذا هو ابن القائد الأول الذى تحرك بالجيش إلى هذه الوجهة فاستشهد واستشهد معه قائدا الجيش الآخران اللذان عينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو قائد الثأر إذن .

ولقد تحقق ذلك فلم تمض عشرون يوما على مسيرة الجيش حتى أغار المسلمون على البلقاء وثأر قائد الثأر لأبيه وللمسلمين الذين قتلوا بمؤته وعاد

ممتطيا ذاك الجواد الذى قتل أبوه عليه يتقدمه اللواء الذى عقده له رسول الله بيده الشريفة قبل أن ينتقل إلى جوار ربه .

الاختلاف فى قتال مانعى الزكاة :

فقد حدث أن امتنعت بعض قبائل الأعراب عن دفع الزكاة . اعتقادا منهم أن الزكاة كانت خاصة برسول الله — صلى الله عليه وسلم — تدفع له وهو الذى يقوم بيده الشريفة بتوزيعها على أصنافها الثمانية الذين ذكرتهم الآية الكريمة . .

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)[1] .

قد بنوا معتقدهم على تفسير خاطىء لقول الله ـ تعالى ـ .

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم)[2] .

فالآية خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (خذ) إذن فالأخذ خاص به صلى الله عليه وسلم فليس لأحد أن يأخذها سواه .

وقوله : (وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم)

يفيد أن الزكاة لا يدفع إلا لم كانت صلاته سكن لهم وليس أحد كذلك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس لهم أن يدفعوها إلا له وليس لأبى بكر ولا لأحد ممن يلى الأمر بعده أن يطالبهم بها .

---

(١) التوبة : ٦٠

(٢) التوبة : ١٠٣

حتى قال قائلهم :

أطعنا الرسول مذ كان فينا فياالعباد الله ما لأبي بكر

ورأى أبو بكر فى منع الزكاة هدم لركن أصيل فى الإسلام دعا إليه القرآن الكريم صراحة . ونادت به السنة قولا وعملا .

فقرر قتالهم حتى يدفعوا الزكاة . وقال قولته المأثورة « والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه » .

واعترض عمر على أبى بكر - رضى الله عنهما فهؤلاء مسلمون فى نظر عمر قالوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وقائلها معصوم الدم مصان العرض والمال لا يجوز قتله أو قتاله .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم) .

ولكن أبا بكر أكمل الحديث ، فقال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فان قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) .

والزكاة حق الإسلام حق تستباح معه الدماء ثم سير أبو بكر الجيوش لقتال مانعى الزكاة وناصره فى ذلك عمر فانحسم النزاع .

وإن كان بعض الباحثين يرى أن هذا الخلاف لم يحسم وأن كل فريق تمسك برأيه واجتهاده . فقد ظل عمر يناصر أبا بكر رضى الله عنهما حتى لا تتشعب بالمسلمين السبل أو تتفرق الكلمة حتى إذا ولى الامر بعد

أن قضى أبو بكر نحبه طبق ما أدى إليه اجتهاده فرد إلى هؤلاء الذين قاتلهم أبو بكر لمنعهم الزكاة ما أخذ منهم من سبايا وغنائم .

وقبل أن يغادر الخليفة الأول الحياة عين عمر بن الخطاب خليفة له يلي الأمر من بعده حتى لا تتفرق كلمة المسلمين وحتى لا يحدث ما حدث في سقيفة بني ساعدة وكان ذلك مثار خلاف طويل بين المسلمين حول موضوع الإمامة التي لا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحد موضوعات هذا العلم الذي نتحدث عن نشأته .

ورغم هذا النزاع تولاها عمر بن الخطاب وحدث في عهده من الخلافات مالا حاجة بنا إلى سرده في هذا المختصر ولكن حزم ابن الخطاب - رضي الله عنه - وصرامته وجرأته في الحق وعدالته قيلا وبعدا في الحكم لم يفسح مكانا لتفرق الرأي أو اختلاف الكلمة .

ومن هنا فقد ظهر عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعصر الخليفتين من بعده بمظهر الرأي الواحد والكلمة الواحدة .

فقد كان الرسول هو المرجع في الحيرة وقضى الصاحبين من بعده ماقدر لهما من حكم في جمع الكلمة ومدافعة الأعداء . ولكن هذا لم يكن عن انغلاق عقلي وإنما كان عن تسليم بعد قناعة وبصر فقد جاء الإسلام على المحجة البيضاء ليلها كنهارها .

فلما تولى عثمان - رضي عنه - بدأت الفتن السياسية تطل برأسها إلى أن وقعت الطامة الكبرى بقتله في عقر داره . فقد اجتمع لقتله أو شاب تجمعوا من الآفاق وهاجموه في عقر داره بعد حصار دام أياماً وقد كان لعبد الله بن سبأ وهو يهودي أدعى الإسلام وبقي على يهوديته وأندس من بين المسلمين ينفث سمومه ليثير الفتن بين صفوفهم ، اليد الطولى في إثارة المسلمين بعضهم على بعض .

ولقد بدأ هذا الحاقد فتنته بالتظاهر بحب علي — كرم الله وجهه — بدعوى أنه أحق بخلافة رسول الله - ﷺ - من سواه وأنه ظلم بتولى غيره أياها . . ففي ذلك عدوان على حق مشروع لعلي . ثم تغالى في وحبه لعلي حتى زعم أن الله حل فيه . ثم طعن في خلافة عثمان فنفاه إلى البصره فأخذ ينفث سمومه فيها ، فنفى منها فذهب إلى الكوفة داعياً للثورة محرضاً عليها لكنه لم يجد آذاناً صاغية فذهب إلى بلاد الشام فلم يجد فيها أنصاراً فذهب إلى مصر فوجد فيها من عاونوه على دعوته . ومن تحركوا لقتل عثمان . رضى الله عنه - وهو يخط بيده الشريفة كتاب الله .

فبدأ بذلك الشقاق يدب بين صفوف المسلمين لحمل كلاهما السيف لقتال أخيه في مأساة دامية تقطعت لها شرايين الوحدة العسكرية والفكرية في الإسلام لأول مرة منذ تنزل به جبريل عليه السلام على الرسول - ﷺ في غار حراء ، وهذا الداء الوبيل هو أخطر ما أصاب المسلمين وهو الخلاف الحقيقي الأول في الاسلام الذى لم ينحسم عسكريا إلا بعد فناء الآلاف من الفرسان المسلمين والذى لم ينحسم فكريا حتى يومنا هذا .

فبعد أن بويع علي - رضى الله عنه - بالخلافة - مباشرة - خرج قوم عليه ظناً منهم أنه تباطأ في نصرة عثمان - رضى الله عنه - وأنه لم يتعقب القتلة فوراً للقصاص منهم . على حين كان للخليفة الرابع الراشد رأيا آخر في تعقب هؤلاء القاتلين . فما اختلف مسلم مع غيرة أومع نفسه في أن قاتلي عثمان ظالمة في رقابهم دم ذى النورين وأن القصاص منهم واجب . . لكن الخليفة كان يرى أن يرجأ هذا حتى تهدأ الفتن ويستتب الأمر . لكن أصحاب الرأى الأول وفيهم من كبار الصحابة من لم تحم حول تصرفهم ظنه أو شبهه أمثال عائشة وطلحة والزبير وغيرهم جندوا من المسلمين من يرى وجهتهم وخرجوا إلى العراق لقتال علي كرم الله وجهه في معركة - كانت لعلي - سماها المؤرخون باسم معركة الجمل .

فلما حسم علي - رضي الله عنه - النزاع مع هؤلاء حمل معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية قميص عثمان ملوثاً بدمه ونقض بيعة علي وجند أهل الشام لقتاله واعتبرهم علي بغاة خرجوا على حكم الإمام المبايع بيعة صحيحة فخرج لقتالهم فكانت ما عرفت بمعركة صفين وكادت الدائرة أن تدور على معاوية وجيشه لولا هذه المؤامرة المحبوكة الأطراف التي دبرها الشاميون الذين أبصروا الهزيمة تحيق بهم فحملوا المصحف يلتمسون تحكيم كتاب الله فيما شجر بينهم من خلاف وحاول علي - رضي الله عنه - أن يستمر في المعركة حتى نهايتها فقد أوشك النصر أن يصافحه وكادت الفتنة أن تنتهي ولكن جند علي لم يفطنوا لما دبر وخذلوه وقبل علي التحكيم الذي ظهرت به حيلة عمرو بن العاص وخطأ هؤلاء الذين حملوه على التحكيم، فإذا بهؤلاء الذين حملوه على وقف القتال وقبول التحكيم يخرجون عليه ويحملونه مسئولية هذا التحكيم ويقولون لم حكمت / الرجال ؟ لا حكم إلا الله ثم طلبوا من علي - رضي الله عنه - أن يقر على نفسه بأن التحكيم خطأ بل أن يقر بالكفر قبل أن يعودا معه إلى ميدان القتال .

ولكن عليا - رضي الله عنه - رفض ذلك فخرج هؤلاء عليه وذهبوا إلى قرية قريبة من الكوفة يقال لها حروراء ليتأهبوا لقتال علي . . حاربهم الإمام علي في موقعة النهروان فدبروا لقتله .

وليس لنا أن نتتبع حياة هؤلاء وتاريخهم ، وإنما الذي يعنينا هنا هو فكرهم العقدي ومدى تأثيره في علم الكلام الذي نتحدث عن نشأته .

عرف هؤلاء المنشقون باسم الخوارج ويبدوا أنهم كما خرجوا على علي خرجوا على أنفسهم فلقد تشعبت بهم السبل في مسائل العقيدة ولكن رغم اختلاف هذه الفرقة على نفسها في بعض المسائل العقيدية وتشعبها إلى فرق أثيرة إلا أنها اجمعت على ما يلي :

(أ) التبرؤ من على وعثمان :

ذلك لأن الخلافة عامة بين المسلمين يختار لهـــا قريشى أو عبد حبشى وأن هذا الخليفة المختار يجب أن يخضع لأمر الله عز وجل وليس له أن يحكم إلا بما أمر الله ـ عز وجل ـ وبناء على ذلك فخلافة أبى بكر ، وعمر صحيحة ، وكذا خلافة عثمان فى سنيها الأولى فلما بدل وغير وجب عزله لأن الإمام إذا غير سيرته وعدل عن الحق وجب عزله أوقتله كما خطأوا عليا فى قبوله التحكيم ثم جعلوا هذا الخطأ كفراً ثم كفروا الحكمين ومعاوية .

(ب) إذا خالف الإمام السنه وجب الخروج عليه .

(جـ) العمل بأوامر الدين جزء : من الإيمان فمن لم يعمل أو ارتكب الكبائر فهو كافر .

وبجانب هذه الجماعة التى كفرت عليا ـــ رضى الله عنه ـــ جماعة أخرى تغالت فى حب آل البيت وتشيعت لهم وهى الفرقة التى عرفت فى التاريخ باسم الشيعة ويمكننا أن نجمل آراءهم فيما يلى :

١ ـــ الأمامة ليست من المصالح العامه التى يفوض الأمر فيها إلى نظر الأمة .

وإنما هى ركن أصيل فى الدين لايجوز أغفاله .

ومن هنـــا فإنه يجب على النبى تعيين خليفة وأن يكون معصوما من الـــكبائر والصغائر .

ولقد عين الرسول .. ﷺ ـ من يخلفه وهو على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فهو من أهل البيت ومن السابقين إلى الإسلام وزوج فاطمة الزهراء وحياته مليئة بالجهاد الذى لاينازع فيها منازع فهو أذن أفضل من غيره وقد اقتصر المعتدلون منهم على ذلك ، وأما الغلاة منهم .

فمنهم ـ من خطأ أبا بكر وعمر وعثمان لقبوله الخلافة .

ومنهم من كفرهم وكفر من والاهم .

ومنهم . من قال حل فى على جزء إلهى اتحد بجسده .

ومنهم ، من رفعه إلى مرتبه النبوة حتى قال أن النبوة كانت لعلى ولكن جبريل أخطأ وذهب بها إلى محمد .

ومنهم من رفعه إلى مرتبة الألوهية وأول من دعا إلى تأليه على هو عبد الله بن سبأ الذى قال برجعة رسول الله - ﷺ - ثم انتقل من هذا القول إلى القول برجعة على .

٢ — الإمام الأول ورث عن النبي صلى الله عليه وسلم علم الظاهر وعلم الباطن وكل امام يورث ذلك لمن بعده ولا قيمة للعلم والحديث إلا ماروى عن هؤلاء الأئمة .

وبجانب هاتين الفرقتين وجدت فرقة أخرى هى الفرقة التى عرفت فى التاريخ باسم المرجئة وهى الطائفة التى أرجأت أمر المختلفين إلى الله فإنهم رأوا الخوارج يكفرون عليا وعثمان ، وبعض الشيعة يكفر عمر وأبا بكر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين - والأمويون يقاتلون الفريقين .

فظهرت المرجئة تسالم الجميع وتقف منهم موقف الحياد فلا تكفر طائفة منهم بل ترجىء أمر ثلاثتهم لله وترى أنهم جميعاً مؤمنون بعضهم مخطىء وبعضهم مصيب ولايستطيع واحد من الناس تعيين المحق منهم فليترك أمرهم وحكمهم لله .

ومن هؤلاء من أكابر الصحابة سعد بن أبى وقاص وأبى بكره وعبد الله ابن عمران بن الحصين .

وهذه الفرق الثلاث يطلق عليها بعض الباحث اسم الفرق السياسية لأنها بدأت سياسية ثم غلب عليها فيما بعد الطابع الدينى

وهذه الفرق ممتدة الجذور إلى اليوم الذى قبض فيه النبى - صلى الله عليه

وسلم ، فقد إنقسم المسلمون فى ذلك اليوم إلى ثلاث فرق بسبب من يخلف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فى أمارة المسلمين .

(ا) أكثر المهاجرين يرون أن تكون الخلافة بالانتخاب فى قريش:

(ب) الأنصار يرون أن تكون فى جميع المسلمين بالانتخاب .

(ج) بعض المهاجرين يرونها فى جميع المسلمين بالانتخاب .

وكان أول خـــلاف تلاحمت فيه هذه الفرق فكريا وتناحرت عليه هو :

مسألة الخلافة ، وقد بينا آراء هذه الفرق الثلاثة فيها والمسألة الثانية هى مسألة الجبر والاختيار ولا حاجة بنا إليها فى هذا المختصر كذلك أما المسألة الثالثة ، فهى مسألة مرتكب الكبيرة .

فالخوارج يرون أن مرتكب الكبيرة كافر والمرجئة يرون أنه مؤمن وأن الإيمان تصديق واقرار لا تضر معه معصية . . وعلى هذا فمرتكب الكبيرة مؤمن .

وكان لهذا الموقف المتضارب فى كفر مركب الكبير وإيمانه أثره الذى لا ينكر فى نشأة فرقة المعتزلة كبرى الفرق الكلامية .

فقد حدث أن عرضت هذه المسألة على الحسن البصرى ليبدى رأيه فيها فقد سأله أحد المسلمين . . فقال :

(يا أمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج من عن الملة وهم وعيدية الخوارج .

جماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعـــة وهم مرجئة الأمة فكيف تحـــكم لنا فى ذلك اعتقادا؟ .

فـكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : إنا لا أقول أن مرتـكب الـكبيرة مؤمن مطلق أو كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن أعتزل عنا واصل ـ فسمى هو وأصحابه (معتزلة) . . .

ووجه تقريره . أنه قال :

« أن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا أجتمعت سمى المرء مؤمنا . وهو اسم مدح والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا . وليس هو بـكافر أيضاً لأن الشهادة وسائر خصال الخير موجودة فيه لا وجه لانـكارها لـكنه أن خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها إذ ليس فى الآخرة إلا الفرقان ! فريق فى الجنة وفريق فى السعير لـكنه يخفف عنه العذاب وتـكون دركته فوق دركة الـكفار [1] .

فـكانت مشكلة مرتكب الـكبيرة التى سئلت عنها الحسن البصرى سببا فى خروج واصل بن عطاء وتسميته هو وأصحابه بالمعتزلة .

ولم يقف الخلاف بين واصل ومن تبعه وبين الحسن البصرى ومن بقى على نهجة عند مشكلة الـكبيرة وحدها . بل أن الخلاف قد أمتد أيضاً . إلى مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بارادته وأفعاله الاختيارية .

مسألة الصفات .

مسألة الثواب والعقاب هل هما واجبان عـــلى الله أم أن الله لا يجب على شىء .

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى ص ٦٠ ج ١ .

ولنفيهم صفات المعانى عن الله تعالى سموا أهل التوحيد .

ولقولهم بوجوب ثواب الطائع ووجوب عقاب العاصى على الله تعالى سموا أهل العدل .

ومن أهم المشاكل التى خالفوا فيها أيضا قولهم بوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى وكان أبو على الجبائى من شيوخهم ويرى كما يرون وجوب الصلاح والأصلح عليه تعالى . وكان أبو الحسن الأشعرى تلميذاً لأبى على الجبائى فلم يعجبه قوله بوجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى وأعتراض عليه قائلا :ـ « ما تقول فى ثلاثة أخوة مات أحدهم صغيراً والآخر مطيعاً والثالث عاصيا » ؟ فقال أبو على الجبائى . . . « الصغير لا يثاب ولا يعاقب . والطائع يثاب بالجنة والعاصى يعاقب بالنار » فقال أبو الحسن الأشعرى : « فإن قال الصغير يارب لم أمتنى صغيراً وما أبقيتنى إلى أن أكبر فأومن بك وأطيعك فأدخل الجنة فماذا يقول الرب سبحانه وتعالى ؟ . فقال الجبائى . يقول الرب سبحانه وتعالى « إنى كنت أعلم أنك لو كبرت عصيت فدخلت النار فكان الأصلح لك أن تموت صغيراً » قال الأشعرى فإن قال العاصى يارب لم لم تمتنى صغيراً حتى لا أعصاك فأدخل النار فماذا يجيب الرب ؟ . . . » فبهت الجبائى ولم يجب فترك الأشعرى شيخه الجبائى وخرج على الاعتزال وتبرأ منه واشتغل هو ومن تبعه من الأئمة كالباقلانى والاسفرائينى . والغزالى . والفخر الرازى والشهرستانى وغيرهم كما سار على نهجه كذلك أبو منصور الماتريدى واشتغل هؤلاء ومن تبعهم بابطال مذهب المعتزلة وسموا أنفسهم أهل السنة والجماعة . . . ورأيهم فى مرتكب الكبيرة أنه مؤمن عاص . أن مات ولم يتب أمره مفوض إلى الله إن شاء عفا عنه عذبه .

وإذا كانت مسألة الكبيرة سبباً مباشراً فى نشأة المعتزلة .كما كانت مسألة

الصلاح والأصلح سبباً مباشراً كذلك فى نشأة أهل السنة فإن مسألة الجبر والاختيار هى أساس نشأة الجبرية . . التى كان من أكبر دعاتها الجهم ابن صفوان .

ويقولون أن الجهم بن صفوان هذا الذى كان أول من دعا إلى هذا المذهب قد تلقى فكرته عن الجعد بن درهم وأن الجعد قد أخذها عن أبان ابن سمعان وأن أبان قد تلقاها عن طالوح بن أعصم اليهودى الذى كان معاصراً للنبى - صلى الله عليه وسلم - .

ومن أشهر آراء هذه الفرق نفى الاستطاعة عن العبد فلاقدرة له ولا إرادة ولا اختيار فهو كمثل الريشة المعلقة فى الهواء تحركها الرياح كما تشاء . فالله ، سبحانه وتعالى وحده هو الفعّال لكل شىء ولافعل للانسان ولا اختيار .

ولهذه الفرقة فرقة تقابلها فى الرأى تماماً هى فرقة القدرية التى كان من أكبر دعاتها بالعراق معبد الجهنى كما كان غيلان الدمشقى من أكبر دعاتها ببلاد الشام .

ويذهب القدرية هؤلاء أن الإنسان حر مختار وأن كل فعل يفعله بإرادته المستقلة بل ذهبوا أبعد من هذا حين قرروا أن الله لم يقدر الأشياء أزلا ولم يعلمها إلا بعد حدوثها .

ولقد كان لهذا القول العظيم فى الله أثره فى نفوس المسلمين فراحوا يتساءلون حتى أن بعضهم ذهب إلى من بقى من أصحاب رسول الله يسأله عن قيمتها .

وهذا هو الامام مسلم رضى الله عنه يحدثنا فى صحيحه عن يحيى بن يعمر .. فيقول أول من تكلم فى القدر بالبصرة « معبد الجهنى » فانطلقت أنا وعبد الرحمن بن حميد الحميدى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله - ﷺ - فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر . فوفق لنا

عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ داخلا المسجد فاكتنفته أنا وصاحبى أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننت أن صاحبى سيكل الكلام إلى فقلت ، أبا عبد الرحمن أنه قد ظهر قبلنا ناس يقرأون القرآن ويتقفرون العلم - أى يتقطعون له ـ يزعمون أنه لاقدر وأن الأمر أنف ـ أى مستأنف وأن الأمور لم يعلمها الله إلا بعد حدوثها - قال : - فإذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أنى برىء منهم وهم برآء منى والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه ما تقبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره ثم قال ، حدثنى أبى عمر بن الخطاب قال بينما نحن جلوس عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ دخل علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأسند ركبتيه إلى ركبته . ووضع كفيه على فخذيه . قال يامحمد أخبرنى عن الإسلام . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم ـ أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت أن استطعت إليه سبيلا قال : صدقت قال فعجبنا له يسأله ويصدقه .

قال فأخبرنى عن الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره قال صدقت قال فأخبرنى عن الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فأنه يراك

قال فأخبرنى عن الساعة . قال ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال فأخبرنى عن أماراتها قال أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان قال ثم انطلق فلبث مليا ثم قال لى ياعمر أتدرى من السائل قلت الله ورسوله أعلم قال فانه جبريل أتاكم يعلمكم

دينكم »[1] .

وبذلك نرى نشأة فرق ستة من الفرق الكلامية لكل واحدة منها رأيها الذي يختلف عن الأخرى وقد مسسناها رقيقاً .

ثلاث منها بدأت أول أمرها سياسية ثم انتقلت دينية هي الخوارج والشيعة والمرجئة وثلاث أخريات بدأت أولى أمرها دينية هي المعتزلة والأشاعرة والجبرية .

جمعها كلها العمل للدفاع عن العقيدة الإسلامية فاتفقت في أصـــولها واختلفت في فروعها .

من تراث هذه الفرق التي ذكرناها والتي أغفلنا ذكرها مخافة الأطالة نشأ هذا العلم الذي نحن بصدد الحديث عنه .

هذا ويمكننا أن نوجز أهم العوامل التي أدت إلى نشأة هذا العلم فيما يلي :

١ ـ وجود بعض المشاكل الكلامية نشب حولها الجدل واختلفت فيها الفرق على أثر هذه الفتنة الهوجاء التي اشتعل أوارها بمقتل عثمان ـ رضي الله عنه - ولم تنته بقيام دولة بني أمية ولا بقيام دولة بني العباس فقد توحدت الصفوف عسكريا ولكنها لم تتوحد فكريا إلى يومنا هذا .

٢ - اتساع الدولة الإسلامية ودخول كثير من العناصر الأجنبية عن العرب تحت رايتها على أثر الفتح الإســــلامي الذي أنداحت به الدائرة الاسلامية فشملت عناصر جديدة من الفرس والرومان والمصريين وغير ذالك وقد كان من بين هذه الرعايا من أسلم وحسن أسلامه كما كان من بين هذه الرعايا من أسلم ليكيد للإسلام والمسلمين الذين سلبوه - بزعمه - جاهه وسلطانه .

---

(١) مسلم واللفظ له . كتاب الإيمان باب إثبات القدر وأمارات الساعة حـ ١ ص ١٥٣ ، ص ١٥٨ ومسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٧ .

كما كان من هؤلاء من بقى على يهوديته أو نصرانيته أو مجوسيته وقد كان من بين هؤلاء الرعايا على اختلاف فهمهم من يناقش فى بعض مسائل العقيدة بغية الوصول إلى الحق .

كما كان البعض الآخر يناقش فى بعض مسائل العقيدة لمحاولة التشكيك فيها . فاستدعى ذلك أن يشمر علماء المسلمين عن ساعدى الجد للرد على هؤلاء وأولئك دفاعا عن دينهم وعقيدتهم فكان هذا عاملا قويا من عوامل تكثير المسائل الكلامية وبيان وجه الصواب فيها .

٣ — اختلاف الرأى فى المتشابه من القرآن الكريم خصوصا مايتصل منه بالأمور الاعتقادية فقد كان عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعهد الخليفتين الراشدين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما - من بعده عهدى تأسيس للعقيدة الاسلامية فلم تتفرق كلمة الأمة حول مسألة من مسائل العقيدة التى استوفاها الله كاملة - كما لم يحاولوا الخوض فى متشابه القرآن الكريم .

وإذا كان البعض قد حاول أن يخوض فيها على عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كما حدث من صبيغ حين تتبع المتشابه من القرآن الكريم وأخذ يسأل عنه ولعله كان يبغى الفتنة فأنه أتى من حزم أمير المؤمنين ما أذهب ما كان يجده برأسه فلقد ضربه عمر بعراجين النخل على رأسه حتى قال ذهب ما كنت أجده برأسى يا أمير المؤمنين .

ولكن بعد انتهاء هذه الفترة أخذ الناس يتساءلون عن المتشابه من القرآن الكريم أمثال :

قول الله تعالى (يد الله فوق أيديهم) [1] .

---

(١) الفتح : ١٠ .

وقوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) [1] .

وغير ذلك من الآيات التى من هذا القبيل .

ولقـــد كان للسلف فيها رأى يخالف الخالف فالسلف فوضوا الأمر فيها لله مع اعتقاد التنزيه المطلق له سبحانه وتعالى . . . فلله يـــد لأن القرآن قال (يد الله فوق أيديهم) لكن هذه اليد لا يعلمها إلا هو .

قال ربيعة الرأى عن قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » حين قيل له كيف استوى ؟ فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق .

وسئل مالك نفس السؤال كيف استوى ؟ . . فأطرق برأسه ثم قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعه .

أما الخلف فإنهم رأووا أن التفويض هذا لا يصلح فى دنيا تتسع آفاقها ويكتسب فكرها طريقا جديدا فى كل يوم فأولوا هذا المتشابه من القرآن بما يبقى للذات هيبتها ويحفظ لها قدسيتها وجلالها وبما ينفى المثلية عنه سبحانه وتعالى نفيا قاطعا .

كما فسروا الاستواء بالإستيلاء فى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » أى الرحمن استولى على العرش وملكه فهو مالك للعرش لا جالس عليه . . مبالغة فى نفى المكانية عنه سبحانه وتعالى .

وهكذا تتبع الخلف المتشابه من القرآن الكريم .

ولقد كان للخلف من قوانين اللغة العربيـــة واستعمالاتها ما يؤيد وجهتهم هذه .

---

(١) طه : ٥ .

ولاشك أن المتشابهات هــذه قد أخذت مجالا واسعا فى علم الـكلام وارتبطت ارتباطا وثيقا ببحث الصفات .

وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل - إن شاء الله عند حديثنا عن صفة المخالفة للحوادث .

٤ - ترجمة العلوم اليونانية إلى العربية فى عهد بنى العباس فى وقت شغف فيه المسلمون بالفلسفة اليونانية وفى فترة التمحيص والفلسفة للدين .

فاستقرار المسلمين وارتفاع مستواهم المادى قد أتاح لهم فرصة البحث والجدل والمناقشة فى مسائل العقيدة .

والإسلام ليس بدعا فى هذا فقد سبقتاه إليها كلا من اليهودية والنصرانية فاعترى ثلاثتهم هذين الطورين الواضحين فالاستقرار يدعوا إلى التأمل والتمحيص والبحث والفلسفة بعد التسليم الاذعان والإخلاص . ولقد تولدت عن محاولة فلسفة العقيدة الإسلامية فى عهد ترجمة الفلسفات اليونانية فى عهد المأمون أفـكار خاطئة : حاولت بجهل أو بتجاهل أن تنال من العقيدة الإسلامية فشمر علماء الـكلام عن ساعدى الجد لرد هذه الأفـكار الـكاذبة عن الدين فـكان هذا عاملا من عوامل نشأة علم الـكلام .

وهكذا نرى كيفية نشأة علم الـكلام . .

متى ؟ . .

بينا كيف نشأ علم الـكلام أما متى نشأ هذا العلم فإننا نرى أن لهذا العلم جذورا ممتدة من عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم .

فقد كان المشركون يجادلون رسول الله فى وحدانية الله فيقولون . .

(أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا شيء عجاب)[1] .

---

(١) ص - ٥ .

كما سألوه عن كنه ذات الله .. فرد القرآن بهذه السورة « قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » [1].

ثم نفى المثلية التي قد يصورها خيال مريض لله عن الله فقال (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[2].

ولا يعنينا تتبع الآيات التي تحدثنا عن مجادلة المشركين لرسول الله في الله تعالى - ونكتفي بما ذكره القرآن صراحة من أن المشركين كانوا يجادلون الرسول في ربه فقال تعالى (وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال)[3].

كما كانوا ينكرون نبوته فقالوا له (لولا نزل هذا القرآن على رجال من القريتين عظيم)[4].

كما جادلوا في البعث فقالوا ما يحكيه القرآن الكريم (أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد)[5].

وهل يتحدث هذا العلم عن غير هذه القضايا الثلاث ..

فعلم الكلام جذوره ممتدة من عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكنه لم يصبح علماً له أصوله وقواعده وكتبه ومصنفاته إلا في عهد الدولة العباسية [6] شأنه شأن غيره من العلوم فلم يصنف لها في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو عهد الخلفاء الراشدين من بعده .. لأن انشغال

---

(١) سورة الإخلاص. (٢) الشورى - ١١.
(٣) الرعد - ١٣. (٤) الزخرف - ٣١.
(٥) ق - ٤.

(٦) لاشك أن واصل بن عطاء كان أول من كتب في هذا العلم وكان ذلك في نهاية المائة الأولى للهجرة أي قبل قيام الدولة العباسية بإحدى =

المسلمين بتثبيت دعوتهم ودفاعهم عنها من أعدائها المتربصين بها هنا وهناك لم يتح لهم فرصة الكتابة والتصنيف آنذاك فلقد شغلهم السيف عن القلم فلما استقرت الأمور واتسعت دائرة الدولة الإسلامية وأصبح للسيف رجاله المرابطون فى الثغور وللقلم والفكر رجاله الباحثون المتأملون. وترجمت الكتب الأصلية إلى العربية واحتك العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ذوات الفلسفات والنحل المختلفة وكثرت المسائل العقدية التى دار حولها جدل وتشعبت فيها الآراء كما واجه المسلمون فى الأمصار التى فتحوها قضايا فقهية لم يكن لهم بها عهد فى عهد رسول الله ـ وكان للاجتهاد مكانته ومكانة لمعالجة مثل هذه القضايا. ألفت الكتب وصنفت التصانيف فى كل فن من الفنون

وكان لعلم الكلام مكانته السامية بين العلوم فى هذا الميدان .. فهو علم العقيدة الحقه فى وقت حاول فيه الطاعنون أن ينالوا من العقيدة كما تشعبت آراء المسلمين أنفسهم فى بعض مسائلها.

وأول من ألف فى علم الكلام هو واصل بن عطاء رأس المعتزلة وله (كتاب المنزلة بين المنزلتين)، (كتاب الفتيا)، (كتاب التوحيد)، (كتاب السبيل إلى معرفة الحق).

وكان ذلك فى أوائل القرن الثانى للهجرة حيث أن واصل بن عطاء توفى عام ١٣١ هـ.

ثم تبعه عمر بن عبيد المتكلم المعتزلى المتوفى عام ١٤٢ هـ فقد ذكروا له كتاباً فى الرد على القدرية وكبعض متكلمى الشيعة مثل هشام بن الحكم فقد نسبت له كتب فى الإمامة فى الرد على المعتزلة.

= وثلاثين عاما كما يقرر الدكتور/ مصطفى عبد الرازق فى كتابه التمهيد لتاريخ الفلسفة نقلا عن كتاب مفتاح السعادة لكن هذا العلم لم يصبح علما له أصوله وقواعده ولم تكثر فيه المصنفات إلا فى عهد الخليفة المأمون.

ثم ألف الامام أبو حنيفة النعمان المتوفى ١٥٠ هـ (كتاب الفقه الأكبر) (كتاب العالم والمتعلم) . . . كما نسب للامام الشافعى المتوفى سنة ٢٠٤ هـ كتاب باسم (الفقه الأكبر) .

وفى القرن الثالث ألف أبو منصور الماتريدى المتوفى سنة ٣٣٢ هـ (كتاب التوحيد) ، (كتاب المقالات) ، كتاب أوهام المعتزلة) رداً على أصحاب المقالات الباطلة . .

ثم تبعه أبو الحسن الأشعرى فألف كتباً كثيرة فى هذا المضمار منها (الابانة) ، الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الافك والتضليل) ، (التبين على أصول الدين) ، (مقالات الاسلاميين) .

وعلى هذا الدرب سار القاضى الباقلانى فكتب فى المقدمات العقلية التى تتوقف عليها أدلة الأشعرى مثل إثبات الجوهر الفرد ـ وأن العرض لا يقوم بالعرض وأن العرض لا يبقى زمانين .

ومن بعد الباقلانى جاء إمام الحرمين أبو المعالى فألف كتابه (الشامل) ثم لخصه فى كتاب (الارشاد) .

وهؤلاء المؤلفون الذين ذكرنا طرفا من كتبهم يمثلون الدور الأول الذى لم تختلط فيه العقيدة بالفلسفة . والذى كان النزاع فيه قاصراً على النزاع بين الفرق الكلامية وخاصة المعتزلة وأهل السنة .

أما الدور الثانى فيتمثل فى هذه الفترة التى ترجمت فيها الفلسفة اليونانية وتخصص فيها من سمـــوا بالفلاسفة الاسلاميين كالكندى والفارابى وابن سينا .

ولقد قام هؤلاء بشرح الدين على ضوء الفلسفة كما ـ اولوا التوفيق بين الدين والفلسفة . . فكان عملهم هذا حاملا لكثير من المتكلمين على الرد على هؤلاء وكان رأس المتكلمين الذين حملوا أقلامهم للرد على هؤلاء الفلاسفة الامام الغزالى فألف فى دراسة آراء الفلاسفة «مقاصد الفلاسفة» .

ثم كتب للرد على هؤلاء (تهافت الفلاسفة)

ولقد استعرض الغزالي ومن سار على نهجه من المتكلمين المبادىء التى ذكرها الفلاسفة مما يتصل بالالهيات وحملوا عليها وبالغوا فى نقدها فحدى بهم هذا إلى خلط علم الكلام بالفلسفة . . يتضح هذا فيما كتبه البيضاوى وعضد الدين الإيجى وسعد الدين التفتازانى وغيرهم . .

ولقد أكثر البعض من خلط كتب الكلام بالمسائل الفلسفية مما دفع ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية إلى إيجاد مذهب السلف على طريقة الحنابلة ومقاومة مذهب الاشعرى[1] .

وبذلك نكون قد انتهينا من نشأة علم الكلام كيف ومتى نشأ ومن عرض موجز للأطوار التى مر بها فى نشأته .

أسماؤه . .

تعددت أسماء هذا العلم لنفس السبب الذى أدى إلى تعدد تعريفه وهذه هى أشهر الأسماء التى أطلقت عليه وسبب إطلاقها .

(أ) علم التوحيد والصفات :

ولقد أطلقت هذه التسمية على هذا العلم تسمية له بأشهر وأشرف بابين من أبوابه الكثيرة المتعددة .

فالتعريف بالله وكشف معالم الطريق إليه ثم تنزيهه تعالى عن النقص وتحليته بالكمال المطلق . هو أفضل ما ينبغى أن يتعلمه الإنسان بل هو أول ما ينبغى أن يتعلمه الإنسان من علوم .

ولقد كان هذا هو الدرس الأول الذى يلقى به كل رسول قومه ـ أول

---

(١) التمهيد لتاريخ الفلسفة للدكتور / مصطفى عبد الرازق ص ٢٩٤ (بتصرف) .

ما يلائم فيبدأ معهم مسيرته داعيا إياهم إلى الله تعالى رابطا الخلق بالخالق فواصل الفرع بأصله الوثيق ونسبه العريق .

(ب) علم الكلام :

تتضارب الأقوال فى سبب تسمية هذا العلم بعلم الكلام ويمكننا أن نحصر ما قيل من تعليل لهذه التسمية فيما يلى .

١ — يرى البعض أنه سمى بعلم الكلام تسمية للكل باسم البعض فليست هناك صفة أثير حولها جدل ونزاع وأريقت بسببها دماء كما حدث فى صفة الكلام ، فلقد حدث نزاع دام بين الفرق الكلامية حول هذه الصفة ولا يزال التاريخ يحفظ بين صفحاته ما أثاره المعتزلة حول هذه الصفة وكم أهين من علماء بسبب اختلاف وجهات النظر فيها .

ولقد استمر النزاع شوطا طويلا حول هذه الصفة جعلها وما حدث من خلاف حولها تأخذ مكانتها العالية فى هذا العلم فسمى العلم كله باسمها تسمية الكل باسم الجزء .

٢ — ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام من باب الشيوع والذيوع والغلبة ذلك لأن الباحثين كانوا يصدرون أبوابه وفصوله ومسائله بقولهم الكلام فى الوحدانية الكلام فى القدرة والكلام فى كذا ـ فشاع اسم الكلام على هذا العلم وغلب عليه .

٣ — ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام باعتبار ثمرته لأنه يكسب الدواس له قدرة على الكلام فى تحقيق أصول الدين وإلزام الخصوم المجادلين له فى الحق بالحق بعد ما تتبين .

٤ — ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام تنويها بذكره وتقديراً له وحثا على تعليمه مبكراً مع تعلم الإنسان الكلام أى أنه العلم الذى ينبغى أن يلقن

للطفل مع تلقينه الكلام لحاجة الإنسان إليه فى حفظ أصول دينه وصونه أو لأنه لقوة أدلته وبيان حجته صار كأنه وحده الكلام وما عداه ليس بكلام كأنك تقول لمخاطبك قوى الحجة واضح البيان كلامك هذا هو الكلام كأن ما عداه ليس بكلام .

٥ — ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام باعتبار ما يتحقق به . ذلك لأن مسائله إنما تتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين بخلاف غيره من العلوم فإنه يتحقق بالتأمل ومطالعة الكتب ولأنه أكثر من غيره خلافا ونزاعا فهو مفتقر إلى الكلام أكثر من غيره للرد على المخالفين .

٦ — ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام نهيا . عن الكلام فى مسائله وقضاياه بعد أن كثر الخوض فيها وشاع الجدل حولها حتى ضل الناس الطريق إلى الحق فيها .

٨ — ويرى البعض أنه سمى بعلم الكلام تسمية له باسم المتدخلين به والباحثين فيه . .

فقد كان يطلق على المشتغلين به اسم المتكلمين فسمى هذا العلم باسمهم . .

ويقول الدكتور / مصطفى عبد الرازق :

ويبدو لى أن البحث فى أمور العقيدة كان يسمى كلاما قبل تدوين هذا العلم وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين . فلما دونت الدواوين وألفت الكتب فى هذه المسائل أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقبا لهذه الأبحاث قبل تدوينها وعلما على المتعرضين لها)[1] :

---

(١) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور / مصطفى عبد الرازق ص ٢٦٥ .

(جـ) علم أصول الدين .

وذلك باعتبار موضوعه وقضاياه التي يبحثها ويدرسها حيث أن هذه المسائل والقضايا هي الأصل للدين فمعرفة الله وصفاته وما يجب له ويجوز عليه وما يستحيل في حقه ومعرفة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ما يجب لهم وما يجوز عليهم وما يستحيل في حقهم ومعرفة اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب هي الأصول والأساس لهذا الدين .

(د) علم الفقه الأكبر :

سمى بالفقه الأكبر في مقابل العلم الباحث في الأحكام الفرعية المسمى بالفقه .

ذلك لأنه الفقه في الدين أما البحث في الأحكام الشرعية العملية المسمى في العرف بالفقه فهو فقه في العلم ولا شك أن الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم فلذلك سمى هذا العلم بالفقه الأكبر .

يقول الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه :

« الفقه في الدين أفضل من الفقه في العلم لأن الفقه في الدين أصل والفقه في العلم فرع وفضل الأصل على الفرع معلوم - قال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) ولا شك أن العهد يلزمه الاسلام أولا بقوله تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) أي ليوجدون ثم العلم يبنى على الدين فصار الدين هو التوحيد والعلم هو الديانة يعني الشرائع وهو بعد التوحيد ثم الدين عقد على الصواب والديانة سير على الصواب[1] .

---

(١) تمهيد .. للدكتور / مصطفى عبد الرازق ص ٢٦٨ نقلا من كتاب الفقه الأكبر المنسوب لأبي حنيفة النعمان - رحمهما الله .

موضوعه :

يختلف المتقدمون والمتأخرون من المتكلمين فى موضوع هذا العلم فالمتقدمون من المتكلمين يرون أن موضوع علم الكلام هو الكلام فى الواجب وحده ويقصدون بالواجب هنا ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته .

والمتأخرون فريقان ..

فريق يرى أن موضوع علم الكلام هو الموجود من حيث إثبات العقائد الدينية والموجود يشمل الواجب والممكن .

والفريق الآخر من المتكلمين والمتأخرين يرى أن موضوع علم الكلام هو المعلوم من حيث إثبات العقائد الدينية ..

فهو على هذا الرأى يشمل أقسام المعلوم الثلاثة الواجب والجائز والمستحيل وهذا الرأى الأخير هو الذى نستريح له لأنه أشمل من سابقيه .

الفرق بينه وبين الفقه وأصول الفقه

تتمايز العلوم بتمايز موضوعاتها ، وقد بينا سلفا أن موضوع علم الكلام هو المعلوم بأقسامه الثلاثة : من واجب وجائز ومستحيل من حيث أنها توصل إلى إثبات العقائد الدينية .

وموضوع علم الكلام هذا يوضح الفرق بينه وبين غيره من العلوم بيد أن هناك علمين قد يظن أنهما ليسا متميزين عن هذا العلم هما علم الفقه وعلم أصول الفقه ومثار هذا الظن أن هذه العلوم الثلاثة تبحث فى الأحكام الشرعية :

لكن هذه العلوم الثلاثة وإن كانت متفقة فى أن ثلاثتها فى الأحكام الشرعية إلا أن كل واحد منها يختلف عن الآخر .

فموضوع علم الفقه أعمال المكلفين من حيث بيان كيفيتها من وجوب وحرمة وكراهة وندب وإباحة .

أما موضوع أصول الفقه فهو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة السمعية فعلم الفقه يقول مثلا الصلاة واجبة والدليل على وجوبها قول الله - تعالى - (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (١) لكنه لا يعرفنا كيف استنبط حكم الوجوب .

أما علم أصول الفقه فانه يقول لنا إن الصلاة واجبة لأن الله قال لنا « فأقيموا الصلاة » والحكم صدر على سبيل الأمر والأمر للوجوب .

فالفقه يبين الحكم فقط وعلم أصول الفقه يبين كيفية استنباط الحكم .

ولاشك أن بيان الأحكام العملية وبيان كيفية استنباطها تختلف تمام الاختلاف عن الحديث عن عقيدة الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب . الذى هو موضوع علم الكلام . ولذلك سمى الإمام أبو حنيفة الكلام بأنه هو الفقه الأكبر فى مقابل علم الأحكام العملية المسمى بعلم الفقه الأصغر .

يقول أبو حيان التوحيدى وهو يوضح الفرق بين الكلام والفقه .

« أما الفقه فإنه دائر بين الحلال والحرام وبين اعتبار العلل فى القضايا والأحكام وبين الفرض والنافلة وبين المحظور والمباح وبين الواجب والمستحب وبين المحثوث عليه والمنزه عنه .

أما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار فى أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل فى التحسين والتقبيح والإحالة والتصحيح والإيجاب والتجويز والاقتدار والتعديل والتجوير والتوحيد والتفكير . والاعتبار

---

(١) الحج : ٧٨

فيه ينقسم بين دقيق ينفرد العقل به وبين جليل يفزع إلى كتاب الله تعالى فيه ، ثم التفاوت فى ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم فى البحث والتنقيب والفكر والتحبير والجدل والمناظره والبيان والمناضلة والظفر بينهم بالجدل سجال ولهم عليه مكر ومجال . وبابه يجاور لباب الفقه والكلام فيهما مشترك وإن كان بينهما انفصال وتباين فإن الشركة بينهما واقعـــة والأدلة فيهما متعارضة ألا ترى أن الباحث عن العالم فى قدمه وحدثه وامتداده وانقراضه يشاور العقل ويستخدمه ويستضىء به ويستفهمه .

كذلك النظر فى العبد الجانى هل هو مشابه للمـال فيرد إليه . أو مشابة للحر فيحمل عليه فهو يخدم العقل ويستضىء به » [1] .

هكذا يتضح لنا الفرق بين الكلام وبين الفقه وأصول الفقه .

الفائدة من دراسة هذا الفن

يمكننا أن نوضح الفائدة المرجوة من دراسة هذا الفن فيما يلى :

١ - أنه ينتقل بعقيدة الإنســـان من مرتبة التقليد المحض إلى أعلى درجات اليقين .

٢ - أنه يرشد المسترشد بإيضـــاح الدليل له ويلزم المعاند بإقامة الحجة عليه .

٣ - أنه يحفظ لقواعد الدين حقها ويتسامى بها عن شبه المبطلين .

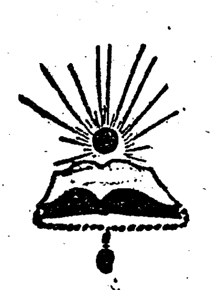
---

(١) التمهيد : للدكتور / مصطفى عبد الرازق ص ٢٥٨ - ص ٢٥٩ نقلا من رسالة ثمرات العلوم ، لأبى حيان التوحيدى المطبوع بذيل كتابه «الأدب والإنشاء فى الصداقة والصديق » الصفحات ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ .

٤ - أنه هو الأصل والأساس الذى تبنى عليه العلوم الشرعية .

ذلك لأنه إذا لم يثبت لهذا العالم صانع عالم قدير مرسل للرسل منزل للكتب ما تصور فقه ولا تفسير ولا غيرهما من علوم شرعية .

٥ - أن يربى فى الإنسان الإخلاص فى العمل فإن الرهبة من الله ومراقبته فى السر والعلن ثمرة من ثمرات الاعتقاد الصحيح الذى يتعلمه الإنسان من هذا العلم .



الباب الأول

الله - سبحانه وتعالى

الفصل الأول :

ذات الله كما حدثنا عنها الإسلام

الفصل الثاني :

صفات الله كما يحدثنا عنها الإسلام

لقد شغل التفكير فى الله قلوب الناس وعقولهم فأدابوهما معاً ـ جادين ـ فى البحث عنه سبحانه وتعالى ـ وقضوا ثمين وقتهم فى التخبط والتمزق فأضاعوا من عمرهم الكثير ، وكم تضيع فى التخبط والتمزق قوى كانت تأتى بربح أوفر لو انفقت فى الاعتقاد الواعى المستنير المتجه إلى قبلة واحدة ومعبود ليس له شريك

فلطالما ترددت فى عقول الناس أسئلة كثيرة تدور كلها حول وجود الله هل لهذا الكون إله ؟ وإذا لم يكن لهذا الكون إله فلماذا قام هذا التفكير فى عقول الناس فشغلوا به ليل نهار ؟

إن كل الدلائل تشير إلى وجود قوه عليا تسير هذا الكون وتنظم حركته بعد أن خلقته وأودعت فيه مابه بقاؤه وحياته ، فما هى هذه القوة وأين موقعها ؟

إن التفكير فى الله يقع فى كل قلب ويشغل كل عقل ويملأ الوجود الإنسانى ومن قبل أن تطلع شمس المدنية بقرون وقرون والناس يقرون بوجود قوة عليا تسيطر على هذا الكون : غاية ماهناك أن وسائلهم فى البحث عنها وتصورهم لها وإيمانهم بها وإدراكهم لصفاتها قد يبعد عن الصواب حينا بقدر ما يقرب منه حيناً آخر .

ومن هنا توافدت مواكب الرسل الكرام تحمل للإنسانية فى كل عصر ومصر ما يصحح لها عقيدتها فى الله ذاتاً وصفاتاً ويضع أيديها على مايجب لله ـ سبحانه وتعالى ـ وما يجوز وما يستحيل عليه .

وسبيلنا الآن وبإيماءة خاطفة أن نوضح العقيدة الحقة الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً ، فعلى بركة الله نتحدث عن الله .

الفصل الأول

ذات الله كما يحدثنا عنها الاسلام

لقد حاول بعض الباحثين أن يجرد الذات الإلهية تجريداً مطلقاً فعزلها من حيث لا يدرى عن مباشرة سلطانها على هذا الوجود وكان يهدف من وراء هذا الصنيع إلى تقديسها وتنزيهها عن الاتصال بهذا العالم الأرضى الذى يموج بالمفاسد والشرور وهؤلاء من سموا بالمجردة .

كما نزل بها البعض الآخر إلى هذا الثرى الذى تلوثت بها أقدامنا — صباح مساء فأفقدها هيبتها وجلالها حين صورها فى صورة إنسان أو غيره وكان يبغى بمخالطة الذات للناس ومعاشراتها لهم أن يبين مدى هيمنتها على هذا الكون ومباشرة سلطانها عليه — وهؤلاء هم من عرفوا باسم المجسدة .

وجاء الإسلام ليضع فى هذا الأمر الخطير آيه الآيات ومعجزة المعجزات ويبين للناس ذات الله كما ينبغى لها من تنزيه وتقديس فبماذا تحدث عنها لقد تحدث الإسلام عن ذات الله فحدد معالم حديثه عنها فيما يلى .

١ — رفض أن يكون الإله مادة محسوسة ملموسة مجسدة يبين الناس تخالطهم وتعاشرهم لأنه لو كان كذلك لتحدد ولا احتواه المكان والمكانية منفية عنه سبحانه وتعالى .

ذلك لأنه — سبحانه وتعالى — لو احتواه المكان لوقع فى دائرة الحس وفى محيط النظر ولأصبح يحويه مكان وتفرغ منه أمكنة أخرى ويرى خلقاً ويغيب عنه خلق آخر وهذا ما يجعله لا يحسن الإشراف على هذا العالم وينفى هيمنته على أرضه وسمـــاته كما أن فى مخالطة الله الناس ما يذهب بجلال الألوهية ويقضى على هيبتها ورهبتها وهذا ما حمل الإسلام على توفره لله رب العالمين .

٢ — رفض أن يكون مفهوم الإله — الذى نادى الناس لعبادته أمراً معنوياً وفكرة مجردة مطلقة لا يدل عليها وصف ولا يفهم لها واقع تتجلى فيه . فإنها لو كانت كذلك لما أمسك بها عقل ولا ماطمأن إليه قلب بل ولما أثرت هذه الفكرة فى قلب الإنسان رغبة ورهبة .

٣ - بين أن الله ذات تتصف بصفات الجمال والكمال وتتنزه عن صفات النقص وهذا من شأنه أن يكون فى الذهن والفؤاد إدراكا لله رب العالمين مع احتفاظ القلب والعقل بماله من جلال ووقار فإذا ماحاول العقل أن يفلسف هذه الذات ويبحث عن كنهها وكيفيتها ويتخيل لها - حسبما أوجب الإسلام لها من صفات - صورا وأشكالا رأى الاسلام فى هذا التصور بصيصا من الخطر يتهدد جلالها ووقارها وإنزالها من مكانتها لتعيش فى عقول الناس على أى صورة أريد بها ولها فسارع لايلوى على شىء إلى نفى هذا التصور فنفاه .

وهذا هو القرآن الكريم ينفى ما قد يجول فى خلد بعض الناس عن كنة هذه الذات الخالقة القاهرة فيقول عن الله - سبحانه وتعالى .

« ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » .

ويعمل هذا المعنى عمله فى تفكير الإنسان فتأخذ تلك المفاهيم التى ربما قد تكون قد أخذت فى التشكيل والتجسيد فى الذوابان ، والفناء .

لقد جعل الإسلام حقيقة الذات - فى ذاتها - أمراً وراء كل تصور .

ولما لم يكن بد من أن تتصور فقد أسعفنا القرآن الكريم بالقدر الضرورى الذى يسد حاجتنا فى هذا المقام فجعل للإله مفهوما غير مجسد - جعله كما ذكرت - ذاتا لها العلم والقدرة والحياة ... ألخ .

وهذه الصفات ليس كمثلها شىء من الصفات البشرية التى بمثلها البشر يتصفون فالعلم مثلا صفة لله وصفة كذلك لبعض البشر ولكن فرق كبير بين العلم صفة لله وبين العلم صفة البشر مهما كان فكرا وسعة اطلاع ولسانا وقلما -

وكان من أجل ما جادت به قرائح المفكرين الاسلاميين أن عبروا عن الله سبحانه وتعالى بأنه ذات . . لها صفات الجلال والكمال ذاكم التعبير الذى لا يعطى مدلوله تجسيدا ولا تجريدا وإن كان يدل على وجود فعلى لاتدركه العقول ولاتحيط به الأفهام ولكن .

إذا كان هو هذا شأن الاسلام فى عرضه لذات الله ـ سبحانه وتعالى التى ليس كمثلها شىء ـ أما كان من باب تقرير هذا المعنى فى الأفهام والأذهان الا يسند اليها شىء يومىء إلى المثلية كالعين واليد والكيد والمكر والاستواء مثلا إن القارىء للقرآن الكريم يراه يقول .

١ ـ « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم »[١] .

٢ ـ « إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا »[٢] .

٣ ـ « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »[٣] .

٤ ـ « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم »[٤] .

٥ ـ « الرحمن على العرش استوى »[٥] .

وهل كان من الضرورى أن يذكر القرآن الكريم للذات ما يوهم المماثلة من جوارح ومعانى ـ ؟

وتدفع هذه الشبهة بأن هذه الصفات لابد أن تذكر لكى تمسك المفهوم للذهن المطلق وتقيم منه مفهوما يحدث عن الذات التى يرى فيها الإنسان صفات الكمال التى يعرف الله بها ويعبد عليها .

يقول الفليسوف محمدا قبال .

« إن تصور الذات الإلهية متصفة بصفات البشر أمر لامفر منه ولا يمكن تجاهله فى فهم الحياة لأن الحياة لا تمكن أن تفهم إلا من داخل النفس »[٦] .

وبذلك نستطيع أن نقول إن عقيدة الاسلام تقرر أن لذات الله

---

(١) الطور ـ ٤٨ .

(٢) الطارق ـ ١٤ ـ ١٥ .

(٣) آل عمران ـ ٥٤   (٤) الفتح ـ ١٠

(٥) طه ـ ٥ .   (٦) تجديد الفكر الفليسوف المسلم ـ محمد اقبال صـ٧١

خصائص ثلاثة انفردت بها عن الند والنظير والمثيل .

وهذه الخصائص هي :

١ - أن الله - سبحانه وتعالى ملء الوجود فلا يكون في مكان دون آخر ولا في زمان دون آخر بل هو سبحانه وتعالى موجود في كل زمان ومكان فهو مع الناس جميعا - مراقبا وشاهدا - أين حلوا وساروا .

٢ - أنه - سبحانه وتعالى شاهد لا يغيب طرفة عين عن الوجود وأنه لا تأخذه سنة ولا نوم ومن هنا نرى إبراهيم عليه السلام - يرفض أن تكون الكواكب آلهة لأنها تحضر وتغيب واتخذ عليه السلام من أفولها دليلا قاطعا على أنها لا تصلح أن تكون إلها لأن الله لا يغيب ولا يغفل أبدا .

٣ - تفرد الله بما يقطع كل مقاربة أو مداناة بينه وبين أي شيء آخر فهو سبحانه وتعالى منفرد بصفات لا يشاركه فيها مشارك ولا يقاسمه فيها مقاسم ولهذا فلا مكان للند أو الشبيه أو المثيل .

ومن هنا تدرك أن الحقيقة الإلهية أكبر من تدركها العقول أو تحيط بها الأبصار .

وحقيقة ذاك شأنها فإنها لا تخضع لمنطق المـــادة ولا توزن بميزان المحسوسات يقول الشيخ محمد الغزالي .

مخالفة الذات الإلهية لغيرها من المحدثات ظاهرة . والبداهة تقضي بأن يكون بين الخالق والمخلوق أمدا بعيداً وأن الخالق لا يشبه شيئا من خلقه في ذاته ولا في صفاته .

وقد وصف الله عز وجل نفسه بصفات كثيرة من الصعب إدراك حقيقتها على النحو الذي ندرك به أمورنا المعتادة بل هذا مستحيل !

من أين التافه أن يعرف كنه العظيم ؟ .

إن النحلة لا تعرف حقيقة الإنسان لحدود عالمها الذي تعيش فيه تقفها

دون ذلك والطفل - فى المرحلة الأولى من عمره - لا يعرف ماهى الرجولة ولامايصاحبها من عقل واستحكام إدراك .

بل إن الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة الوجود المادى الذى يعيش فيه فكيف يعرف ماوراء الغيوب ؟

إذا قيل : إن الله يسمع فليس ذاك بأذن كآذاننا أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا وإذا قيل إنه بنى السماء فليس على النحو المألوف من تكليف فعلة واستحضار أدوات . وإذا قيل فوق أيدينا فليس الوصف لجارحة كأعضائنا .

والذى نوقن به ابتداء أن صفات المحدثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله فهو - سبحانه وتعالى - غير مخلوق .

وشأن الألوهية أسمى مما تتصور الأذهان الكلية والعقول القاصرة »(١) .

وبذلك يتضح لنا أن الإسلام علمنا أن الله سبحانه وتعالى ذات لها صفات الجلال والكمال . ومنزهة عن صفات النقص وحرم علينا البحث فى كنه هذه الذات خوفا علينا من الزلل لأن عقولنا أقصر من أن تدرك هذه الحقيقة الكبرى

ماذا تعرف القطرة عن المحيط الذى لا يحد !

وماذا تعرف الهباءة عن الجو الذى لا يحد ! ؟

وإذا كان الإسلام قد دعانا إلى الإيمان بالله الذى لا ينبغى أن نبحث كنه ذاته فإنه وضع بين أيدينا وفى أنفسنا أدلة كثيرة هى شواهد صدق على وجوده - سبحانه وتعالى - وحدثنا عن صفات التنزيه والتقديس لذاته - سبحانه وتعالى - والفصل التالى يوضح لنا ماجاءت به عقيدة الإسلام من صفات حدثتنا عنها وأمرتنا باتباعها .

---

(١) عقيدة المسلم - الشيخ محمد الغزالى ص ١٤ .

اختبـــار :

س ١ :

ترى عقيدة الإسلام أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ ذات تتصف بصفة الجلال والكمال وتتنزه عن صفات النقص .

ناقشي هذه العبارة ببيان معالم هـــذه العقيدة فى ذات الله تعالى ، وما انفردت به هذه الذات من خصائص مع التعليل لكل ماتذكرين ..

الفصل الثاني

صفات الله - تعالى - كما يحدثنا عنها الإسلام

- تعريف الصفة
- أنواع الصفات
  (أ) النفسية
  (ب) السلبية
  (ج) المعاني

بعد أن بينا عقيدة الإسلام فى الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أنه ذات تتنزه عن كل نقص وتتصف بكل كمال : ثم بينا عقيدة الإسلام فى ذاته سبحانه وتعالى فإنه يتعين علينا أن نتحدث عن صفاته سبحانه وتعالى .

فما معنى الصفة ؟ . . . وماهى هذه الصفات الواجب إثباتها له سبحانه وتعالى ؟

• ما معنى الصفة :

عرف المتكلمون الصفة بتعريفين .

التعريف الأول . . . الصفة هى المعنى الوجودى القائم بالموصوف .

التعريف الثانى . . . الصفة هى ما ليس بذات وجوديا كان كصفات المعانى أم عدميا كصفات السلب .

والتعريف الثانى هو التعريف الذى ينبغى أن يكون هو التعريف لأنه هو الذى يشمل على جميع أقسام الصفات فهو يشمل صفات المعانى كما يشمل على صفات السلب بخلاف التعريف الأول فإنه يقتصر على صفات المعانى وحدها فقط .

• أنواع الصفات :

تنقسم الصفات الواجبة لله سبحانه وتعالى إلى :

١ ـ نفسية وهى الحال الثابتة للذات غير معللة تلك الحال بعلة وليس لهذا القسم غير صفة واحدة هى صفة الوجود :

٢ ـ سلبية . . وهى التى تسلب عن الله تعالى أى نقص لا يليق بذاته سبحانه وتعالى . . . وصفات هذا القسم خمس صفات هى :

القدم ـ البقاء ـ المخالفة للحوادث ـ القيام بالنفس ـ الوحدانية .

٣ — معانى وهى المعنى الوجودى القائم بالموصوف .

وصفات هذا القسم سبع صفات هى . القدرة ، الإرادة ـ العلم ـ الحياة السمع ـ البصر ـ الكلام .

٤ — معنوية (فى رأى بعضهم) وهى الحال الثابتة للذات معللة تلك الحال بعلة . وصفات هذا القسم سبع صفات هى :

كونه قادراً ـ كونه مريداً ـ كونه عالما ـ كونه حيا ـ كونه سميعا ـ كونه بصيراً ـ كونه متكلما .

هذا وسنتحدث عن نوع من أنواع هذه الصفات تفصيلا .

(أ) النفسية

- الوجـــود

بينا سلفا معنى هـــذا النوع من الصفات الثابتة لله ـ سبحانه وتعالى ـ كما وضحنا أن هذا النوع لا يشتمل إلا على صفة واحدة هى صفة الوجود .

فما معنى وجوده تعالى ؟ .. وما هى أدلتنا على ذلك عقلا ونقلا وقلبا ؟ .. وماهى الشبهات التى أثارها الملحدون حول وجوده سبحانه وتعالى ..

انتظر !!

● صفة الوجود

(أ) معنى وجوده - تعالى

(ب) أدلة وجوده - تعالى

(ج) الشبهات التى أثارها الملحدون حول وجوده - تعالى - وردها

تعريف صفة الوجود :

يعرف المتكلمون صفة الوجود بأنها صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد عليها .

ومعنى هذا التعريف ينحصر فى .

١ ـ أن الوجود صفة الموصوف أى أن وجوده ـ سبحانه وتعالى ـ صفة خاصة بذاته تعالى بل هى عين ذاته ـ سبحانه وتعالى فوجود الله ـ تعالى ـ صفة لله وحده .

٢ ـ أنها تدل على معنى الوجود فقط دون أن تضيف صفة جديدة إليها فهى تدل عل الذات فقط .

فليست كالعلم مثلا التى تفيد وجود الله واتصافه سبحانه وتعالى بالعلم .

ولا كالقدرة التى تفيد وجوب الذات واتصافها بالقدرة وغير ذلك من صفات المعانى اللآتى يفدن شيئا زائدا على الذات أما صفة الوجود فإنها تفيد أن هناك ذاتا فقط .

ولذلك قال علماء الكلام فى تعرفها ، أن الوصف بها يدل على معنى الذات دون معنى زائد عليها .

وقوله (ثبوتية) أى ليست من صفات السلب التى تسلب عن الله نقصا لا يليق بذاته . . . ويخرج بهذا القيد فى التعريف صفات السلب كالقدم والبقاء كما سنذكر فهى لا تضيف للذات معنى زائدا فهى صفات تخليه لا صفات تحليه . .

وقوله (يدل الوصف بها على معنى اللذات دون معنى زائدا عليها) أى أنها لا تثبت للذات وصفا أكثر من أنها موجودة فهى لا تضيف إليها معنى العلم أو القدرة أو الإرادة . فتخرج بهذا القيد صفات المعانى على ماستوضح لأنهـــا تثبت للذات معنى زائد على وجودها ككونها قادرة وموجودة

وعامة على ما ستوضح .

الدليل على الوجود : (وجود الله)

١ - الدليل النقلى   ٢ - الدليل العقلى

٣ - الدليل القلبى   ٤ - الدليل الكونى

فى هذه الكائنات التى تعايشنا وتعاشرنا أكثر من أصبع تشير كلها إلى الخالق العظيم وتوحى به وتدعو إليه فهى تنبعث من كل موجود فى هذا الوجود .

من النبتة الصغيرة إلى النخلة الباسقة ومن النملة تدب عد الأرض دبيبا إلى النسور تحلق فى جو السماء تحليقا ومن كائن فى الأرض إلى كوكب فى السماء .

ولما كان لكل إنسان موقفه إزاء هذه الموجودات وتفسيره السليم أو السقيم لها وتلقيه الصادقون أو الكاذب لوحيها تشعبت بالناس السبل التى سلكوها إلى الله كما تعددت وسائلهم فى البحث عنه - سبحانه وتعالى .

ولقد أقام القرآن الكريم أدلة دامغة لفتت القلب والعقل إلى وجوده سبحانه وتعالى كما أقام الباحثون كل فى مجال تخصصه ما أثبت به أمام العقل المتصف والبديهة الحاضرة وغير الحاضرة - وجود الله سبحانه وتعالى .

وسبيلنا الآن أن نوضح هذه الأدلة التى أقامها كل على وجوده سبحانه وتعالى ليتضح للأعين العمى والقلوب التى حاولت بجهل أو تجاهل أن تنكر وجود خالق السموات والأرض .

ا — الأدلة النقلية

لقد فتح القرآن عيون الناس وقلوبهم على آثار صنعة الله فى كونه المترامى الأطراف الواسع الجنبات .

هذه الآثار التى تنبه العقول وتوقظ الصور وتأخذ بأزمة الضالين لتضع أيديهم على هذه الحقيقة السافرة التى تقول لهم (أفى الله شك فاطر الله السموت والأرض) [١] وهذه نماذج متعددة لآثار الله فى كونه ـ لفت القرآن الكريم بها الأنظار ووجهها إلى الصانع الحكيم نذكر منها على سبيل المثال :

١ - إيجاد المخلوقات .

٢ - إيجادها بهذا النظام البديع وعلى هذا الاتقان العجيب .

٣ ـ الاشراف على حركتها بعد وجودها وتنظيم حياتها وتدبير شئونها .

وسنتناول كل أثر من هذه الآثار بالحديث ليتضح للأعين كيف لفت القرآن الكريم بها الأنظار إلى وجوده سبحانه وتعالى .

١ ـ إيجاد المخلوقات .

وهذه المخلوقات الأرضية والعلوية التى نصبها الخالق دليلا على وجوده تشمل الأرض بما تحتوى من إنسان وحيوان ونبات وجماد والسماء وماحولها من كواكب وأجرام لايزال رغم تقدمه عاجزا عن إدراك إسرارها فلننظر كيف اتخذ القرآن من كل دليلا على وجود الله .

الإنسان .

يتساءل القرآن الكريم وهو يقيم أحكم دليل على وجود الله عمن خلق هؤلاء المنكرين لوجود الخالق .

أن القسمة العقلية تقتضى واحد من ثلاثة .

إما أنهم وجدوا بدون موجد . وإما أنهم أوجدوا أنفسهم . وأما أن غيرهم أوجدهم .

والفرضان الأولان باطلان بلا شك . باطلان بداهة .

(١) أبراهيم ـ ١٠

فما يستطيع واحد من الناس أن يقول إن صنعة ماتمت بدون صانع بقدر ما لا يستطيع أن يقول إنه أوجد نفسه لأن ذلك يقتضى أنه متقدم على نفسه متأخر عليها فى وقت واحد . وأنه كذلك موجود معدوم فى وقت واحد وهذان الأمران مستحيلان فاستحال ما أدى إليهما وهو إيجاد الانسان نفسه .

وإذا بطل الفرضان الأول منهم وهو وجود الإنسان بدون موجد والثانى : وهو إيجاد الإنسان نفسه وكانت القسمة العقلية لاتقتضى إلا ثلاثة تعين الثالث وهو أن غير الإنسان هو الذى أوجد الإنسان .

القرآن الكريم يسوق هذا الدليل الدامغ للمنكرين حين يقول عنهم وأنهم . (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن رحمة ربك أم هم المسيطرون) [١] .

ولقد استطردت هذه الآيات - والله أعلم - فى عرض قدرة الله وهيمنته على خلقه بعد أن ألزمت الخصم بالحجة القوية لتقول إنك صنعة صانع قوى قدير . فليس هو بأضعف منك أو مثلك فى قوتك وإلا ما أوجدك بل إنه خالق السموات والأرض ومقدر فى كل أقواتها وأرزاقها . كما أنه ليس الطبيعة الصماء كما يدعى البعض لأنها لا تعقل .

ولا يكتفى القرآن بهذا وهو يدلل للإنسانية قاطبة على أنها صنعة صانع بل يضرب لهم مثلا آخر بتطور هذا الخلق .

هذا الإنسان كان نطفة فعلقة فمضغة فمن الذى نقله من طور إلى طور ؟

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا

---

(١) الطور - ٣٥ - ٣٦ - ٣٧ :

العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

الحيـــوان :

كما بين القرآن الكريم أن الله خلق الحيوان لنفع الإنسان آية واضحة المعالم على وجوده سبحانه وتعالى ، فقال :

« ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير » (٢) .

وقوله تعالى :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت » (٣)

النبـــات :

وهذا نموذج آخر من نماذج الخلق والإيجاد وجه فيه القرآن الكريم الأبصار والبصائر تتخذ من الخلق دليلا على الخالق ومن الأثر دليلا على المؤثر .

فهذه الأرض الجرداء البلقع من الذى ألبسها هذه الحلة الجميلة الخضراء ؟ من الذى أنبت النجم والشجر يسجدان ؟

من الذى أينع هذه الحدائق الفيحاء وأثقلها بالثمار ؟

هل هناك ما يدل على الصانع أجل من أن تشاهد حديقة خضراء مزدانة بالثمار الصفراء والحمراء ؟ ، هل هناك مايدعو إلى التأمل والتفكير أكثر من أنك ترى اليوم الأرض هامدة ثم تعود إليها غدا ، وقد لبست أكرم الثياب - من الذى كساها بهذا الثوب الكريم من الذى زينها بالنبات والثمار ؟ .

---

(١) المؤمنون - ١٢ - ١٣ - ١٤ :

(٢) الشورى - ٢٩ . (٣) الغاشية - ١٧ .

إن القرآن الكريم وهو يضع يدك على هذه الحقيقة السافرة يحذرك من تجاهلها فمن تجاهلها وهى واضحة القسمات أمامه فليس بعاقل ليس بمتفكر ليس بمؤمن ..

يقول الله تعالى :

« هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون [١] ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » [٢] .

ويقول تعالى :

« وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا [٣] نخرج منه حبا متراكبا [٤] ومن النخل من طلعها [٥] قنوان [٦] دانية [٧] وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه [٨] إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٩) .

ثم يدعوك القرآن الكريم إلى مشاهدة أثر آخر من آثاره الناطقة بوجوده نشاهد فيه الماء الذى حملته الرياح اللواقح إلى الأرض الجرز فتأتى بأنضر النبات وقد يجوب هذا الماء حديقة متعانقة الأغصان فيقتسمه

---

(١) تسيمون — ترعون دوابكم .

(٢) النحل ١٠ — ١١

(٣) خضرا — شيئا أخضرا .

(٤) متراكبا - متراكبا بعضه فوق بعض .

(٥) طلعها - هو أول مايخرج من ثمر النخيل فى الكيزان .

(٦) قنوان - عذوق وعراجين كالعناقيد تنشق عنها الكيزان :

(٧) دانية - متدلية .   (٨) ينعه - حال نضجه وإدراكه .

(٩) الأنعام - ٩٩ .

شجرها المختلف الأنواع فيتحول هذا الماء بقدرة الله فى باطن كل شجرة إلى ثمرة تخالف الأخرى طعما ولونا وحجما.

منَ الذى وزع هذه الطعوم وقسمها ومن الذى غاير بين أشكالها وألوانها واحجامها .

القرآن الكريم يسوق هذا الأثر من آثار الله الناطقة بوجوده وكأنه يقول لمن لم يؤمن بالخالق المدبر المبدع إنك لست بعاقل يامن ترى هذا ثم لاتؤمن به فيقول :

«وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان[١] وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »[٢] .

وبذلك يتضح أن القرآن الكريم لفت الأنظار كذلك إلى إيجاد النبات واتخذ من ذلك دليلا لايجوز إغفاله على وجود الله سبحانه وتعالى :

الجماد :

وهذا نموذج آخر من المخلوقات التى أوجدها الصانع الحكيم وبين القرآن الكريم أنها أثر يدل على المؤثر وشاهد صدق على الله رب العالمين فقال . .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت »[٣] .

ويقول :

---

(١) نخيل صنوان — نخلات لها أصل واحد — أولها رأس واحد .
(٢) الرعد — ٤ :
(٣) الغاشية - ١٧ - ١٨ - ١٩ - ٢٠ .

« وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم [١] وأنهارا وسبلا لعلكم تهدون وعلامات وبالنجم هم يهتدون » [٢] .

ولم يكتف القرآن الكريم بما فى الأرض من مخلوقات هى آية الآيات لمن تدبرها ووعاها على وجوده سبحانه وتعالى . بل إنه كذلك وجه العقل البشرى إلى السماء وما فيها من كواكب وأجرام يكتشف العلم منها آية بعد أخرى بما يؤكد له وجود الموجد وصدق الله العظيم :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنا الحق » [٣] :

لقد نعى القرآن الكريم على المنكرين جحودهم وهم ينظرون الآيات الساطعه فقال .

« أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج » [٤] وقال :

« ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » [٥] :

وقال تعالى :

(قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » [٦] :

وقال تعالى :

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض، وماخلق الله من شىء» [٧] :

---

(١) تميد بكم ـ لئلا تتحرك وتضطرب بكم :

(٢) النحل ١٥ ـ ١٦ :

(٣) فصلت ـ ٥٣ (٤) ق ٧٠ :

(٥) فصلت ـ ٣٧ : (٦) يونس ١٠١ :

(٧) الأعراف ١٧٥ .

ومن هذا يتضح لنا أن القرآن الكريم قد نصب الإيجاد دليلا على الموجد والخلق دليلا على الخالق :

وهذا ما يتفق مع منطق الحياة :

إن منطق الحياة يحتم علينا أن نؤمن بأن الأثر يدل على المؤثر :

وفى الحياة المادية التى يعايشها الإنسان كثير من المثل والشواهد على ذلك .

فقد ترى ناراً فى الصحراء فتستدل وأنت لا ترى من يوقدها أن عندها من أوقدها بلا شك :

وقد ترى مكانا منظما منسقا فتؤمن وأنت لا ترى اليد المنظمة المنسقة أن إنسانا ما تناول هذا المكان بالتنظيم والتنسيق :

والقرآن الكريم حين ينصب الخلق دليلا على الخـــالق فإنما يخاطب الفطر المركوزة فى طباع الناس فهى بداهات تؤمن بها القلوب والعقول لحظة ذكرها .

٢ — إيجاد المخلوقات بهذا النظام البديع :

إن المتأمل فى هذا الكون الدارس لما تنتشر فى جنباته من مواد واجرام الناظر فى طبائع هذه المواد وخصائصها وتحركاتها يدرك لا يخالجه شك فيما يدرك أن هذه المواد وتلك الأجرام محكومة بقوانين مضبوطة بأسس يدلان على مقتن مؤسس حكيم .

وإلا فمن الذى ضبطها بأسسها وحكمها بقوانينها ؟ !

لقد وجه القرآن الكريم الأنظار إلى هـــذا النظام البديع الذى وجد ويسير به العالم لتخذ من هذا الإبداع دليلا على المبدع .

هذا وسنكتفى بهذا الدليل من الكثير الذى تنزل القرآن به واتخذه سبيلا مستقيما لإثبات وجود الله — سبحانه وتعالى —

(ا) هل فكرت فى هذه الكواكب السيارة المخترقة أعماق الجو والتى تلتزم مداراً واحداً لا تعدوه يمنة أو يسرة وفى سرعة عجيبة رهيبة وبقدر معين لا تبطىء فيه ولا تتعجل.

قارن بينها وبين حركة المرور الأرضية التى ينظمها رجال الشرطة على أرضنا هذه وتخيل أن رجال الشرطة تركوا أماكنهم فى تنظيم المرور وتركوا السيارات للشوارع والشوارع للسيارات، وتخيل ما ينتظر من أحداث من جراء هذه السرعة المجنونة.

ثم تأمل السماء وانظر هـــذه الأجرام العلوية الضخمة وتفكر فى هذه الكواكب السيارة ثم ســـل نفسك من الذى أشرف على تنظيم مسارها فى مدارها؟

ومن الذى حركها فى فلكها، ؟ وإلى متى وأين حركتها؟

إن القرآن الكريم يلفت نظرك إلى هذا ليضع يدك فى النهاية على مكوكبها ومحركها وضابط مسارها فى جو السماء فيقول لك.

« والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم[1]، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون» [2].

من الذى هيمن على نظامها وأشرف عليها فى مدارها بل من الذى أمسك بأجرامها الهائلة ودفعها تجرى بهذه القوة الفائقة؟

(ب) من الذى خلق الليل والنهار وجعل الأول لباسا وسكنا فهو ظرف الراحة والسكون. كما أودع فى الثانى الضياء والحركة لكسب القوت.

(١) العرجون القديم - عذق النخلة العتيق.

(٢) يس - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠.

القرآن الكريم يذكرك بمن يفجر ظلام الليل الدامس بضياء النهار الضاحى لنلتمس من ذلك دليلا على من جعلهما خلفه فيقول :

« تبارك الذى جعل فى السماء بروجا[1] ، وجعل فيها سراجا وقمرا ومنيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة[2] . لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا »[3] .

وليس تعاقب الليل والنهار بالأمر الهين الذى لا يلفت النظر إلى القدرة ولا يأبه له العقل ، فلا يكون مثار تساؤل واستفسار ولا دليل إثبات . .

فقد أثبت القرآن أن فى هذا التعاقب ما يدعو إلى التأمل والدهش وما يكون أثرا من آثار الله الدالة عليه فقال تعالى :

« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمة جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »[4] .

(ج) وهذا جمع من الآيات يسوقها القرآن ليتخذ من إحكامها وبديع صنعها دليلا على وجود الله - سبحانه وتعالى - فيقول :

« والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين

---

(١) بروجا - منازل للكواكب السيارة .

(٢) خلفه - يخلف أحدهما الآخر ويتعاقبان .

(٣) الفرقان ٦١ - ٦٢ .

(٤) القصص - ٧١ - ٧٢ - ٧٣ .

فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » ..

وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون .

ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء الناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » [1] .

يقول الشيخ محمد الغزالى تحت عنوان « هل العالم خلق صدفة » « نشوء حياتنا هذه ودوامها يقومان على جملة ضخمة من القوانين الدقيقة يحكم العقل باستحالة وجودها هكذا جزافا ..

فوضع الأرض أمام الشمس مثلا ثم على مسافة معينة لو نقصت بحيث إزداد قربها من لا حترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان .

لو بعدت المسافة لعم الجليد والصقيع وجه الأرض . وهلك كذلك الزرع والضرع . أفتظن إقامتها فى مكانها لتنعم بحرارة مناسبة جاء خبط عشواء ؟!

وحركة المد والجزر التى ترتبط بالقمر !! أفما كان من الممكن أن يقترب القمر من أمه أكثر فيكسب أمواج المحيطات سحبا يغطى من وجه اليابسة كلها ثم ينحسر عنها وقد تلاشى كل شيء ؟

من الذى أقام على هذا المدى المحدود ليكون مصدر ضوء لا مصدر هلاك إننا على سطح هذه الأرض نستنشق « الأوكسجين » لنحيا به ونطرد « الكربون » الناشيء من احتراق الطعام فى جسومنا .

وكان ينبغى أن يستنفد الأحياء ـ وما أكثرهم ـ هذا العنصر الثمين

---

(١) النحل من ٦٥ إلى ٦٩ .

فى الهواء فهم لا ينقطعون عن التنفس أبدا . لكن الذى يقع أن النبات الأخضر يأخذ « الكربون » ويعطى بدله « أوكسجين » وبهذه المعارضة الغريبة يبقى التوازن فى طبيعة الغلاف الهوائى الذى يحيا فى جوفه اللطيف الحيوان والنبات جميعاً ! !

أفتحسب هذا التوافق حدث من تلقاء نفسه ؟

إنى أحيانا أسرح الطرف فى زهرة مخططة بعشرات الألوان ، ألتقطها بأصابع عابثة من بين مئات الأزهار الطالعة فى إحدى الحدائق ، ثم أسأل نفسى بأى ريشة نسقت هذه الألوان ؟ إنها ليست ألوان الطيف وحدها إنها مزيج رائق ساحر من الألوان التى تبدو هنا مخففة ، وهنا مظللة وهنا مخططة وهنا منظمة :

وأنظر إلى أسفل إلى التراب الأعفر الذى أطلع هذه الألوان إنه - بيقين - ليس راسم هذه الألوان ولا موزع أصباغها ، هل الصدفة هى التى أشرفت على ذلك ؟ أى صدفة ؟ إن المرء يكون غبياً جدا عندما يتصور الأمور على هذا النحو :

وألوان الزهرة ملاحظة شكلية ساذجة بالنسبة إلى ملاحظة قصة الحياة فى أدنى صورها : إن إنشاء الحياة فى أصغر خلية يتطلب نظاما بالغ الأحكام :

ومن الحمق تصور الفوضى قادرة على خلق « جزىء » فى جسم دودة صغيرة فضلا عن خلق جهازها الهضمى أو العصبى :

فما بالك بخلق هذا الإنسان الرائع البنيان الهائل الكيان ، ثم ما بالك بخلق ذلكم العالم الرحب .. !

لماذا يطلب منى - إذا رأيت ثوبا مخيطا أنيقا - أن أتصور خيطا قد دخل من تلقاء نفسه فى ثقب إبرة اشتبكت من تلقاء نفسها فى نسيج الثوب أو

أخذت تعلو وتهبط صانعا الصدر والذيل والوسط والأكمام والأزرار والفتحات والزركشة والمحاسن ..الخ :

إن إحالة الأمور على المصادفة ضرب من الدجل العلمي يرفضه أولو الألباب - لنفرض أن الآلة الكاتبة في إحدى الدواوين وجدت بجوارها ورقة مكتوب عليها اسم عمر ماذا يعني هذا ..؟

أحد أمرين أقربهما إلى البداهة هو أن خبيرا بالكتابة طبع الاسم على الورقة والأمر الثاني أن حروف الاسم تجمعت وترتبت وتلاقت هكذا جزافا إن الفرض الأخير من الناحية العلمية ما يأتي :

الإبتداء بكتابة العين ، أو سقوط حرفها وحده على الورقة دون وعى يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨ وهو عدد حروف الهجاء العربية :

وسقط حرفي العين والميم معا يجوز بنسبة ١ إلى ٢٧ × ٢٨ :

ونزول الحروف الثلاثة يجوز بنسبة ١ إلى ٢٨ × ٢٨ × ٢٨ أي بنسبة ١ إلى ٢١٩٥٢ :

وليس أغبى فكرا ممن يترك الفرض الوحيد المعقول ويؤثر عليه فرضا آخر لا يتصور وقوعه إلا مرة بين اثنتين وعشرين ألف مرة ..

والصدف حين تخط على القرطاس كلمة عمر أقرب إلى الذهن من تصور الصدف هذه تخلق قطرة ماء في المحيطات الغامرة أو حبة رمل في الصحارى الشاسعة ..

« إن العلم بريء من مزاعم الإلحاد ، ومضاد لما يرسل من أحكام بلهاء »[1] .

٣ - الإشراف على المخروقات ومدها بما فيه بقاؤها بعد خلقها :

أثبت القرآن الكريم بالأدلة الواضحة أن العالم في خلقه وإتقانه أثر من

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٢٢ - ٢٣ - ٢٤ :

آثار الله الذى ينطق بوجوده وقدرته فهو محتاج إليه فى وجوده وعلى هذه الصورة التى هو عليها :

وكما أنه محتاج إليه ـ سبحانه وتعالى فى هاتين فإن محتاج إليه كذلك فى استمراره ، وبقائه على ما هو عليه وأنه لو ترك لنفسه لحظة واحدة لتلاشى وزال :

فالإنسان وما يتردد فى عقله من أفكار والقلب وما يتجدد فيه من مشاعر والأجسام ومايتدفق فيها من دماء ، وما يتحرك فيها من أجهزه وعضلات فى كل صقع ومكان ما عرفنا وما سنعرف وما لا نعرف محتاج فى استمرار حياته وبقائه إلى الله :

يقول الله تعالى :

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد » [1] :

وفقر الناس إلى خالقهم الذى تعنيه الآية الكريمة هو الفقر بكل ماتحمل هذه الكلمة من معان .

والأرض التى تقلنا حجرها ومدرها يابسها وماؤها .

والسماء التى تظلنا وماتتزين به من كواكب وأجرام كل هذه محتاجة إلى الله فى بقائها واستمرارها/ وأنها لو تركت لحظة إلى نفسها لزالت وزال بالتالى وجودنا معها يقول الله تعالى :

« إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا . ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا » [2] :

بل إن وجودنا لينمحى ويتلاشى متى شاء واهبه أن يحرمنا منه « الله

(١) فاطر ـ ١٥ .

(٢) فاطر ـ ٤١ .

الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون .

وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » [١] .

والأرض التى تلقنا كذلك جماد لايعى ولايعقل فأنى ليدها أن تمتد فتصنع هذا الثمر الطيب الذى هو زاد الإنسان فى حياته ، أنى لها فى إقامة هذه الحدائق الفيحاء وهى الجامدة التى لاتحس ولا تعى ولا تفكر .

يقول الله تعالى :

« أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون » [٢] .

ويقول سبحانه وتعالى .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنبا وقضبا [٣] ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا [٤] ، وفاكهة وأبا [٥] ، متاعا لكم ولأنعامكم » [٦] :

ولقد وضع رسل الله الكرام هذه الحقيقة السافرة للمنكرين فكانوا

---

(١) الرعد — ٢ — ٣ . (٢) الواقعة — ٦٣ — ٦٤ .

(٣) قضبا : رطبا كالبرسيم ، أو هو ما يقطع وينمو أكثر من مرة كالبرسيم والكرات مثلا .

(٤) حدائق غلبا — بساتين عظاما متكاثفة الأشجار .

(٥) أبا كلأ وعشبا أو التين خاصة .

(٦) عبس من ٢٤ إلى ٣١ .

يبينون لهم أن وجودهم فى الحياة وسبيل بقائهم فيها ورعايتهم ومولهم بعد مغادرتها خالصا لله رب العالمين .

فهذا إبراهيم عليك السلام يقول لقومه مايحكيه عنه القرآن الكريم — فيقول :

« الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » [١] .

وموسى عليه السلام يقول لفرعون كذلك مايحكيه عنها القرآن الكريم الكريم — حين سأل فرعون موسى « من ربكما ياموسى » [٢] :

فيقول له موسى عليه السلام :

« ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » [٣] .

هذه أدلة ثلاثة من أدلة كثيرة ذكرها القرآن الكريم لإثبات الله اقتصرت عليها مخافة الإطالة وهى :

١ - إيجاد العالم بمن وما فيه من موجودات :

٢ - إتقان الصنع وإبداع الخلق :

٣ - احتياج العالم فى استمراره وبقائه إلى الله :

هذه هى الأدلة الشاهدة على وجود الله آمن بها أقوام فوصلوا إلى شاطىء الأمن والسلام وتعسف آخرون فركبوا أهواءهم واستجابوا للأوهام والدسائس فغرقوا فى رمال المتاهات والمجاهل ، وخرجوا بهذا الشطط

---

(١) الشعراء من ٧٨ إلى ٨٢ .

(٢) طه ٤٩ .

(٣) طه - ٥٠ .

الذاهل عن الحق عن الإنسانية العاقلة الراشدة ولذلك أسقطهم القرآن الكريم من حساب الإنسانية حيث قال :

« أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »[1]

(ب) الأدلة العقلية :

سنكتفي هنا بهذه الأدلة بما قاله المتكلمون دليلا على وجود الله ـ سبحانه وتعالى :

يستدل المتكلمون على وجود الله سبحانه وتعالى بهذا الدليل ..

العالم حادث ، وكل حادث لابد له من محدث ، فالعالم إذن محتاج إلى محدث :

وقبل أن نتساءل عمن أحدث العالم فإن يتعين علينا أن نعرف كيف يكون العالم حادثا :

لقد أقام المتكلمون على حدوث العالم دليلا واضحا فقالوا العالم متغير ، وكل متغير حادث ، فالعالم إذن حادث :

وكون العالم متغيرا أمرا بدهيا :

ذلك لأن التأمل في هذا الوجود الذى يعايشه الناظر إلى ما فيه من عناصر وظواهر متعددة فإنه يراها متعاقبة متغايرة :

فالليل يعقبه نهار والسقم تعقبه الصحة والحزن يعقبه السرور والبرودة يعقبها الدفء وغير ذلك من أمور كثيرة تطالعنا ليل نهار :

فتغير العالم إذن وعدم ثباته على حالة واحدة أمر بديهى لايحتاج إلى دليل لإثباته :

---

(١) الفرقان ـ ٤٣ ـ ٤٤ :

وكون كل متغير حادثا فذلك لأن التغير فى ذاته حدوث صفة جديدة لهذا الشىء الذى قام به التغير وهذه الصفة التى قامت بهذا التغير لاشك حادثة لأنها وجدت من العدم وحدثت بعد أن لم تكن فهى إذن حادثة . .

ومن وما قام به الحادث لابد أن يكون حادثا ، ذلك لأن القديم لا يصح أن يتصف بشىء حادث :

فلو اتصف القديم بصفة حادثة لكان حادثا مثلها أو كانت هى وهى الحادثة قديمة مثله وفى هذا قلب للحقائق :

ومن هنا يتبين لنا أن كل من اتصف بالتغير اتصف كذلك بالحدوث .: فالعالم اذن حادث . . .

وبهذا تسلم لنا القضية الأولى من الدليل الذى أقامه المتكلمون وهى أن العالم حادث .

وكل حادث لابد له من محدث ، فهذه بديهية فإن من رآى بناء شامخا أدرك من فوره أن لهذا البناء بانيا ..

ومن أدرك صنعة ما استدل بها على وجود صانع لها ومن هنا كان قول الأعرابى . . البعرة تدل على البعير والأثر فى الرمل يدل على المسير .

فسماء ذات أبراج وأرض ذات أدراج كيف لا يدلان على اللطيف الخبير .

فالحدوث أذن يدل على المحدث . والعالم حادث ، فهو محتاج إلى محدث:

ولكن من هو محدث العالم ؟

إلى أى قوة أذن يمكن أن يسند اليها إيجاد العالم ؟ .

هل يمكن أن يقال أن العالم وهو الحادث بعد العدم هو الذى أوجد نفسه؟

كلا فإنه لو كان كذلك لزم تقدم الشىء على نفسه . كما يلزم أن العالم فى وقت ما يكون موجودا معدوما فى آن واحد وذاك ظاهر البطلان :

كما أن الإنسان لو أوجد نفسه لكان واهب الحياة لها ، ولو كان هو

الذى يهب الحياة لنفسه لكان بيده بقاؤها واستمرارها لأن وجودها منه وإليه وإذا كانت حياته بيده كان بقاء هذه الحياة بيده فهى منه وإليه وهو كذلك لن يسلبها عن نفسه وبذلك لا يدركه الفناء أبدا ..

وهذا منقوض بالواقع المشاهد :

إذن فوجد العالم غير العالم وخالق الإنسان غير الإنسان لأن الصفة غير الصانع :

وهذا الغير إن كان حادثا بحثنا عمن أحدثه على النسق الذى ذكرنا حتى يصل بنا العقل إلى فاعل قديم مختار قادر غير محتاج إلى غيره حيث يحتاج إليه غيره . . وهذا لا يكون إلا لله رب العالمين ، وهو المطلوب :

وهذا المعنى هو الذى أشار إليه القرآن الكريم حين قال .. « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون : أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » .

فهذا الإنسان المخلوق من الذى خلقه ؟

القسمة العقلية تقتضى واحداً من ثلاثة :

فإما أن يكون خلق بدون خالق ، وهذا باطل بداهة لأنه لا توجد صنعة بدون صانع .

وإما أنه خلق نفسه وهذا باطل لما سبق من أنه لو كان خالقا نفسه لما أدركه الفناء ولأنه لو خلق نفسه لكان موجوداً معدوماً فى وقت واحد وهذا باطل . ولأنه لو خلق نفسه لكان متقدما على نفسه بصفته خالقا لها . ومتأخراً عليها بصفته مخلوقاً فيؤدى ذلك إلى كون الشىء الواحد متقدما على نفسه متأخراً عليها وكون الشىء متقدما على نفسه متأخراً عليها باطل . وهذا يؤدى إلى أنه ليس خالق نفسه .

إذن فخالق الإنسان غير الإنسان ، ولكن من هو ذلك الغير ؟

إما أن يكون فى قدرته أنقص من الإنسان ، وإما أن يكون مثل الإنسان

وإما أن يكون أقوى من الإنسان .

الأول باطل بداهة .

الثانى باطل لما ذكرنا .

الثالث هو الثابت وهو المطلوب .

وهذا القادر هو الله ، وكأن القرآن حين يذكر بالخالق يبين أنه هو القادر لأنه هو الخالق للسموات والأرض .

على أنه لا يصح أن ينسب هذا الخلق إلى الطبيعة كما يزعم بعض المضللين، ذلك لأن الطبيعة غير عاقلة والإنسان وهو أحد أجزاء العالم عاقل فكيف بما لا يعقل خلق من يعقل .

كما أن ما توجده الطبيعة يكون على وتيرة واحدة لا يتغير ولا يختلف ولكن العالم مختلف متغاير وصدق الله العظيم .

« وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » .

وهناك أدلة أربعة ذكرها صاحب المواقف لإثبات وجود الصانع لا مانع من ذكرها إتماما للفائدة .

فصاحب المواقف يقسم العالم إلى جوهر وعرض ، والجوهر هو ما تحيز بذاته . والعرض . هو ما تحيز بغيره أى ما لم يتحيز بذاته . بمعنى أن الجوهر هو ما يستطيع القيام بذاته والعرض ما لا يستطيع القيام بذاته .

لما كان العالم ينقسم إلى جوهر وعرض فقد استدل صاحب المواقف على وجود الله مرة بالجوهر وأخرى بالعرض . إما من جهة حدوث كل منها أو من جهة إمكانه بشرط الحدوث أو مع الحدوث .

فينتج من ذلك أدلة اربعة على وجود الله هى :

١ - حدوث الجوهر .

٢ - حدوث العرض .

٣ - إمكان الجوهر مع الحدوث أو بشرطه .

٤ - إمكان العرض مع الحدوث أو بشرطه .

وتوضيح هذه الأدلة فيما يلى :

الدليل .. حدوث الجوهر ..

وتقرير هذا الدليل .. العالم الجوهرى حادث .. وكل حادث لابد له من محدث : فالعالم الجوهرى لابد له من محدث .

وهذا الدليل مكون من مقدمتين نظريتين وليستا بدهيتين[1] بمعنى أن كلتيهما محتاجة إلى دليل لإثباتها لتكون النتيجة صحيحة :

المقدمة الأولى ..

العالم الجوهرى حادث .. الدليل على حدوث الجوهر أنه ملازم للعرض الحادث ومالازم الحادث فهو حادث : فالعالم الجوهرى حادث .

أما عن ملازمة الجوهر للعرض الحادث فلأن الجوهر لايخلو من الحركة أو السكون أو غيرهما من الأعراض الحادثة .

---

(١) النظرى - هو مايحتاج فى إثباته إلى دليل .. كإثبات وجود الله - سبحانه وتعالى .. مثلا .

والبدهى .. مالايحتاج فى إثباته إلى دليل .. ككون الإبن أصغر من أبيه وككون السماء فوقنا مثلا فإن هاتين القضيتين لا تحتاجان فى إثباتهما إلى دليل يؤكد صدقهما فالواقع المشاهد يثبتهما بخلاف إثبات وجود الله فإنه يحتاج فى إثباته إلى دليل :

وأما من اثبات الحدوث لما لازم الحادث فلأن ملازم الحادث لو كان قديماً للزم قدم الحادث وذلك محال .

وبذلك تسلم لدينا المقدمة الأولى وهى العالم الجوهرى حادث .

المقدمة الثانية ..

وكل حادث لا بد له من محدث .. فقد اختلف فيها العلماء فقال قوم إنها بدهية ذلك لأن من رأى بناء رفيعا حادثا جزم بأن له بانيا .

وقال آخرون إن هذه القضية نظرية واستدلوا عليها بأحد دليلين .

الأول .. أن أفعالنا محدثة ومحتاجه إلى الفاعل فى حدوثها فكذلك الجواهر المحدثة محتاجة إلى الفاعل لأن علة الاحتياج وهى الحدوث مشتركة بين أفعالنا وبين الجواهر .

الثانى .. أن الحادث هو ما اتصف بالوجود بعد العدم فهو قابل لهما فيكون ممكنا . وكل ممكن يحتاج فى ترجيح وجوده على عدمه إلى مؤثر .

وهذا الدليل - أعنى الاستدلال بحدوث الجواهر على وجود الله .. هو الطريق الذى سلكه الخليل عليه السلام لإثبات الله تعالى .. وقد حكى القرآن الكريم عنه فقال (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم أنى برىء مما تشركون . أنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) [1] .

ذلك لأن الآفل حادث لحدوث عارضة وهو الأفول وما هو حادث فلابد له من محدث فلا يكون علة لجميع الحوادث .. ولذلك قال إبراهيم

---

(١) الأنعام - ٧٦ - ٧٧ - ٧٨ - ٧٩ .

بعد عرضه لأفول هذه الأجرام (إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا) [١] أى أن هذه الحركة الدائبة الدائمة لهذه الكواكب لا بد لها من مكوكب هو الله لأنها حادثة ولا بد لها من محدث .

٢ — حدوث الأعراض

الاستدلال بحدوث الأعراض فى الأنفس كما فى إنقلاب النطفة علقه ثم مضغة ثم لحما ودماء والمراد مايلازم هذا الإنقلاب من الأعراض المختصه بكل منها مثل اللون وغيره ..

إذ لا بد لهذه الأعراض الطارئه على النطفة من صانع حكيم .. لأن حدوث هذه الأطوار من غير صانع محال . كما أن صدورها عن مؤثر لا شعور له كما يدعى بعض الملاحدة صدورها عن القوة المولده المنبثة .. فى النطفة محال أيضاً لأنها أمور محكمة عجز العقلاء عن الوصول إلى الحكم المودعة فيها فكيف يمكن صدورها عن مثل تلك القوة التى لا شعور لها ولا تميز؟ ..

وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم حين قال :

(ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفه علقه فخلقنا العلقة مضغه فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما . . ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) [٢] .

وكما يستدل على وجود الله بحدوث الأعراض فى الأنفس يستدل بحدوثها فى الآفاق .. كما يشاهد من أحوال الإفلاك والعناصر والنبات والمادة ..

فإن ما يحدث فيها من الالوان البديعة والنقوش الغريبة والأشكال العجيبة يدل على صانع حكيم الصنع وهذا هو مايشير إليه القرآن الكريم حين يقول ..

---

(١) الأنعام ـ ٨٠ .
(٢) المؤمنين ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ .

(ألم ترى أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب)[١]

٣ ـ إمكان الجوهر .

وذلك بأن يقال ..

العالم الجوهرى ممكن .. وكل ممكن فله علة مؤثرة ... فالعالم الجوهرى له علة مؤثره وهاتان المقدمتان استدلاليتان بمعنى أن كليتهما تحتاج فى إثباتها إلى دليل ..

المقدمة الصغرى .. العالم الجوهرى ممكن الدليل عليها .. هو أن العالم مركب من أجزاء والمركب محتاج إلى أجزائه الذى تركب منها .. والمحتاج لا يكون واجبا فهو إذن ممكن وهو المطلوب .

المقدمة الكبرى .. وكل ممكن فله علة مؤثره .. الدليل عليها أن الممكن هو ما استوى طرفاه وجودا وعدما ـ فهو إذن محتاج إلى علة ترجح وجوده على عدمه وهو المطلوب .. وبذلك تثبت لدينا المقدمتين .. والله هو المؤثر لا مؤثر سواه ..

ولعل هذا الدليل هو الذى أشار إليه القرآن الكريم حين قال :

(ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أو تاداً ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا[٢] وجعلنا الليل لباسا[٣] وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا من المعصرات[٤]

---

(١) الزمر ـ ٢١ .

(٢) سباتا . قطعاً لأعمالكم وراحة لأبدانكم .

(٣) لباسا ـ ساتر لكم بظلمته كاللباس .

(٤) المعصرات ـ السحائب التى حان لها أن تمطر .

ماء ثجاجا (١) لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا)(٢) (٣) .

٤ — إمكان الأعراض بالنسبة إلى محالها .

وبيان هذا الدليل ..

أن الأجسام جميعا متفقة فى الحقيقة لتركبها من الجواهر المتجانسة فلا يكون إختصاص كل جسم بما له من الصفات الذاتية من غير أحتياج إلى مخصص خارجى لأن أختصاص كل جسم بما له من الصفات أمر ممكن فلا بد له فى التخصص بهذه الصفات دون غيرها من مخصص .

وهذا الوجه هو الذى استدل به موسى عليه السلام حين قال .. لفرعون حين قال له ما يحكيه القرآن الكريم :

(من ربكما ياموسى)(٤) . « فقال له ، « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »(٥) أى أن الله . سبحانه وتعالى . أعطى كل موجود الشكل المعين والصورة الخاصة والمنفعة الخاصة ، دون غيره من الأشكال والصور والمنافع الأخرى ، وهذه الوجوه الأربعة قد أوصلتنا إلى وجود الصانع ، فقد أقام كل وجه منها دليلا لا يمارى فيه على وجود الصانع ، وهذا الصانع المدبر واجب الوجود لأنه لو لم يكن واجب الوجود لكان ممكنا محتاجا إلى مؤثر فإن كان واجبا ثبت المطلوب وإلا لأحتاج إلى مؤثر آخر ، وهكذا فأما أن يدور الأمر أو يتسلسل أو ينتهى إلى واجب الوجود ولما كان كلا من الدور والتسلسل باطـــلا فقد تبين الانتهاء إلى الواجب وهو المطلوب .

---

(١) ثجاجا ـ منصبا بكثرة مع التتابع .

(٢) ألفافا .. ملففة الأشجار . (٣) النبأ من ٦ إلى ١٦ .

(٤) طه ٤٩ . (٥) طه ٥٠ .

(ج) الدليل القلبي .

نعني بالدليل القلبي الطريق الذي سلكه الصوفية لأثبات وجود الله سبحانه وتعالى .

ذلك لأن الصوفية يرون أن العقل أقصر قامة من أن يدرك هذه القضية أو يقيم الدليل عليها .

فالله لو وقع في مجال الإدراك العقلي لكان محدوداً محصوراً في مجال العقل الذي لا يخرج عن كونه حاسة في هذا المجال بين السحاب والتراب والله سبحانه وتعالى لا يحده المكان ولا الزمان .

وأدلة المتكلمين التي تعتمد على مشاهدة الكائنات المحسوسة التي تنقل المرء بدورها إلى وجود المكون لها لا تعجب الصوفية لأن العقل سبيلها وهذا الميدان ليس له .

أما الصوفية فقد أعتمدوا في وجود الله على المعرفة الاشراقية التي تفيض في نفوس العارفين .

وهذه المعرفة الاشراقية أو اللدنية أو التي يسميها البعض بأسم الحدس الصوفي يحصل عليها الأنسان حين يبتعد عن الشهوات وحين تصفو نفسه وتتطهر ذاته وتسموا روحه . ولقد وضحت لنا هذه الوجهة الصوفية عابدة من العابدات حين سئلت عن وجود الله فرفعت وجهها إلى السماء وقالت يارب متى خفيت عن الوجود حتى تحتاج إلى أثبات .

وهذه نقول لبعض الصوفية تثبت وجهة نظرهم في الاستدلال من أنه بالقلب لا بالعقل وعن طريق الإشراق لا عن طريق الأقيسة العقلية .

يقول . . فريد الدين العطار :

(عندما تتجلى الحقيقة . . يريد الحقيقة الآلهية . . . يرتد العقل لأن

العقل هو الأداة التى تستخدم لمعرفة العبودية . وليس للوقوف على الكنه الحقيقى للربوبية)[1] .

ويقول أبو حامد الغزالى :

(فأعلم أن الساعى إلى الله لينال قربه هو القلب دون البدن) .

ولست أعنى بالقلب اللحم المحسوس .. بل هو سر من أسرار الله عزوجل لايدركه الحس .)[2] .

ويقول (ولهذا بعث الله الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا : لا اله إلا الله وماأمروا أن يقولوا : لنا اله وللعالم اله فإن ذلك كان مجبولا فى فطرة عقولهم من مبـدأ نشوئهم وفى عنفوان شبابهم ولذلك قال الله عز وجـل (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولون الله) .

وقال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) .

فإذاً فى فطرة الإنسان وشواهد القرآن مايغنى عن إقامة البرهان)[3] وهكذا يتضح لنا أن الصوفية يرون .

١ ـ أن العقل لايصلح سبيلا لاثباته وجود الله ، لأنه أقصر باعاً من ذلك وهذا يقتضى رفضهم لأدلة المتكلمين والفلاسفة .

٢ ـ أن وجود الله لايحتاج إلى دليل لاثباته فهو مركوز فى الفطر

---

(١) تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار جـ ٢ صـ ٢٧٣ .

(٢) احياء علوم الدين للغزالى جـ ١ صـ ٥٤ .

(٣) « « « « جـ ١ صـ ١٨٣ .

الانسانية متى تخلت عن الرذائل وتحلت بالفضائل وزهدت فى دنياها ولم تنشغل بعرضها الزائل . فأنها متى كانت هكذا فإنها تستطيع أن ترى ربها بقلبها المشرق .

٣ ـ أن العالم ثابت بالله فكيف يثبت الله بالعالم .

ويرى بعض الباحثين أن طريق الصوفية أسلم الطرق وأقواها يقول الدكتور/ بيصار وهو يتحدث عن دليل الصوفية : (ولهذا وجه القرآن الناس إلى النظر فى نفوسهم فقال « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ايذاناً بأننا إذا تأملنا فى نفوسنا وقصدنا إلى وجداننا فتعهدناه بالتصفية وإلى قلوبنا فأخذناها بالرياضة الروحية كنا جديرين بأن تتضح لنا عين أخرى لا يقل ادراكها وضوحاً عن إدراك أعيننا فى عالمنا الحسى وتلك هى عين البصيرة أو كما يسميها القرآن الكريم عين اليقين .

وتحصيل هذا النوع من الإدراك ممكن وميسور لأى انسان أخذ نفسه بالتجرد عن عالمنا الحسى والتخلص من مشتهياته حتى يخلصها من الأغلال والقيود التى تشوب صفاءها وتشغلها عن إدراك الحقيقة الكامنة وراء عالم الحس والمشاهدة .

ولهـــذا كابر فرعون موسى وعاند ورفض الإيمان بإله موسى وأصر على ذلك ، ولكنه عنـــدما أدركه الغرق وأحاط به الماء من كل جانب وأدرك أن لا سبيل إلى النجاة حدثت له حالة من التجرد عن كل مألوف لديه واليأس من كل ما كان محبوبا عنده من ملك وجاه وسلطان ومال إلى غير ذلك من مشتهات الدنيا فأدرك عندئذ أن هناك شيئاً واحدا لابد أن يكون كامناً وراء كل هـــذه الأحداث وفوق كل النواميس وهو أحقها جميعاً بالوجود وأجدرها بالعبادة ذلك هو إله موسى الذى كذبه فرعون من قبل فلم يسعه عندئذ إلا أن يعترف ويقول « آمنت أنه ، لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » وإن كان إيمانه قد رفض من الله ولم يقبل منه

لإمعانه فى الفساد وغلوه فى العناد « الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » .

هذا المعنى الذى أدركه فرعون فى طرفة عين أو ومضة برق يدركه غيره من الناس الذين حصل لهم من الاستعداد ما يهيؤهم للتصديق به تصديقاً يقينياً يحصل للنفس فى صورة إلهام خفى ونور بصيرى يقذفه الله فى قلوب الأخيار من عباده الذين أراد لهم الهداية إلى الحق الساطع والنور الوضاء[١] .

لكن الذى نراه أن الذين يرون أن الدليل القلبى أهم الأدلة التى سبقت لوجود الله قوم رجحوا مالا يستحق الترجيح ذلك لأن ماقاله الصوفية لا ينهض دليلا أمام منكر ينكر وجود الله ، ويحتكم إلى عقله فقط ، بل إن علاج حالة كهذه ليست فى يد الصوفية وإشراقهم ولكنها فى عقل المتكلم وحكم الفيلسوف .

ولسنا بذلك ننقص من قيمة الدليل القلبى ولكننا نرى أن لكل من هذه الأدلة مكانه ومكانته ، فإدراك الصوفى ورؤيته القلبية لنفسه فهى دليل له وأما الدليل العقلى فلصاحبه وللناس منكرهم وغيره على حد سواء .

(د) الأدلة الكونية :

هذه الكائنات التى نخالطها ونعاشرها صباح مساء شواهد صدق على وجود الله ـ سبحانه وتعالى .

ولقد ذكر القرآن بأن فى أنفسنا دليل على خالقنا فقال ـ تعالى ـ « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »[٢] .

---

(١) المختصر فى العقيدة والأخلاق للدكتور / محمد عبد الرحمن بيصار ٧٠ — ٧١ .

(٢) الذاريات ـ ٢١ .

وقال أحدهم :

وفى كل شىء له آية　　تدل على أنه الموجد

ولقد ذكر أحد الباحثين فى علم الكلام أدلة كونية عدة حاول من خلالها أن يبرز الحكم المودعة فى هذه الموجودات ليتخذها دليلا على وجود الصانع وحكمته ، رأيت أن أذكرها إتماماً للفائدة :

(د) الحيوان :

ونعنى بالحيوان هنا الحيوان بمعناه الأعم فيشمل العاقل منه وهو الإنسان كما يشتمل على بقية أصناف الحيوانات .

ولاشك أن فى العالم الحيوانى عدة جوانب كل جانب منها يبين للمتأمل المتدبر أن لها موجداً حكيما فى خلقه وتدبيره . .

١ - بالنسبة لأنواعه :

الناظر إلى الحيوان يراه قد تنوع إلى أنواع مختلفة .. فمن حيث ضخامة جسمه وعدم ضخامته ، نرى نوعاً منها قد بلغ غاية عظيمة فى الضخامة كالفيل والجمل مثلا ونوعا قد بلغ فى الصغر حدا حتى صار لا يرى إلا بالآلات المكبرة مثل الميكروسكوبات ومع كون هذا النوع قد وصل فى الصغر إلى هذا الحد فله أعضاء مختلفة كباقى الحيوانات وله معرفة بطرق المعاش وميل إلى ما فيه بقاؤه وحياته وتنفور عما يضر وذكاء يتقى به الأخطار .

٢ — من حيث التعمير فى الدنيا :

فقد بين الباحثون أن من الحيوان ما يعيش كثير مثل السحلفاء فقد قال عنها الإخصائيون أنها تعيش مائتين وعشرين سنة والنسر الذهب فإنه يعيش غالباً بين مائتى سنة والفيل أكثر من مائة سنة والفرس يعيش غالباً ثلاثين

سنة وهكذا لكل حيوان عمر محدود خاص به ولم يكن ذلك راجعا لمسكن أو معيشة أو كبر حجم أو صغره :

٣ — من حيث تناوله الغذاء .

نرى نوعا منها يتناول الغذاء بيديه كالإنسان ونوعا يتناوله بفمه كالبقر والغنم والخيل ونوعا يتناوله بمنقاره كالطيور ونوعا يتناوله بأنفه كالفيل ونوعا يتناوله بلسانه كالحرباء فإنها تمد لسانها الطويل المبتل بمادة لزجة تخطف به غذاءها من الهواء . .

٤ ـ من حيث الشكل الخارجي :

نري منها ما يكسى جسده بالصوف الذى تحفظه من الحر والبرد ومنها ماهو مكسو بالشعر أو الوبر ومنها ماهو مكسو بالعظم كالسلحفاه ومنها ماهو مكسو بالريش الجميل الذي يزين جسده ومنها ماليس عليه إلا الجلد والبشرة . كذلك تراه قد أختلفت أنواعة من حيث أختلاف هيئاته وأشكاله وكيفية تحصيل رزقه وكيفية تناول الطعام ومن حيث أختلاف ألوانه ومن حيث تفاوت أصواته فمنها المطرب ومنها المنكر فإذا أضفنا إلى ماعلمناه من وجوه الاختلاف فى الحيوان ما فيه من التركيب العجيب وتكون الأعضاء أو أو الحواس الظاهره والباطنه ووظيفة كل عضو منها ورقائق صنعها وانطوائها على الفوائد الكثيرة التى بنيت على الحكمة تبين لنا أن ذلك التخصص لا يكون إتفاقا .

خذ مثلا عملية هضم الطعام .

فقد ثبت أن الحيوان إذاء تناول الطعام وصله لآلة فه سحقته ومزج باللعاب ليساعد على الهضم ثم دفعه دفعة إلى معدته وأمعائه ليحصل له تمام الهضم بسبب الحرارة والعصارات المفرزة ومتى تم الهضم تستخلص المادة المغذية وتنتقل إلى أعضاء سوى المعدة والأمعاء فتؤدى هذه الأعضاء وظيفتها

فينشأ عن ذلك تطور هذه المادة المغذية إلى أطوار مختلفة حتى تلبس صورة الدم فعند ذلك تحصل الدورة الدموية المنظفة لهذا الدم مما علق به ثم يتوزع ذلك الدم على جسد الحيوان فيصل إلى كل عضو حصته التى يحتاج إليه وبقدر أداء وظيفته فى الجسد كما تتحول حصة من هذه الحصص إلى حيوانات منوية تلبس صورة الحيوان فتى حصل الوقاع ليست صوراً متعددة فتنتقل من نطفة إلى علقه فمضغة : فعظما فعظما مكسو لحما ثم ينفخ فيه الروح .

أى أنها تصير كالحيوان الذى حصلت داخل بنيته تلك الأطوار وحلت فيها الحياة الحيوانية الحساسة . فتصير بذلك حيواناً يسمع ويبصر ويشم ويذوق . . ثم تتموفيه قوة الإدراك على قدر مايحتاج إليه فى تدبير معيشته .

وإذا سلمنا بلا ريب لأن الواقع المشاهد يملى علينا هذا التسليم أن الآلة لها صانع صنع تروسها وأحكام حركاتها دون أن تراه فى حالة صنعه لها .

أفلا ينهض خلق الحيوان بهذه الصورة العجيبة الدقيقة الحكيمة بما فيها من أجهزة هضم وتنفس وتناسل دليل على وجود الخالق .

النبات :

النبات يتكون بسبب وضع الحبة أو النواة فى الأرض الرطبة وذلك أن الحبة أو النواة إذا وضعت فى الأرض الرطبة ومضت مدة عليها ظهر فى الحبة أو النواة من أعلاها شق ومن أسفلها شق فالشق الأعلى يخرج منه جزء هو الشجرة الصاعدة والشق الأسفل يخرج منه جزء آخر هو الشجرة الهابطة فى الأرض وهو المسماه بعروق الشجرة .

إذا أمعنت النظر قليلا فى ذلك التكون الذى حصل لظهرت لك عجائب تحار فى إدراكها العقول . . وهى :

١ — أن الحب إذا وقع فى الأرض الرطبة وأستولى عليه الماء والتراب فالنظر العقلى يقتضى أنه يتعفن ويفسد . لحفظه وإنباته فيه حكمة جلية .

٢ — أن الحبة إذا وقعت فى الأرض الرطبة انتفخت وترتب على ذلك الانتفاخ عادة التفتح والانحلال من كل الجوانب ومع ذلك تراها لاتنشق إلا من الأعلى والأسفل .

٣ — أن النوى مع مافيه من الصلابة العظيمة التى بسببها يعجز عن فلقة أكثر الناس ينفلق إلى وقع فى الأرض الرطبة وإنفلاقة يكون من نقرة صغيرة على ظهر النواه فتصير النواه نصفين يخرج من أحدهما الجزء الصاعد ومن الأخر الجزء الهابط .

٤ — طبيعة تلك الحبة أو النواة التى تولدت منها الشجرة واحدة وتأثير الطبائع والأخلاق والكواكب فيها واحد ومع هذا يخرج شجرات أحدهما خفيف صاعد والأخر ثقيل هابط مع أتحاد الطبيعة والماء والهواء والتربة .

٥ — إن باطن الأرض جرم كثيف صلب لا تنفذ المسلة القوية فيه ومع هذا فإننا نشاهد أطراف تلك العروق فى غاية الدقة واللطافة كأنها مياه منعقدة بحيث لو دعكها الإنسان بأصبعه بأدنى قوة لصارت كالماء ثم أنها مع غاية لطافتها تقوى على النفوذ فى تلك الأرض الصلبة .

٦ — يتكون فى تلك النواة أو الحبة شجرة فيها طبائع مختلفة فقشرها له طبعة خاصة وجرمها المستور بذلك القشر له طبيعة خاصة ويصلح لما لايصلح له القشر . كذلك يقال فى الأوراق والأزهار والثمار .

٧ — أحوال الفواكه مختلفة فبعضها يكون اللب فى الداخل والقشر فى الخارج مثل اللوز وبعضها يكون بالعكس مثل المشمش والبلح والخوخ كذلك تتباين أنواع النباتات مع أتحاد التربة وجميع لوازم النمو . . . فمنها أنواع كثيرة لا تحس بشىء فالتحقت بالجماد ومنها مايحس فالتحق بالحيوان كالنوع المسمى بالسنط الحساس الذى إذا لمس حراره أحس وأنضمت وريقاته على عصار يغرى الذباب فيسقط عليها فإذا أحست به أنطبقت

عليه ولا تتركه حتى تمتصه وتتركه ميتا لم يبق منه سوى هيكله ويسمى لنبات آكل الحشرات .

هذا الاختلاف فى النوع والخاصة والثمرة والطبع مع أتحاد التربة والماء والهواء والتكوين على خلاف ما تقتضيه الطبيعة ويقضى به العقل فى بادىء النظر دليل على ذلك الحاصل ليس حصولا اتفاقيا ولا اقتضه طبيعة النبات كما يدعى الملاحدة بل هو بفعل فاعل حكيم مختار سبحانه جل شأنه .

السكواكب :

ذكر العلماء المتخصصون أن السكواكب أنواعا وأنها مختلفة الأوصاف من جهات متعددة .

فبعضها كبير وبعضها صغير بالنسبة لهذا الكبير كالأرض بالنسبة للشمس مثلا .

وبعضها قريب منا وبعضا بعيد عنا .

وبعضها بطىء السير وبعضها سريع حتى يقال إن المشترى يسير ثلاثين ألف ميل فى الساعة .

ومنها ما نوره أصلى كالشمس ومنها ما نورة مكتسب كالقمر :

ومنها مافيه حرارة كالشمس ومنها مالا حرارة فيه كالقمر :

ومنها الشمالى ومنة الجنوبى ومنها المتوسط :

وهى مع هذا الاختلاف فى الشكل والمسار والسرعة والقرب والبعد فهى سائرة فى أبراجها ومنازلها بغاية الضبط والأحكام بحركات مختلفة ودورات متنوعة تضبط بها الأوقات وتعلم منها السنون والأشهر والأيام والساعات وتمتاز الفصول بترتيب يحار فيه العقول .

وقد أفاد الباحثون أن فيها ما يعود على الحيوان والنبات والمعادن بالنفع والصالح .

فمن الذى كوكبها وأجراها فى مسارها وأشرف عليها فى علياتها .

لا شك أن تخصيص كل فرد من أفراد هذه الكواكب بما أختص به مع التساوى فى الجسيمة وأمور أخرى دليل قاطع على أنه لا بد لذلك التخصيص من مخصص مختار : عالم بالحكم والمصالح المترتبة على وجود كل كوكب بما تميز به من صفات :

الهواء والريح :

يمتاز الريح عن الهواء بالحركة

وبسبب التحرك تنوعت الريح إلى أنواع وأختص كلا منها بمزايا ومنافع .

فمنها الجنوبى ومنها الشمالى ومنها الغربى .

ومنها الحار ومنها البارد .

ومنها الشديد منها الضعيف ومنها البطىء فى سيرة ومنها السريع ومنها الزوبعة وهى الريح التى تدور حول نفسها .

وهذه الرياح على تنوعها وتميزها قد قامت بمنافع عده للإنسان فهى :

١ — تسوق السحاب إلى مواقع مطره :

٢ — تلقح الثمار بنقل مادة التلقيح من أعضاء التذكير إلى أعضاء التأنيث :

٣ — تلطف الحرارة :

٤ — تسوق السفن فى البحار :

فتنوع الريح وتصريفها وتكليفها بمنافع العباد ومصالحهم ليس إلا من تقدير رحيم خبير :

الأرض وما فيها من الجبال والبحار :

الأرض بحسب طبيعتها قد اشتملت على قسمين ماء ويابس .

أما الماء وهو المحيطات والبحار فيبلغ ثلاثة أرباع الأرض تقريباً وهو مسكن الأمم المائية ومصدر الجواهر البحرية وبه خلق عجيب عجيب مختلف النوع والطبع والشكل والسمت .

وقد خصت تلك المحيطات بالمد والجزر والتيارات السطحية والسفلية والأمواج التي كالجبال وبالملوحة الملائمة لمائها التي لولاها لأنتن الماء فأهلك الحرث والنسل ، كما سخرت للبشر تمخرها ذاهبة آيبة متنطيه الفلك الجوارى كالأعلام .

وأما الجزء اليابس وهو ربع سطح الأرض تقريباً فمنه جبال ومنه أودية وسهول وكهوف ومعادن .

وكل نوع من هذه الانواع قد خص بمزايا لم توجد في الآخر :

فالجبال مثلا ، مسكن الوحوش ومنبت الاشجار الشامخة التي هي مادة الأخشاب والوقود ومع ذلك فمنها ذو المنظر البهيج المكسو بالخضرة والنبات ومنها الاجرد الذى لا يصلح إلا لمادة البناء فقط :

والاودية ، منها ما يخيل إليك أنه نعيم كالبساتين التي جمعت أنواع الفواكه والورود ذوات الروائح الطيبة والمناظر الجميلة .

ومنها ما هو كدار الجحيم مثل وادى الموت الكائن قرب « جاما » فإنه واد بطنه رمضاء محرومة وقفر لانبات به ولا حيوان فيه فلا يحله طائر ولا تدب فيه دابة ولا يسكن فيه وحش إلا ويعاجله الموت ولا يرى فيه إلا الرمم البالية من عظام الحيوانات وهوالك الحشرات .

والكهوف بعضها حصنا تأوى إليـــه الحيوانات وتتحصن به مثل الكهوف التي تسخن في الشتاء فإنه يأوى إليها من الحيوانات ما لا يقدر على برد الشتاء وترى بعضها كهف موت لا يدخله حيـــوان إلا مات في

الحال لانه متنفس جبل نارى قد خمــــد وبقى من متنفسه هواء سام يقتل من يستنشقه .

والسهول وهى المواضع الصالحة للزراعة والحياة فهى متوسطة بين الصلابة والرخاوة لانها لوكانت صلبة لا تصلح للزراعة ولوكانت رخوة لغاصت فيها أقدام الحيوانات وهى مع ذلك متنوعة التربة يناسب كل جزء منها نباتا لا ينبت سواه .

وأما المعادن المتولدة فى أحشاء الارض فهى متباينة الانواع مختلفة الخواص صالحة لمنافع سكان الارض . فمنها السائل ومنهــا الجامد ومنها القابل للذوبان وغير القابل له ومنها ذو اللون الاحمر والاصفر والابيض وغير ذلك إذا تأمل الناظر قليل فى جعل معظم أجزاء الارض ماء والقليل يابساً وتخصيص الماء بتلك الخواص التى تحدثنا عنها وتنوع اليابس من الارض إلى جبال مختلفة الخواص والمناظر والمزايا وتمايزها من أودية فيها نعيم إلى أودية فيها جحيم وإلى كهوف بعضها حصون وبعضها بيت وإلى سهول تنبت أنواعا متعددة .

والمعادن كذلك فهى من ذهب وفضة ونحاس وقصدير وغيرها يختص كل نوع منها بمزايا وسمات ينفصل بها بعضها البعض الآخر والكل أرض .

من تأمل هذا أدرك أن لهذه الانواع المتمايزه المختلفة مع الاتفاق فى الاصل موجدا حكيما .

هذه هى الادلة الكونية التى أفصحت أن للعالم صانعا مختارا[1] .

وإلى هنا نكون قد أشرنا بأصبع مرتعشة إلى ما يثبت وجود الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا تحسب إلى أننا قد قلنا القليل الضئيل .

---

(١) الادلة الكونية الذى ذكرت نقلا (بتصرف) من كتاب القول السديد فى علم التوحيد الشيخ محمود أبى دقيقة ج ٢ ص ٥٠ – ٦٠ .

إن الكون العجيب الذى أبدعه القادر القاهر ملىء بالحكم والاسرار التى توحى لكل ذى عقل ولب أنه صنعة صانع حكيم .

أخال أنى بهذا العرض المتواضع قائلا شيئاً فى إثبات وجود الله ولكننى لم أقل كما قلت كل شىء ولذلك فإنى أعتذر عن تقصيرى لضيق الوقت وأعد باستكمال ما حال ضيق الوقت دون عرضه بالصورة التى أحب متى يكون منفسح من الوقت إن أمتد بى الاجل إلى هناك . . . وتنتقل الان إلى دفع بعض الشبهات التى حاكها المفترون المشككون فى وجود الله .

٥ — الشبه التى أوردها الماديون . . . وردها :

أورد الماديون المجادلون فى وجود الله شبها حاولوا بإثارتها فى سماء الحق أن يضعوا غشاوة على الابصار المؤمنة فلاترى نور الله الذى تنزلت به رسله الواحد تلو الاخر .

وعلينا الان أن نورد هذه الشبهة كما حاكها المفترون أصحابها ثم نردها بالحجة والبرهان فإذا هى زاهقة :

الشبهة الاولى :

تتلخص هذا الشبهة فى أن العقل لا يمكن أن يتصور موجودا ليس من جنس المخلوقات فلا يكون جسما ولا مادة جسم ولا صورة جسم ولا آخذا قدرا من الفراغ .

وحيث لا يمكن تصور موجود بهذه الصفة فلا يمكن التصديق بوجوده لان التصديق فرع التصور . . وهذه الشبهة تنفى وجود الله .

رد هذه الشبهة :

القد بنى هؤلاء المنكرون لوجود الله أنكارهم لوجوده سبحانه وتعالى على ما يلى :

(ا) عدم تصورهم له — سبحانه وتعالى .

(ب) قياس الغائب على الشاهد .

(حـ) تجاهلهم لهذه الآثار العظيمة التي تدل على وجود المؤثر .

وبيان ذلك ورده :

(ا) فأما عن بناء هؤلاء المنكرين لوجود الله أنكارهم على عدم تصورهم له وجهلهم بحقيقة موجودة ليس بجسم ولا آخذ قدراً من الفراغ إلخ ماذكروا فإنه مردود .

بأن الجهل بالله لا ينفي وجود الله كما أن عدم تصور الشيء لا ينفي وجود ذلك الشيء ، فلا يزال في هذه الموجودات من حولنا الكثير الذي لم يرتده العقل البشري ولم يعرفه فهل يعني ذلك عدم وجوده ؟

إن بعض القارات بأثرها كانت لا تزال مجهولة إلى عهد قريب فهل يعني جهلنا بها في الماضي عدم وجودها ثم وجدت عند إكتشافنا لها .

ثم إن ما نعلمه بالنسبة لما نجهله قليل ضئيل . فهل يعني هذا قصر أسرار هذه الحياة على ما يعرفه الإنسان الآن إذن فلم الأبحاث والكشوف التي تبذل الإنسانية في سبيلها الكثير من الجهد والمال والوقت ؟

ثم إن الإنسانية إذا نظر إلى الأشياء التي دخلت تحت دائرة معلوماته نجده يجهل كثيراً من مباحثها بعد إعمال فكرة وكثرة بحثه فهل يعد إدراك عظم هذه المخلوقات الدال على عظمة المبدع وثبوت جهل الإنسان بأكثر الأشياء يقولون إن عقولهم لا يمكن أن تتصور موجوداً ليس جسما ويجعلون عدم تصور العقل دليلا على عدم الوجود في حين أنهم أعترفوا بأن هناك حقائق كثيرة نجهلها ولا تتصورها عقولنا . فهل يعني عدم التصور عدم الوجود لا إذن فليس عدم التصور دليلا على عدم الوجود .

(ب) قياس الغائب على الشاهد . فقد قاس هؤلاء المنكرون لوجود الله الغائب وهو الله[1] على الشاهد وهو الإنسان وغيره من أجرام مثلا .

فكما أن الإنسان جسم وآخذ قدراً من الفراغ ويجرى عليه الزمان ويحويه المكان فلا بد أن يكون الله كذلك . وكما أن إنسانا لا يستطيع أن يتصور إنسانا آخر إلا متصفا بهذه السمات فكذلك الله . . وهذا خطأ تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

لأن الله واجب الوجود والإنسان ممكن الوجود ومحال أن يقاس من وجوده من ذاته بمعنى أنه موجود لا موجد له بمن وجوده مستمد من غيره فكما أن وجوده ليس كموجد كذلك لا تجرى عليه هذه الصفات التى اتصف بها البشر وكانت شرطاً لكونهم موجودين .

كما أن قياس الغائب على الشاهد فيمن اتفقوا فى الإمكان كقياس إنسان على إنسان مثله مثلا قياس خداع كثيراً ما يوقع صاحبه فى الخطأ قال بذلك الفلاسفة والماديين على حد سواء وتلك حقيقة واضحة فمثلا إذا أبصرت مكتبا متقن الصنعة صنعه صديق لك تعرف شخصه كما تعرف سمته وطبعه ثم أبصرت مكتبا آخر متقن الصنع وهب أنه طبق الأصل من مكتب صاحبك الذى تعرف شخصه وسمته وطبعه هل تستطيع أن تحكم على صانع المكتب الآخر الذى يماثل مكتب صاحبك بأنه مثل صاحبك فى شخصه وسمته وطبعه إنك إن فعلت كنت بلا شك مخطئا فى حكمك .

إذن فقياس الغائب على الشاهد فى مسألتنا هذه خطأ وباطل .

(ح) تجاهلهم لهذه الآثار العظيمة التى تدل على عظمة المؤثر .

---

(١) أعنى بالغائب هنا الغير مشاهد الآن مشاهدة بصرية كالإنسان أو الجماد مثلا . . أما الغائب بمعناه الشامل فمعاذ الله أن نعنيه فالله حاضر لا يغيب .

وقد أكثرنا القول عن أن هذه الكائنات تدل على صانع حكيم مدبر على أن التطلع لما وراء ذلك من البحث عن كنه الصانع الحكيم ضرب من العبث الذى ينبغى أن يتبرأ منه المفكر ، وبذلك تزال هذه الشبهة .

الشبهة الثانية :

القول بأن العالم وجد من العدم قول باطل ، ذلك لأن وجود الشىء من اللاشىء قول باطل أى أن تكون شىء من غير أن تكون له مادة يتكون منها أمر يعجز العقل عن تصوره وحيث عجز العقل عن تصوره فإن التصديق به ممتنع ، إذن فوجود العالم من العدم قول باطل .

وهذه الشبهة تثبت أن العالم قديم وليس حادثاً ليكون محتاجا إلى محدث هو الله .

رد الشبهة :

منشأ هذه الشبهة أن أصحابها حكموا .

١ — بأن ما ستحال على العبد استحال على الله .

٢ — لا يجوز تصديق إلا ما حكم العقل بتصديقه .

٣ — أن العالم قديم وليس حادثاً .

أما عن قدم العالم — والعالم هو كل من وما سوى الله فقد أقمنا الدليل سالفا على حدوثه ، من أنه ملازم للأعراض الحادثة وما لازما الحادث فهو حادث فالعالم إذن حادث ومحتاج إلى محدث .

أما أن ما ستحال على العبد استحال على الله فلا شك أن العبد يعجز عن إيجاد أمور كثيرة لأن قدرته محدودة .

ومن هذه الأشياء الكثيرة التى يعجز الإنسان عن إيجادها هى إيجاد شىء من لا شىء ، فكذا الله يعجز عن إيجاد العالم من غير أن تكون له مادة سابقة تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

و كان ذلك من مساواة العبد الناقص لله الكامل .

وهذا خطأ فإن الصفة تتبع الموصوف فى المرتبة فذات الله واجبة الوجود وصفاتها واجبة مثلها ، وذات العبد ممكنة وصفاتها ممكنة مثلها .

وفرق شاسع بين الصفة الممكنة والصفة الواجبة ، فإذا استحال على القدرة الممكنة أن توجد الشيء من اللاشيء فإن ذلك ليس محالا بالنسبة للقدرة الواجبة ، ومن هنا يبطل هذا القياس .

كما أن القول بأن ما يعجز العقل عن تصورة يمتنع التصديق به باطل كذلك .

فكثيراً ما يقف العقل حائراً أمام حقائق كثيرة لم يدرك كنهها ولم يكن عدم إدراكه لها دليلا على عدم وجودها فكذلك عجزة عن إدراك وجود الأشياء من العدم لا يدل على عدم الحصول ، وإنما يدل على أن العقل الإنسانى مهما كمل نبوغه وأرتقى فهمه فإنه لا يحيط بكل شيء وهذا شأن العقل فلا تزال هناك ميادين كثيرة لم يرتدها العقل البشرى لأنها ميادين هو أقصر قامة من أن ينتصب قائماً فيها .

الشبهة الثالثة :

خلو كثير من الكائنات عن حكمة ومصلحة فى وجوده وهذا علامة على كون وجود هذه الأشياء ليس بطريق الاختيار بل جاء بطريق الضرورة وغيره يحمل عليه فقولكم أن هذه الكائنات وجدت بطريق الاختيار غير مسلم بل طريقها الضرورة .

وهذه الشبهة تدعو إلى العدول عن الاعتقاد بوجود إله منفرد مختار فى تصرفاته فوجود العالم أذن لا يدل على وجود موجد .

رد الشبهة :

ومنشأ هذه الشبهة هو قصور العقل البشرى عن إدراك الحكم المودعه فى كل المخلوقات .

فهناك حكم أدركتها العقول السليمة والبعض لا يزال خافياً على عقولنا حتى اليوم فما وصلت إليه عقولنا فالأمر فيه ظاهر وما لم تدركه عقولنا فيجب علينا أن نجزم بأن له حكما لم تستطع عقولنا إدراكها لكنها بلا شك لاتخلو من حكمة . . وربما ظهرت حكمته لنا اليوم أو غداً أو لجيلنا أو لمن يليه أو الذى يلى الذى يليه فإن لم تتكشف فإنها بلاشك ذات حكمة عجز العقل البشرى عن إدراكها . والعلم لم يعرف كلمة الأخيرة بعد فلايزال فى كل يوم يطالعنا بما غفلنا عن الحكم المودعة فيه . . مخلوقات تخيلناها كامهملا فكانت ذات حكم وأسرار فما فى الكون إذن لا يخلو من حكمة ومصلحة استغلت اليوم أو ستستغل بعد إدراكها غداً فهذا الكون صدر بالاختيار عن فاعل مدبر له الحكمة البالغة والحكم الذى لا مرد . . سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

إختبـــار

س ١ :

عرفى الصفة بتعريفين ... ثم بينى أيهما ترجحين .. ولماذا؟
ثم حدثينا عن أنواع الصفات الواجبة لله تعالى . وعرفى كل
نوع منها . وما يشتمل عليه من صفات . ثم بينى لماذا تنوعت
هذه الصفات إلى ما تنوعت إليه .

س ٢ :

عرفى صفة الوجود . ثم أشرحى التعريف . ثم حدثينا
بشىء من التفصيل عن دليلين نقليين وآخرين عقليين مما ذكر
الباحثون على وجود الله وتعالى .

س ٣ :

أعتمد الصوفيون فى وجود الله وتعالى على المعرفة الاشراقية
التى تفيض فى نفوس العارفين .
ناقشى هذه العبارة ببيان منهج الصوفية فى إثبات وجود
الله وتعالى . ثم وضحى قيمة هذا الدليل الذى ذكروا .

س ٤ :

أتخذ بعض المتخصصين كل فى مجال تخصصه من الكون
شاهد صدق على وجود الكون .
حدثينا بشىء من التفصيل عن دليلين فقط مما ذكروا .

س ٥ :

أثار الملحدون شبها عدة حول وجود الله وتعالى ـ حدثينا
عن ثلاث شبه مما ذكروا ثم بينى كيف تردين عليها .

(ب) السلبية

(ا) تعرفها

(ب) ماتشتمل عليه

١ ـ صفة القدم
٢ ـ صفة البقاء
٣ ـ صفة المخالفة للحوادث
٤ ـ القيام بالنفس
٥ ـ الوحدانية

بعد أن أثبتنا بالأدلة المتعددة المتنوعة أن الله - تعالى - موجود ، وأن وجوده من ذاته - سبحانه وتعالى .

ثم أشرنا إلى بعض الشبهات التى أثارها المغفلون فى سماء الحق الصراخ ثم أزهقناها فإنه يتعين علينا الآن أن نعرف صفات هذه الذات المقدسة أخذاً عما قالت عن نفسها وسيرا مع ماخطته لنا عقيدتنا الإسلامية فى الله من أنه ذات متنزهة عن صفات النقص ومتصفة بصفات الجلال والكمال .

٢ - السلبية :

هى التى تسلب عن الله سبحانه وتعالى نقصا لا يليق بذاته المقدسة .

وهى تشتمل على خمس صفات تذكرها مشفوعة بالدليل عليها ودفع الشبهات وعنها .

١ - صفة القدم :

معناها : الدليل عليها .

معنى القدم هو : عدم أولية الوجود: أى أن وجوده سبحانه وتعالى غير مسبوق بعدم .

وقسم بعضهم القدم إلى ثلاثة أنواع .

١ - قدم زمانى وهو وجود الشىء فى الزمن الممتد فى الأزل إلى مالا نهاية .

٢ - قدم إضافى وهو سبق شىء لما حدث بعده : وذلك كقدم الأب بالنسبة لابنه .

٣ - قدم ذاتى : وهو عدم الاحتياج إلى الغير فى الوجود .

الدليل على القدم :

الدليل النقلى :

قوله تعالى : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) [1] .

وعن أبى بن كعب رضى الله عنه أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك فنزل قوله تعالى (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

لأنه ليس شىء يولد إلا وسيموت وليس شىء يموت إلا سيورث: وأن الله تعالى

(١) الحديد ٣ .

لا يموت ولا يورث (ولم يكن له كفواً أحد) فالله لم يكن له شبيه ولا عديل وليس كمثله شيء وأن أولئك المشركين نظروا إلى الالوهيه بعقولهم المتأخرة وقاسوا وجودها المطلق على وجودنا المحدود فتوهموا أن له أولا وليس الأمر كما يتوهمون أن لوجودنا المادى أولا لأننا نحس بذلك وندركه عن يقين وتجزم باستحالة غيره أما لوجود الإلهى فقديم لا أول له) [1] .

الدليل العقلى :

أنه لو لم يكن قديما لكان حادثا ولو كان حادثا لاحتاج إلى محدث .

وهذا المحدث أن كان قديما ثبت المطلوب وأن كان حادثا احتاج كذلك إلى محدث ومحدثه كذلك إلى محدث فيتسلسل الأمر والتسلسل باطل فيبطل ما أدى إليه وهو كونه حادثا ويثبت أنه قديم وهو المطلوب .

٢ ـ صفة البقاء :

معناها — الدليل عليها .

معنى البقاء : هو عدم آخرية الموجود .

فالله سبحانه وتعالى أزلى أبدى أى موجود بلا أوليه وباق بلا آخرية .

ذلك لأنه واجب الوجود فوجوده من ذاته ومن كان هكذا شأنه فإنه لن يدركه فناء .

الدليل على البقاء :

النقلى :

قوله تعالى :

---

(١) من كتاب أضواء على العقيدة والأخلاق تأليف لجنة من كلية أصول الدين ص ٣٣ نقلا من كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٣٩ ـ ٤٠ .

(ا) (كل شيء هالك إلا وجهه) .[1]

(ب) (كل من عليها فإن ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [2] .

(جـ) (وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده) [3] .

العقـــلى :

أنه لو لم يكن باقيا لما كان قديما لكن عدم كونه باطلا حيث أنه ثبت بالدليل قدمه فيبطل ما يؤدى إليه من نفى البقاء ويثبت له البقاء وهو المطلوب .

وبيان الملازمة فى المقدمة الأولى (لو لم يكن باقيا لما كان قديما) كما يلى :

فلو إنعدم القديم لكان إنعدمه لسبب لا يخلو من واحد من ثلاثة .

١ - وجود فاعل يعدمه بالمقدرة .

٢ - وجود ضد له .

٣ - إنقطاع شرط من شروط وجوده .

على أن اتخاذ واحد من هذه الثلاثة سببا محال أما إحتياج إنعدمه إلى سبب فلأن عدمه طارىء وعلى وجوده وكل طارىء لابد له من سبب من حيث أنه طارىء . لكان هذه الأسباب التى افترضوها باطلة وبيان بطلانها فيما يلى .

أما عن السبب الأول المفترض وهو وجود فاعل يعدمه بالمقدرة فلأن العدم ليس بشيء فيستحيل أن يكون أثرا للقدرة .

ولأنه لو وجد فاعل يعدمه لما استحق أن يكون واجب الوجود ولما صح أن يكون إلها .

---

(١) القصص ٨٨ .

(٢) الرحمن ٢٦ - ٢٧

(٣) الفرقان ٥٨

وأما عن السبب الثانى المفترض وهو وجود ضده فإنه لايجوز أن يعدم القديم لوجود الضدلأن الضد أن كان حادثا أرتفع وجوده بمضادة القديم لقوة القديم وضعف الحادث .

وإن كان الضدقديما كان من المحال أن يكون معه فى القدم ولم يعدمه ثم يعدمه الآن لأن الضدين لايجتمعان فاجتماعهما ثم إنعدام أحدهما محال .

وأما عن السبب الثالث المفترض وهو أن يكون إنعدامه لإنعدام شرط وجوده فإنه غير جائز كذلك .

ذلك لأن الشرط أن كان حادثاً أستحال أن يكون القديم مشروطا به لأنه لو كان مشروطا به لما وجد فى القدم لفقدان شرط الوجود . وإن كان قديما فانعدامه لابد له من سبب لأنه طارىء .

وما قيل فى السبب بالنسبة للشروط يقال فى السبب بالنسبة للشرط وإذا فلا يجوز عدم الشرط .

وإلى هنا يثبت لدينا إنتفاء الأسباب الثلاثة التى فرضناها لتكون سببا لإعدام القديم وإذا انتفى السبب انتفى المسبب وهو إعدام القديم فيثبت البقاء وتثبت بثبوته الملازمة فى هذه المقدمة (لولم يكن باقيا لما كان قديما) التى يثبت بثبوته الدليل على البقاء وهو المطلوب (١) .

---

(١) قد يلتبس على البعض مايؤدى إلى إنعدام الجواهر والأعراض -على هذا الدليل - الذى ينفى إتحاد الفاعل أو الضد أو إنعدام الشرط سببا للعدم ونقول لإزالة هذا اللبس أما الأعراض فانعدامها أمر لازم لحقيقتها إذ لا يتصور العرض مالم يتصور معه فناؤه عقب وجوده كالحركة فإن تصور فناؤها بالسكون ملازم لها .

أما الجواهر ففناؤها بألا يخلق الله فيها ما هو شرط لوجودها وعندئذ لايعقل بقاؤها .

٣ - صفة المخالفة للحوادث :

معنى مخالفة الله للحوادث - الدليل عليها - رد الشبه

معنى مخالفة الله - تعالى للحوادث : أنه سبحانه وتعالى لا يماثل الحوادث (المخلوقات) لا في ذاته ولا في صفاته فلا تشبه ذاته ذوات الحوادث ولا تشبه صفاته صفات الحوادث :

ومماثلة غير الله له في بعض الصفات إنما هي من حيث التسمية لا من حيث الحقيقة فإذا قيل إن فلانا عالم وحي وموجود مثلا. فالمشابهة من حيث التسمية وحدها . أما حقيقة الصفة فشتان بين علم الله وعلم البشر وقدرة الله وقدرة البشر .

وهذا أمر ينبغي ألا يختلف فيه المرء مع نفسه فمن البين أن تخالف الذات الإلهية غيرها من الذوات المحدثة ومن البداهة كذلك أن يكون هناك بعد أشاسعا بين الخالق والمخلوق ذاتا وصفاتا .

فإذا قيل مثلا إن الله يسمع فليس ذلك بأذن كآذاننا أو يرى فليس ذلك بعين كأعيننا وقد قيل إن يده فوق أيديها فلا يعني هذا أن له جارحة كجوارحنا .

فالعقيدة التي جاء بها الإسلام توضح أن صفات المحدثين وأحوالهم لا يجوز أن تنسب إلى الله فهو - سبحانه وتعالى - غير مخلوقاته .

الدليل على مخالفة الله للحوادث :

نقلا : قوله تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)[1] .

وقوله تعالى (ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)[2] .

---

(١) سورة الشورى ١١ .

(٢) النحل ٦٠

عقلا : لو لم يكن الله مخالفا للحوادث لكان مماثلا لها . ولو كان مماثلا لها لكان حادثا مثلها وكونه حادثا باطل لما ثبت من أنه تعالى قديم وإذا بطل كونه حادثا بطل ما أدى إليه من مماثلته للحوادث وثبتت مخالفة إياها وهو المطلوب

وإذا ثبت أن الله — سبحانه وتعالى — لايشبه الحوادث فما قولنا فيما جاء به القرآن الكريم مما يوحى بالمماثلة . مثل :

قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » .

وقوله تعالى « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

وقوله تعالى « وجاء ربك والملك صفا صفا » .

وقوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » .

وقوله تعالى « ولتصنع على عيني » .

وقوله تعالى « والسموات مطويات بيمينه » ، وغير ذلك .

وكذا قول الرسول — صلى الله عليه وسلم — « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف شاء » .

أقول : كان المتقدمين من علماء الأمة وهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين وقيل هم من كانوا قبل القرن الخامس الهجري وقيل هم من كانوا قبل القرن الثالث الهجري وهم المعبر عنهم باسم السلف رأى

لما كان للعلماء الذين جاءوا بعدهم أى بعد القرن الخامس الهجري أو الثالث الهجري أو عصر الصحابة والتابعين وأتباع التابعين وهم المسمون باسم الخلف رأى آخر نذكر هذين الرأيين مبينين مأخذ هذين الرأيين .

رأى السلف :

ذهب السلف إلى أن المعنى الظاهر غير مراد . يفوضون الله تعالى في تحديد المعنى المراد فمثلا في قوله تعالى « يد الله فوق أيديهم » يقولون لله يد ليست كأيدينا الله أعلم بها ورحمة نظرهم في هذا أن الله سبحانه وتعالى نسب لنفسه

وجها ويدا ورجلا مثلا فالنسبة صحيحة لا محالة لكن لا على المعنى الحقيقى المتبادر إلى الذهن من هذه الألفاظ لوجود مانع هو قوله تعالى (ليس كمثله شيء)

يقول الشيخ محمد الغزالى :

(فإن مفهوم الألوهية حين يعرف الإنسان الطريق إليه وحين إلقاه بقلبه ويستقبله بفطرته - لواضح أشد الوضوح . إذ هو الكمال المطلق الذى يسمح الانسان أن ينطلق إلى مالا نهاية فى السمو والإرتفاع بمقام الذات وكلما إنتهى إلى غاية مد بصره إلى غيرها وهكذا أبدا .

(ليس كمثله شيء) :

وفى هذا المفهوم عاش الصحابة والتابعون - رضوان الله عليهم - لا يسألون ما يد الله ؟ . وما عينه ؟ وما قدرته ؟ وما علمه ؟

فلقد هدوا بفطرتهم ألا جواب لهذه الأسئلة ألا ما يجده المرء فى قلبه وفى كيانه كله من تقديس الله وجلاله ونسبة الكمال المطلق كله إليه :

ولقد هدوا بفطرتهم أيضا إلى أن العقل لا يستطيع أن يدرك كنه صفة من هذه الصفات . ولا أن يمسك بها على آية صورة لن تكون هى أبدا مادام الكمال المطلق هو صفتها) [1] .

ولهذا كان الإمام الشافعى يقول « آمنت بكلام الله على مراد الله وبكلام رسول الله على مراد رسول الله »

رأى الخلف :

ذهب الخلف إلى وجوب تأويل هذه الآيات التى توهم المثلية بتعيين المعنى المراد من النصوص الموهمة للتشابه فمثلا يقولون فى مثل قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » المعنى الظاهر محال إسناده لله تعالى لأنه يتنافى مع قوله « ليس كمثله شيء »

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٥٠ - ٥١

إذن فاليد بمعنى الجارحة المعروفة ليست مرادة إذن ولكن فالمراد إنهم لا يقولون كما يقول السلف يد وليست كأيدينا بل يقولون لا بد من تأويل الاية بما يتناسب مع تقديس الله سبحانه وتعالى . فاليد إذن تؤول بمعنى القدرة وعلى هذا المنوال يقومون بتأويل الايات التى توهم المثلية .

يد الله فوق أيديهم	تؤول إلى	قدرة الله فوق قدرتهم
ويبقى وجه ربك	تؤول إلى	وتبقى ذات الله
وجاء ربك والملك صفاصفا	تؤول إلى	وجاء أمر ربك
الرحمن على العرش استوى	تؤول إلى	الرحمن على العرش استولى
ولتصنع على عينى	تؤول إلى	ولتصنع بحفظى ورعايتى
والسموات مطويات بيمينه	تؤول إلى	والسموات مطويات بقدرته

ومن هنا يتضح لنا أن السلف سلموا حتى لا يشتغل العقل الإسلامى بالبحث المضنى فيما وراء المادة قد رأوه أقصر باعا من ان ينزل ساحة ليس لها بأهل خوفا من أن يضل أو يزل وتركوا الأمر لله مع الإيمان والتسليم والتقديس .

وأن الخلف نزهو الله سبحانه وتعالى وأوا أن هذه الايات واردة على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة لينزهو الله سبحانه وتعالى عن مثل ماتردى فيه اليهود والنصارى من تجسيم زرى .

وكان منشأ أختلاف وجهة نظر هذين المذهبين من أختلافهم فى موطن الوقف فى قوله تعالى :

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذى فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه إبتغاء الفتنة وإبتغاء تأويلة وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنابه كل

من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب)[1] .

فالسلف وقفوا على قوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) .

(والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) أى وما يعلم تأويله الله وحده وأما الراسخون فى العلم فإنهم يسلمون قائلين آمنا بهذا المتشابه على وفق مراده تعالى كل من المحكم والمتشابه من عند ربنا .

وأما الخلف فإنهم يقفون على قوله تعالى والراسخون فى العلم فكأنهم يشركون فى معرفة تأويل هذا المتشابه مع الله الراسخين فى العلم ويقفون هكذا .

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم) .

وعلى هذا فالراسخون فى العلم يشاركون الله فى علم التأويل . ومن هنا فقد أباحوا لأنفسهم تأويل هذه النصوص التى توهم المثلية .

يقول الشيخ محمد الغزالى وهو يدافع عند مذهب السلف .

(إننا نعيش فى عالم مملوء بالحقائق والقوى ولا نعلم أى شىء) .

وهذه فى الدنيا التى نعيش فيها ونلمسها ونزاول شئوننا فيها فكيف بالعوالم الأخرى البعيدة عنا ؟

نقول إن العالم مكون من ذرات ونقول إن الذرة مكونة من ألكترونات أو من نواه وشحنة كهربائية سالبة وموجبة .

ويتغير رأينا فى تكوين الذرة بمعدل مرة فى كل أربع سنوات . ونتبجح فنعمل من الذرة قنابل ذرية ونحن لا نعمل عن حقيقتها شيئاً .

نقول إن الأجسام تسقط لقانون الجاذبية والمصباح يشتعل بالكهرباء ونسخر الكهرباء فى إيجـــاد الحرارة والبرودة والحركة وإيجاد الأمواج واستقبالها .

---

(١) آل عمران : ٨ .

ولكن ما الكهرباء ؟ لا نعلم عن حقيقتها شيئاً وإنما نعلم كيف نستخدم بل الحياة نفسها لم نعرف حقيقتها وإن كانت تسكن فينا وكل ما حولنا لا نعلم حقيقته وإنما نعرف أغراضه) .

ثم يقول : (وكأنه منحنا عقلا ليس من طبيعته أن يعرف شيئاً عن الحقائق وكل الذى يعرفه الإنسان ـ لو كان ذكيا ـ أن يوجه سلوكه فى الحياة حسب طبائع الأشياء وحقائقها .

ولذلك أنصف أصحاب مذهب « البراجماتزم » إذ أنكروا قدرة العقل على معرفة الحقيقة وقصروه على معرفة الوسائل للغايات) [1] .

٤ — القيام بالنفس :

معناها ـ والدليل عليها .

معنى قيامه ـ سبحانه وتعالى بنفسه أنه مستغن عما سواه استغناء تاما .

فهو سبحانه وتعالى غير محتاج إلى من عداه حيث يحتاج إليه من عداه .

يقول الشيخ محمد الغزالى وهو يحدد معنى الغنى المطلق لله :

(الله سبحانه وتعالى واسع الغنى وليست سمة غناه راجعة إلى أنه يملك هذا العالم بسماواته وأرضه . وما حوى من معادن نفيسة وعناصر غالية ولا لأنه يملك عددا لا يحصى من الجن والإنس والملائكة لا لا .

فالغنى الإلهى أسمى من ذلك وأمجد !

إننا نعتبر الرجل غنيا لأنه يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة أو لأنه يحكم الألوف المؤلفة من الناس .

فإذا فقد ذلك لم يصبح على شىء من الغنى إذا انهارت الدعائم التى يقوم عليها .

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٥٤ ـ ٥٥

وقد يكون الملكوت الواجب الذى نعرف أقله ونجهل أكثره مظهرا للغنى الإلهى العظيم . لكن الله عز وجل يستطيع أن يفنى ذلك أجمع ولا ينقص غناه المطلق شيئاً البتة ويبقى دائماً بنفسه مستغنيا عن خلقه مستكملا نعوت قداسته) .

ثم يقول : (فالمخلوقات جليلها ودقيقها يقوم بالله عز وجل أما الله فقائم بنفسه مستغن بذاته عمن سواه)[1] .

الدليل عليها :

نقلا : قوله تعالى (ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد)[2] .

وقوله تعالى فى حديثه القدسى (ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً .

ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً) .

عقلا : لو كان سبحانه وتعالى محتاجا إلى غيره لما كان واجب الوجود لذاته ولو لم يكن واجب الوجود لكان حادثاً ولكان ممكنا وهذا باطل بالدليل فثبت إذن أنه واجب الوجود لذاته وأنه بالتالى غير محتاج إلى من وما سواه وهو المطلوب .

• الوحدانية :

• معناها . الدليل عليها • من رشح للألوهية غير الله ورفض القرآن له • المخالفون فى الوحدانية • شبهم • وردها .

---

(١) النصان من كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص٥٨ - ٥٩ .

(١) فاطرة : ١٦ .

* معنى الوحدانية :

هو عدم التعدد فى الذات أو الصفات أو الأفعال . فالله سبحانه وتعالى واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله .

ولكن ما معنى وحدة الذات والصفات والأفعال ؟

معنى وحدة الذات :

أولا : أنه سبحانه وتعالى واحد لاشريك له ولاند ولا شبيه ولا مثيل .

هو إله واحد لا يشاركه فى ألوهيته مشارك ولا يقاسمه فيها مقاسم .

ثانياً أن ذاته ليست مركبة من أجزاء فيكون سبحانه وتعالى محتاجا إلى هذه الأجزاء التى تركب منها .

فذاته سبحانه وتعالى واحدة وحدة مطلقة : فلاند لها ولا شبيه كما أنها واحدة فى ذاتها بمعنى أنها ليست مركبة من أجزاء .

ومعنى وحدة الصفات :

أولا : أن صفة الحادث لا تشبه صفته سبحانه وتعالى قد تتفق مع صفة الحادث فى التسمية ولكن الحقيقة بينهما متفاوتة فقد يتصف فلان ما من الناس بالعلم مثلا فى الوقت الذى أتصف فيه البارى سبحانه وتعالى بهذه الصفة فالإتفاق بينهما إذن فى التسمية أما الحقيقة والجوهر فشتان بين علم البشر الذى مهما كثر وأتسع فهو قليل حتى فى مجال التخصص وبين علم الله سبحانه وتعالى الشامل المحيط وصدق الله العظيم : إذ يقول :(الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال) [1] .

كما أن هناك فرقاً شاسعاً بين صفة البشر التى تحتاج إلى آلة لتحصيلها

---

(١) الرعد ٨ - ٩ .

فالسمع مثلا يحتاج إلى أذن قابلة للسقم والعافيه : لكن هذه الصفة مطلقة على الله ـ سبحانه وتعالى فإنها لاتحتاج إلى آلة لتحصيلها .

ثانياً : عدم وجود صفتين لله سبحانه وتعالى من جنس واحد .

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قادرة بقدرة واحدة لا بقدرتين مريد بإرادة واحدة لا بإرادتين وهكذا فالصفة الواحدة لا تتعدد أبدا .

ومعنى وحدة الأفعال :

أنه سبحانه وتعالى هو الفاعل الحقيقى فليس لأحد غيره فعل من الأفعال .

فهو الخالق فلا خالق غيره وهو الرازق حيث لا رازق سواه وهو المحيي وهو المميت وهو على كل شيء قدير : وأنه وحده المستقل بالإيجاد الإبداع .

ومن هنا يتضح لنا أن عقيدة الإسلام تهتف بالإنسان فى كل لحظة وطيفة أنه ليس لهذا الكون إلا إلهاً واحدا وأن ما سواه عبد له .

يقول الله تعالى : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)[1] .

• الدليل عليها :

يفرق الباحثون بين الواحد والأحد وبين الوحدانية والأحدية .

فالواحدية : معناها ـ عدم تعدد أفراد الذات فهو واحد لا إله غيره .

والأحدية : معناها ـ عدم تركب الذات من أجزاء .

ولقد أقام المتكلمون أدلة عدة على الأحدية ثم على الواحدية نوجز منها ما يلى :

الدليل على الأحدية :

أقام الباحثون أدلة عدة على أحديته تعالى نذكر منها :

---

(١) مريم ٩٣ ـ ٩٤ ـ ٩٥ .

الدليل العقلى :

أنه سبحانه وتعالى لو كان مركبا من أجزاء لكان محتاجا إلى هذه الأجزاء التى تركب منها لأن المركب محتاج إلى أجزائه فى تكوين ماهيته .

وقد نفينا بالدليـــل احتياجه وأثبتنا أنه مستغن عمن سواه . وأنه قائم بنفسه .

الدليل النقلى :

قوله تعالى [قل هو الله أحد] .

* أدلة الواحدنية . بمعنى عدم تعدد الذات :

أقام الباحثون أدلة عقلية ونقلية على وحدانية الله سبحانه وتعالى نوجز بعضها فيما يلى .

الدليل النقلى :

لقد أقام القرآن الكريم أدلة عـــدة على وحدانية الله سبحانه وتعالى نذكر منها .

(ا) قوله تعالى « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون »(١) .

ذلك لأن انفصال الولد عن الله سبحانه يقضى وجود مماثل له سبحانه وتعالى وهذا محال لأنه ليس كمثله شيء والولد كأبيه .

وقوله تعالى (ولعلا بعضهم على بعض) أى لحاول بعضهم أن يستولى على مقدرات الآخر فقامت بسبب ذلك الحروب التى تؤدى إلى فساد العالم لا إلى إبداعه وأحكامه . فوجوده إذن وعلى هذا النظام العجيب وتدبير دليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى .

---

(١) المؤ

(ب) (قل لو كان معه آلهه كما يقولون إذن لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا)[١] .

(ج) (لو كان فيهما آلهه إلا الله لفسدتا)[٢] .

لو كان فيهما أى فى السموات والأرض آلهه لمـــا كان بهذا النظام البديع خلقاً وتدبيرا .

الدليل العقلى :

للتكلمين على الوحدانية بمعنى عدم التعدد فى الذات أدلتهم كما أن للحكماء أدلتهم نذكرها لا سبيل الحصر بل على سبيل الإشاره .

١ — المتكلمون :

للمتكلمين على الوحدانية بمعنى عدم تعدد الذات أدلة عدة نذكر منها .

(أ) لو وجدا الهان فأما أن يتفقا وأما أن يختلفا واتفاقهما واختلافهما يؤدى إلى عدم وجود السموات والأرض . لكن عدم وجودهما باطل فبطل ماأدى إليه من وجد الهين فأكثر وثبت نقيضه وهو وجود إله واحد لاشريك له وهو المطلوب .

وبيان هذا الدليل :

أنه لو وجد الهان فأما أن يختلفا وأما أن يتفقا : ـ

فإذا اختلفا بأنه أراد أحدهما إيجاد شىء والآخر إعدامة ـ فأما أن ينفذ مرادهما معا ليلزم اجتماع النقيضين فيكون الشىء موجودا معدوما فى آن واحد وهو باطل . وأما أن لاينفذ مرادهما معا . فيلزم من ذلك عجزهما معا وعجز الإله محال .

---

(١) الإسراء ٤٢ ـ ٤٣ .
(٢) الأنبياء ٢٢ .

وأما أن ينفذ مراد واحد منهما دون الاخر فيلزم عجز من لم ينفذ مراده والاخر مثله فيلزم عجزه هـــو الاخر أيضاً . أونقول أن الذى نفذ مراده هو الإله .

وأن اتفقا فأما أن يتفقا على إيجاد الشىء معا بأن يكون كل جزء فيه واقعا بقدرتهما معا وهو باطل لما يلزم من اجتماع مؤثرين على أثر واحد وهو باطل وأما أن يتفقا على أن يوجده أحدهما أولا ثم يوجده الثانى بعد ذلك فيلزم تحصيل الحاصل (بمعنى إيجاد الموجود) وهذا باطل كذلك فيبطل ما يؤدى إليه من وجود الهين خلقا العالم ودبرا أمره بالشيوع .

وأما أن يتفقا على أن يوجد أحدهما البعض يوجد الثانى البعض الآخر . وهذا باطل أيضاً لما يلى :

أولا : إذا أوجد أحدهما البعض فإن بقى الآخر قادراً عليه كان ذلك محالا لإستحالة إيجاد الموجود وأن لم يبق قادراً فحينئذ يكون الذى أوجد هذا البعض قد سد على الآخر طريق تعلق قدرته به فلا يقدر على مخالفته فيكون مقهوراً مغلوبا تحت تصرفه فلا يكون إلها .

وحيث أننا فرضنا أنهما قد أتفقا على أن يوجد أحدهما البعض ويوجد الثانى البعض الآخر فما قيل فى الأول يقال فى الثانى بالنسبة للبعض الآخر أى أنه إذا أوجد الثانى البعض الآخر فإن بقى الأول قادراً عليه كان ذلك محالا لأنه يؤدى إلى تحصيل الحاصل المحال وأن لم يبق قادراً عليه يكون الثانى قد سد عليه طريق تعلق قدرته به فأصبح لا يقدر على مخالفته فيكون هو الآخر مقهوراً مغلوباً كالأول تماماً . فيثبت لهما معا أما تحصيل الحاصل وأما العجز وكلاهما محال فيستحيل ما يؤدى إليه من وجود إلهين متفقين فى خلق هذا العالم بالتقسيم .

ثانيا : أن أختصاص أحدهما بالبعض دون الآخر تخصيص من غير مخصص لأنه ليس أختصاص أحدهما بالبعض أولى من أختصاص الآخر به فإن كان

هناك مخصص آخر غيرهما خص كلا منهما بما اختص به لزم أنه حاكم عليهما وأنهما عاجزان وأن كان التخصص باختيارهما جاز لكل منهما أن يترك هذا البعض الذى اختص به ويتصرف فى مقدور الآخر .

لأن الفاعل بالاختيار هو الذى يتأتى منه الفعل والترك : لكن جواز ترك أحدهما فعله وتصرفه فى مقدور الآخر باطل فالتخصص باختيارهما محال . فاستحال ما أدى إليـــه من وجود إلهين خالقين للعالم مدبرين لشئونه بالتقسيم والاتفاق .

هذا ويجب أن نذكر هنا أن فرض الاتفاق إنما هو تجويز عقلى فى بادىء الأمر أما عند النظر العميق فإنه لا يمكن الاتفاق بين الإلهين أبداً بل لا بد من الاختلاف بينهما فلا يوجد شىء من العالم كما يوضح ذلك القرآن الكريم حين يقول :

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) أى لم توجد السموات والأرض ذلك لأن مرتبة الألوهية تقتضى التفرد بالسلطات المطلق والغلبة التامة والسيطرة على كل شىء فلو فرض إلهان متصفان بصفات الألوهية التى هذا شأنها لما أمكن اتفاق بينهما بل لا بد من التنازع والتغالب بينهما ضرورة أن كلا منهما تام القدرة والإرادة والعلم وإرادتهما صالحة لأن تتعلق بكل الممكنات فيصطرعان ويدافع كل منهما عن عظمته وسلطاته فلا يوجد شىء من السموات والأرض نتيجة لهذا التصادم والتصارع .

وهذه الحقيقة الواضحة بينها القرآن الكريم فى أكثر من آية فيقول :

(ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) .

وبذلك يتضح لنا ما ذهبنا إليه (من أنه لو وجد إلهان لما وجدت السموات والأرض لكن عدم وجود للسموات والأرض باطل لمشاهدتهما إذن فتعدد

الالهة الموصل لعدم وجود السموات والأرض باطل فثبتت الوحدانية هو المطلوب .

(ب) لو كان هناك إلهان لـكان أحد الالهة ناقصا . ولـكن كونه ناقصا باطل فبطل ما أدى إليه من وجود إلهين وثبت أنه واحد وهو المطلوب :

وبيان ذلك لو فرضنا إلهين مثلا لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للاخر فى ألوهيته ولاجل تحقيق معنى التعدد وتميز كل منهما عن الاخر يجب أن يوجد فى كل منهما من الأوصاف ما به يتميز عن الاخر فهذا الذى حصل به التمايز أما أن يكون صفة كمال .

أولا : فإن كان صفة كمال فإن الخالى منه يكون ناقصا فلا يكون إلها وإن لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون كمالا فيـكون ناقصا فلا يكون إلها .

فيثبت إذن أن التعدد محال . ويثبت نقيضه وهو إتصافه تعالى بالوحدانية وهو المطلوب .

(ج) لو فرض أن للعالم إلهين . فأما أن لا يكون أحدهما كافيا لإيجاد العالم وتدبير شئونه . أو يكون أحدهما كافيا لإيجاد العالم وتدبير شئونه .

وكون أحدهما لا يكفى فى إيجاد العالم وتدبير شئونه بمعنى أن العالم لا يوجد إلا بهما معا يثبت أن كلا منهما محتاج للاخر والمحتاج لا يصلح أن يكون إلها .

وعلى كون أحدهما كافيا لإيجاد العالم وتدبير شئونه فإن الثانى يصبح غير محتاج إليه الأمر الذى يؤدى إلى لزوم عدم وجوب وجوده لأن وجوب الوجود إنما يثبت للاله ضرورة لتوقف وجود الحوادث عليه لئلا يلزم الدور أو التسلسل لو كان وجوده جائزاً .

فلو فرضنا إلها لا يتوقف وجود الحوادث عليه لم يثبت وجوب الوجود له لأنه لو فرض عدمه يكون وجود الحوادث حاصلا بالإله الواجب الوجود

وحيث ثبت الاستغناء عنه فلا يكون إلها .

وإذا ثبت بطلان وجود إلهين محتاج إلى كليهما فى إيجاد العالم أو أحدهما كاف فى إيجاد العالم ثبت بطلان التعدد . وثبتت ببطلان التعدد الوحدانية . وهو المطلوب .

يقول الدكتور / محمد يوسف موسى وهو يدلل على وحدانية الله — سبحانه وتعالى .

(وذلك لأننا فرضنا وجود أكثر من إله كان لابد أن يكون لكل منهم من العلم والإرادة والقدرة مايخالف بداهة ما للاخر من هذه الصفات ،

وهذا يكون من شأنه أن يؤدى إلى الإختلاف فى الأفعال وتدبير العالم ومن ثم يكون لابد من فساد السموات والأرض وما بينهما .

بل قد يؤدى إلى عدم وجود هذا العالم بسبب التضارب بين هذه الصفات التى تثبت لكل منهم وما يكون عنها من الاثار . ولكن العالم بجميع أجزائه موجود على أحسن نظام فلابد أن يكون خالقه وموجده إلهـــاً واحد لاشريك له) [1] .

ويقول الدكتور / سيد عبد التواب :

(إن التفرد هو السمة الأساسية فى الألوهية فإذا حصل التعدد حصل التنازع وإذا حصل التنازع اختل نظام الكون أو لم يوجد الكون أصلا، لكن المشاهد أن الكون موجود وجوداً فى غاية الإتقان والأحكام إذن الله واحد لا إله غيره) [2] .

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور / محمد يوسف موسى ص ٩٤

(٢) العقيدة الدينية فى ضوء القرآن الكريم للدكتور / سيد عبد التواب ص ٦٦ .

• من رشح للألوهية غير الله ورفض القرآن له :

إذا ما حاولنا أن نستقرىء هذه الالهة التى نصبها المفترون وأقامها المبطلون شريكاً لله فى ألوهيته المنفرد بها تبين لنا أن أى واحد منها لا يصلح ترشيحه للألوهية مما يثبت ألا إله إلا الله. تلك الحقيقة التى أفرغها الإسلام أول ما أفرغ من حقائق .

يقول الشيخ محمد الغزالى :

(وإذا أستقرأنا ما توهمهم الناس شركاء لله فى الوهية لم نجد أحداً من هؤلاء الشركاء الموزعومين ترشحه حالته ليكون فى هذا الوجود شيئاً طائلا .

لقد عبد القدماء أحجاراً اقتطعوها من سطح الأرض فهل يصح فى خلد عاقل - أن حجراً من الأرض بل الأرض كلها - تصلح لأن تكون إلهاً . ؟

وعبدوا صنفا من الحيوان وقدسوا نسله كما يفعل الهندوك إلى اليوم فهل هناك عجل — مهما زاد لحمه وشحمه — يصلح لمنصب الألوهية ؟

فما الذى يوضع فى أطباق الآكلين :

إن الوثنيين سفهوا أنفسهم عندما هووا بها إلى هذا الدرك !

وقد أدعى بعض الناس الألوهية لنفسه كفرعون حاكم مصر وكهـــذا (الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت) « البقرة ٢٥٨ » .

فظن هذا المغفل أن السلطة المطلقة التى يستمتع بها والتى تجعله يقتل من الرعية ما يشاء ويبقى ما يشاء ظن ذلك مسوغ الطموح لمنصب الألوهية .

وهذا الظن يبقى فى رأس صاحبه حتى يقطعه جمهور الثوار ويرمون به الأقذار .

وبعض الدهماء من اليهود والنصارى ضلوا فى فهم أنبيائهم ورفعوهم إلى

وحيث ثبت الاستغناء عنه فلا يكون إلها .

وإذا ثبت بطلان وجود إلهين محتاج إلى كليهما فى إيجاد العالم أو أحدهما كاف فى إيجاد العالم ثبت بطلان التعدد . وثبت ببطلان التعدد الوحدانية . وهو المطلوب .

يقول الدكتور / محمد يوسف موسى وهو يدلل على وحدانية الله — سبحانه وتعالى .

(وذلك لأننا فرضنا وجود أكثر من إله كان لا بد أن يكون لكل منهم من العلم والإرادة والقدرة ما يخالف بداهة ما للآخر من هذه الصفات ،

وهذا يكون من شأنه أن يؤدى إلى الإختلاف فى الأفعال وتدبير العالم ومن ثم يكون لا بد من فساد السموات والأرض وما بينهما .

بل قد يؤدى إلى عدم وجود هذا العالم بسبب التضارب بين هذه الصفات التى تثبت لكل منهم وما يكون عنها من الآثار . ولكن العالم بجميع أجزائه موجود على أحسن نظام فلا بد أن يكون خالقه وموجده إلهـــا واحد لا شريك له) [1] .

ويقول الدكتور / سيد عبد التواب :

(إن التفرد هو السمة الأساسية فى الألوهية فإذا حصل التعدد حصل التنازع وإذا حصل التنازع اختل نظام الكون أو لم يوجد الكون أصلا ، لكن المشاهد أن الكون موجود وجوداً فى غاية الإتقان والأحكام إذن الله واحد لا إله غيره) [2] .

---

(١) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه للدكتور / محمد يوسف موسى ص ٩٤

(٢) العقيدة الدينية فى ضوء القرآن الكريم للدكتور / سيد عبد التواب ص ٦٦ .

• من رشح للألوهية غير الله ورفض القرآن له :

إذا ما حاولنا أن نستقرىء هذه الالهة التى نصبها المفترون وأقامها المبطلون شريكة لله فى ألوهيته المنفرد بها تبين لنا أن أى واحد منها لا يصلح ترشيحه للألوهية بما يثبت ألا إله إلا الله. تلك الحقيقة التى أفرغها الإسلام أول ما أفرغ من حقائق .

يقول الشيخ محمد الغزالى :

(وإذا أستقرأنا ماتوهمهم الناس شركاء لله فى ألوهية لم نجد أحداً من هؤلاء الشركاء الموزعومين ترشحه حالته ليكون فى هذا الوجود شيئاً طائلا .

لقد عبد القدماء أحجاراً اقتطعوها من سطح الأرض فهل يصح فى خلد عاقل – أن حجراً من الأرض بل الأرض كلها – تصلح لأن تكون إلهاً . ؟

وعبدوا صنفا من الحيوان وقدسوا نسله كما يفعل الهندوك إلى اليوم فهل هناك عجل — مها زاد لحمه وشحمه — يصلح لمنصب الألوهية ؟

فما الذى يوضع فى أطباق الآكلين :

إن الوثنيين سفهوا أنفسهم عندما هووا بها إلى هذا الدرك !

وقد أدعى بعض الناس الألوهية لنفسه كفرعون حاكم مصر وكهـــذا (الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت) « البقرة ٢٥٨ » .

فظن هذا المغفل أن السلطة المطلقة التى يستمتع بها والتى تجعله يقتل من الرعية ما يشاء ويبقى ما يشاء ظن ذلك مسوغ الطموح لمنصب الألوهية .

وهذا الظن يبقى فى رأس صاحبه حتى يقطعه جمهور الثوار ويرمون به الأقذار .

وبعض القدماء من اليهود والنصارى ضلوا فى فهم أنبيائهم ورفعوهم إلى

مصاف الالهة مع أن هؤلاء المرسلين ليسوا إلا عبيد موهوبين وقد كذبوا[1] بهذا على أنفسهم وعلى الواقع .

فمن الحماقة أن تظن فى بشر مهما علا شأنه أنه خلق كوكبا من الكواكب .
ولماذا نذهب بعيداً ؟ إن أحدهم لم يخلق ذبابة أو مادونها . فكيف يعد إلها من يعجز عن أى خلق ؟

بل إن جرثومة من آلاف الجراثيم التى تكمن فى بطن ذبابة لو سلبت أحدهم صحته ماقدر على ردها ! ! فمن أين بعد هذا ينسب إلى الألوهية ؟)[2] .

وبهذا يتضح لنا أن من أقاموا أنفسهم أونصبهم غيرهم شركاء الله فى ألوهيته : ينحصر فى هذه الأنواع :

١ — بشر أبرياء كبعض الأنبياء مثلا اتهموا وهم يرفضون ما نسبه إليهم البشر الضالون لأنهم يعتقدون أعتقاداً صحيحاً بل هم أئمة هذا الاعتقاد وسفراءه إلى عباد الله أن لا إله إلا الله رب العالمين — فهو إله واحد لا نده ولا شبيه ولا مثيل .

٢ — ملائكة لا يفترون عن عبادة الله لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون : فهم أبرياء مما نسب إليهم هؤلاء المزورون من ألوهية لأن أعتقادهم لا يهتز لحظة واحدة فى وحدانية الله وأحديته .

ولقــــد رد القرآن الكريم فرية هذين الصنفين المؤلهين لبعض الأنبياء والملائكة فقال لهذين الصنفين الجائرين .

(إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين)[3] .

---

(١) يقصد بمن كذبوا ـ الدهماء .
(٢) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٣) الأعراف ١٩٥ .

٣ ـ حكام سفلة تطاولوا بأنفسهم إن ماتقصر عنه وتتضاءل دونه كبعض فراعنة النيل وأشباههم . من الذى حاج إبراهيم فى ربه .

ولقد رد القرآن على هذا الصنف بما حكاه من قصة الذى حاج إبراهيم فى ربه فقال :

(ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين)[١]

٤ ـ حيوانات لا تعى ولا تعقل كالأبقار التى قدسها بعض الهنود .

وقد رد القرآن الكريم على الصنف فقال .

(إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم يوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير)[٢].

٥ ـ مخلوقات لا تعقل ولا تحس كالأحجار التى عبدها الوثنيون من دون الله .

ولقد رد القرآن على هذا الصنف فقال لهم على سبيل التبكيت والاستهزاء (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها)[٣] .

وبعد أن يبطل القرآن الكريم زعمهم بوجود مشارك لله فى ملكه وألوهيته يلفت النظر إلى ما أبدعه يد الصانع وكأنه يسأل هؤلاء الواهمين الكافرين فيقول لهم هل هناك مشارك لله فى خلق العالم وأبداعه ومده بما فيه بقاؤه فيقول:

---

(١) البقرة ٢٥٨ .

(٢) فاطر ١٤ .

(٣) الأعراف ١٩٤ .

(أمن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلا ماتذكرون . أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أ إله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (١) .

ومع وضوح هذه الأدلة التى سقناها والتى تعتبر طرفاً متواضعاً مما ذكر عن وحدانية الله فإن هناك فرقاً من البشر تنكر وحدانيته رأينا من واجبنا أن نذكر آراءهم ثم نرد عليها فى عجالة تناسب مانحن بصدده .

• المخالفون فى الوحدانية شبههم وردها .

بعد أن أثبتنا بالدليل القاطع أن الله واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله فإنه يتعين علينا أن نعرف من تنكر لوحدانية الله وعارض فيها ثم ماهى شبههم وكيف نرد عليها .

فقد ذكر الباحثون أن المخالفين فى الوحدانية طوائف ثلاث :

الطائفة الأولى : عبدة الأوثان .

الطائفة الثانية : الثنوية

الطائفة الثالثة : بعض طوائف النصارى

وسنتناول بشىء من التفصيل عقيدة كل طائفة من هذه الطوائف الثلاث ثم نرد عليها .

---

(١) النمل من ٦٠ - ٦٤

(أ) عبدة الأوثان :

كانت عبادة هذه الطائفة للأوثان لا تخرج عن طرق أربعة اختار كل طريق من طرقها الأربعة فريق من الوثنيين رآه بزعمه هو الطريق الأمثل للعقيدة الحقة .

ولما كانت هذه الطرق الأربعة فى عقيدتنا نحن المسلمين شركا ينتافى مع التوحيد الذى جاء به الإسلام فإننا سنذكر كل طريق من هذه مشفوعا بما يرده .

١ — الفريق الأول من الوثنيين .

يرى هـــذا الفريق من الوثنيين أن الكواكب يترتب على ظهورها ووصول أشعتها إلى العالم السفلى مايعود على الإنسان والحيوان والنبات بالنفع والخير فاعتقد مخطئا فى اعتقاده أن هذه الكواكب تؤثر بذاتها وأنها مصدر لهذا النفع وصاحبة لهذا الأثر الذى تمتد يده له بالبر والخير فأوجب على نفسه عبادتها حين اعتقد تأثيرها فى حياته وبقائه .

فلما رأى أن هذه الكواكب تأفل فى بعض الأحيان ولا تشاهد فى بعض آخر عندما يحدث مايحول بينه وبين رؤيتها ولما كانت حاجته إليها مستمرة صباح مساء لأنها باعتبار نظرته لها مصدر خيره — صنع أصناما وتماثيل لها لتكون فى متناول يده يناجيها ويعبدها حين تأفل الكواكب أو تخفى عن ناظريه فى وقت يدعوها فيه .

فعبد الأصنام التى هى على شاكلة الكواكب واعتقد أثرها مع الله — سبحانه وتعالى — فى تصريف مقاليد الكون : وبذلك فقد أشرك مع الله غيره فى هيمنته على هذا الكون وملكه له .

الرد على هذا الفريق من الوثنيين :

يرد هذا المذهب من مذاهب الوثنيين فى الشرك بعدة ردود .

(أ) أثبتنا أن المؤثر الحقيقي في جميع الموجودات هو الله — سبحانه وتعالى — دون سواه وأقمنا على ذلك من الأدلة في حينها ما يجعلنا نحجم الآن عن تكرارها[1].

إذن فلا أثر لما توهمه هؤلاء المخدوعون بالكواكب من أثر لها تشارك به أو تنفرد في إبراز هـــذه الموجودات من إنسان وحيوان ونبات — وإبداعها.

(ب) أن تأثير الكواكب من قبيل ربط الشيء بالشيء أو السبب بالمسبب فقط وليس تأثيراً في إيجاد الشيء فيكون السبب الحقيقي في إيجاد الشيء وإبرازه حتى يكون موجدا أو مشاركا للموجد فينصب إلها مع الله أو زلفى له كما يتوهم هؤلاء.

وربط الشيء بالشيء أو السبب بالمسبب هو ما يسمى في المتكلمين والمناطقة بالسبب العادي.

(جـ) لو قلنا أن السبب العادي الذي هو مجرد الربط هو المؤثر الحقيقي كما يزعم: لما دخلت الآلهة تحت الحصر. ذلك لأن الأسباب العادية التي تربط بين الأسباب ومسبباتها لا تقع الحصر:

فالنبات مثلا محتاج في استنباته ونموه واستوائه على سوقه إلى الله ولذلك يقول القرآن الكريم:

(أفرأيتم ما تحرثون: أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)[2].

وهناك أسباب عادية أخرى هي الماء والتربة الصالحة و. و. الخ

فلو قلنا إن هذه الأسباب العادية آلهة خالقة مبدعة لمـــا وقعت الآلهة تحت حصر.

---

(١) نعني بذلك ما ذكرناه من أدلة على وحدانية الله. (٢) الواقعة ٦٣-٦٤

وإلى هنا يتضح لنا أن المؤثر الحقيقى هو الله ـ سبحانه وتعالى وأن ماعداه لا تأثير له فهو سبب عادى على أن الكواكب لو اتخذت آلهة لتأثيرها فى الكون لتعددت آلهة الكون المؤثرة من هذه الناحية وهذا باطل .

٢ — الفريق الثانى من الوثنيين :

أصحاب هذا الطريق من الوثنيين هم المعروفون بأصحاب الطلاسم . الذين يترصدون الوقت الصالح للعمل النافع .

فقد رأى أصحاب هذا المذهب ـ بزعمهم أن هناك كوكبا يظهر فى ذلك الوقت الذى يرونه صالحا للعمل النافع . فاعتقدوا أن هذا الكوكب مصدر للأعمال الصالحة النافعة فعبدوه .

ولكن هذا الكوكب قد يبحثون عنه فلا يجدونه لأفوله أو اختفائه فصنعوا صنما كتمثال لهذا الكوكب المعبود ليرجعوا إليه فى عباداتهم عند غياب هذا الكوكب فعبدوا الصنم وقربوا له القرابين اعتقاداً منهم أنه يضر وينفع لأن تمثال الكوكب الذى يوجد الأعمال النافعة .

الرد على هذا الفريق من الوثنيين :

يرد على هذا الفريق من الوثنيين بما قلناه سلفا لأصحاب الفريق الأول من أن المؤثر هو الله ولا تأثير لما سواه وأن ارتباط الكوكب هذا بالعمل النافع إرتباط عادى لا تأثير له .

٣ — الفريق الثالث من الوثنيين :

أصحاب هذا المذهب من الوثنيين كان يعتقد أن الإله الأعظم نور وغاية فى العظمة والإشراق وأن الملائكة أنوار تختلف بالصغر والكبر فأتخذ صنما عظيما وبالغ فى تحسينه حتى وضع عليه يواقيت وجواهر كثيرة وجعله مثالا للاله ثم اتخذ أصناما أخرى تختلف من حيث الكبر والصغر لتكون

مثالا للملائكة : وكان يعبد هذه الأصنام لأنها مثالا للمعبود الأصلى .

الرد على هذا الفريق من الوثنيين :

يرد على هذا المذهب من الوثنيين بما يلى :

(ا) أن كون الملائكة من نور أو كونهم أجساما نورانية ليس مدعاة لعبادتهم . فليس النور هو المقتضى للعبادة وإلا لما انفردت الملائكة بالعبادة .

(ب) لا يلزم أن يكون الإله مشاهدا حتى يحتاج عند احتجابه إلى تمثا ينوب عنه فى المعبودية .

(جـ) أن الصنم لا يتقرب به إلى الله زلفى ولا يصح أن يمثل الله به فيعبد الصنم نائبا عنه .

٤ — الفريق الرابع من الوثنيين :

أصحاب هذا المذهب من الوثنيين كانوا يعتقدون أن الإله عظيم بلغت عظمته حدا جعلت الإنسان لا يصلح عابدا له فالإنسان يخطىء بقدر مايصيب وتتلوث قدمه بأديم هذا الثرى الذى نعيش عليه مخالطين معاشرين . وإنما الذى يصلح لعبادة الله المقدس المنزه فهم الملائكة . لأنهم لا يخطئون أصلا.

فجعلوا الملائكة وحدهم هم عباد الله دون غيرهم لأنهم . وهم المطهرون من الذنب هم الذين يصلحون لهذه العبادة . ثم جعلوا الإنسان عبدا للملائكة وليس عبدا لله : فعبدوا الملائكة ثم صنعوا أصناماً لتكون صورا للملائكة فعبدوها من دون الله .

الرد على هذا الفريق من الوثنيين :

يرد على أصحاب هذا المذهب من الوثنيين بما يلى .

١ — إن الملائكة لاتصلح لأن تكون آلهة لأنها مشتركة معنا فى العبودية لله فهم عباد مثلنا ولا فارق بيننا وبينهم إلا أن الإنسان غير

معصوم والملك معصوم . على أن الملائكة أنفسهم يتبرأون مما ينسبه إليهم هؤلاء المفترون .

٢ — إن أصحاب هذا المذهب من الوثنيين جعلوا الملائكة آلهة للإنسان وعبادا لله وهذا لا يتناسب ومقام الألوهية فالإله يخضع له من سواه ولا يخضع هو لسواه :

فلو كان الملائكة إلها كما يزعم هؤلاء المبطلون ما كانوا عبادا لله وهذا يتنافى مع حقيقة الملائكة الذين هم عباد الله الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فهم إذن ليسوا إلها أو آلهة .

٣ — إن وجود النقص فى العابد مع الكمال المطلق فى المعبود سمة من السمات الكثيرة التى تقتضيها الألوهية . ومن هنا فلا حرج أن يكون هذا العبد المخطىء المصيب الذى يحى على هذا الثرى عبدا لله المنزه المقدس المتصف بصفات الجلال والكمال والمنزه عن كل نقص . فلو كان العبد مماثلا للمعبود — سبحانه وتعالى — فى الكمال لما صح هذا العبد أن يكون عابداً أصلا .

ومن هنا فلا حرج أن يكون العبد الناقص عابدا لله الكامل المتنزه عن أى نقص .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من الحديث على الطائفة الأولى من الطوائف الثلاثة اللائى خالفن فى وحدانية الله — سبحانه وتعالى — وهى طائفة الوثنيين .

(ب) الثنوية (المجوس) :

أصحاب هذه العقيدة يرون أن للعالم فاعلين أحدهما : الله — سبحانه وتعالى — فهو فاعل الخير وخالق الحيوان النافع — والثانى : الشيطان وهو فاعل الشر وخالق الحيوان الضار .

ولقد اتفقت هذه الطائفة على أن الله — تعالى — قديم ولكنهم قالوا إنه

جسم واختلفوا فى الشيطان فقال بعضهم إنه قديم وقال البعض الآخر إنه حادث واختلف هذا البعض فى سبب حدوثه فقيل .

إن الله تعالى لما تفكر فى أنه يجوز خروج ضد عليه يعارضه فى أمره استوحش فتولد من وحشته أبليس وهو فاعل الشر .

وقيل إن الله شك فى خروج ضده عليه فتولد من هذا الشك إبليس .

وقيل غير ذلك : تعالى الله عما يقول هؤلاء الجاحدون المزورون علواً كبيراً . وللمجوس على مذهبهم هذا شبها واهية أقربها إلى الإشتباه هى قولهم : إن فاعل الشر شرير وفاعل الخير خير والواحد لا يكون خيراً شريراً فوجب أن يكون الإله متعدداً .

وترد هذه الشبهة :

كلمتا : الخير والشرير تحتمل هذين المعنيين :

(ا) الخير هو مصدر الخير الكثير والشرير هو مصدر الشر الكثير . وعلى هذا التعريف فلاحاجة بنا إلى التعدد حيث أنه لامانع أن يكون الواحد مصدراً للخير الكثير بقدر ماهو مصدر للشر الكثير إذ ليس فى هذا ماينتافى مع الوحدانية كما يزعم هؤلاء المجوس بل إن هذا واقع فى حياتنا اليومية ويصدر من الواحد منا .

إن فليس صدور الخير والشر من الواحد مستحيلا حتى يؤدى إلى التعدد كما يزعمون بل إن التعدد محال لما أوردنا من أدلة على الوحدانية .

(ب) الخير من يغلب خيره شره والشرير من يغلب شره خيره . ولاشك أن من أعمال الخير دفع الشر : وبذلك فإن الخير إما أن يكون قادراً على دفع الشر أو لا .

فإن كان قادراً على دفع الشر وتعلقت قدرته به عطل على إله الشر عمله فلا يكون إلها .

وإن لم يكن قادراً على دفع الشر كان عاجزاً والعجز لايتناسب ومقام الألوهية فلا يكون إلها . . لكنكم أثبتم أنه إله : فهو إذن قادر وحدة على دفع الشر ولا حاجة إلى التعدد[1] .

(ج) بعض طوائف النصارى :

سنكتفى هنا بما ذكره الشيخ أبو دقيقة[2] نقلا عن صاحب كتاب روح المعانى فى تفسيره عن الكلام على قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله ولاتقولوا ثلاثة) . فتذكر مانصه :

(ذكر الإمام السمرقندى فى كتابه المسمى بالصحائف الإلهية أن بعض الفرق من النصارى وهم أوائل الملكانة يقولون إن الإله ثلاثة أحدهم عيسى ثم عدل أواخرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر فقالوا إن الله تعالى جوهر وله ثلاثة أقانيم ذاتية أى ثلاثة خواص جوهرية أقنوم الأب وهو الذات وأقنوم الإبن وهو الكلمة وأقنوم روح القدس وهو الحياة وهذه الثلاثة واحدة فى الجوهرية .

وذكر صاحب روح المعانى أن الفرقة المعروفة بالملكانية وهم أصحاب

---

(١) يرجع فى هذا الموضوع إلى كتاب الفصل فى الملل الأهواء والنحل لابن حزم ص ٣٤ ج ١ مطبعة الخانجى وكتاب القول السديد فى علم التوحيد الشيخ أبى دقيقة ص ٨٠ - ٨١ ج ١ وكتاب التمهيد لأبى بكر الباقلانى ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) نترك الحديث عن هذه الشبه وردها لمطول نعده بهذا الشأن إن شاء الله ونكتفى هنا فى هذا المختصر بهذا النقل المناسب .

جسم واختلفوا فى الشيطان فقال بعضهم إنه قديم وقال البعض الآخر إنه حادث واختلف هذا البعض فى سبب حدوثه فقيل .

إن الله تعالى لما تفكر فى أنه يجوز خروج ضد عليه يعارضه فى أمره استوحش فتولد من وحشته أبليس وهو فاعل الشر .

وقيل إن الله شك فى خروج ضده عليه فتولد من هذا الشك إبليس .

وقيل غير ذلك : تعالى الله عما يقول هؤلاء الجاحدون المزورون علواً كبيراً . وللمجوس على مذهبهم هذا شبها واهية أقربها إلى الإشتباه هى قولهم : إن فاعل الشر شرير وفاعل الخير خير والواحد لا يكون خـيراً شريراً فوجب أن يكون الإله متعدداً .

وترد هذه الشبهة :

كلمتا : الخير والشرير تحتمل هذين المعنيين :

(ا) الخير هو مصدر الخير الكثير والشرير هو مصدر الشر الكثير . وعلى هذا التعريف فلاحاجة بنا إلى التعدد حيث أنه لامانع أن يكون الواحد مصدراً للخير الكثير بقدر ماهو مصدر للشر الكثير إذ ليس فى هذا ماينتافى مع الوحدانية كما يزعم هؤلاء المجوس بل إن هذا واقع فى حياتنا اليومية ويصدر من الواحد منا .

إن فليس صدور الخير والشر من الواحد مستحيلا حتى يؤدى إلى التعدد كما يزعمون بل إن التعدد محال لما أوردنا من أدلة على الوحدانية .

(ب) الخير من يغلب خيره شره والشرير من يغلب شره خيره . ولاشك أن من أعمال الخير دفع الشر : وبذلك فإن الخير إما أن يكون قادراً على دفع الشر أو لا .

فإن كان قادراً على دفع الشر وتعلقت قدرته به عطل على إله الشر عمله فلا يكون إلها .

وإن لم يكن قادراً على دفع الشر كان عاجزاً والعجز لا يتناسب ومقام الألوهية فلا يكون إلها . . لكنكم أثبتم أنه إله : فهو إذن قادر وحده على دفع الشر ولا حاجة إلى التعدد[1] .

(ج) بعض طوائف النصارى :

سنكتفى هنا بما ذكره الشيخ أبو دقيقة[2] نقلا عن صاحب كتاب روح المعانى فى تفسيره عن الكلام على قوله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة) . فتذكر مانصه :

(ذكر الإمام السمرقندى فى كتابه المسمى بالصحائف الإلهية أن بعض الفرق من النصارى وهم أوائل الملكانية يقولون إن الإله ثلاثة أحدهم عيسى ثم عدل أواخرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر فقالوا إن الله تعالى جوهر وله ثلاثة أقانيم ذاتية أى ثلاثة خواص جوهرية أقنوم الأب وهو الذات وأقنوم الإبن وهو الكلمة وأقنوم روح القدس وهو الحياة وهذه الثلاثة واحدة فى الجوهرية .

وذكر صاحب روح المعانى أن الفرقة المعروفة بالملكانية وهم أصحاب

---

(١) يرجع فى هذا الموضوع إلى كتاب الفصل فى الملل الأهواء والنحل لابن حزم ص ٣٤ ج ١ مطبعة الخانجى وكتاب القول السديد فى علم التوحيد للشيخ أبى دقيقة ص ٨٠ - ٨١ ج ١ وكتاب التمهيد لأبى بكر الباقلانى ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) نترك الحديث عن هذه الشبه وردها لطول نعده بهذا الشأن إن شاء الله ونكتفى هنا فى هذا المختصر بهذا النقل المناسب .

ملكان الذى ظهر ببـــلاد الروم وأستولى عليها ذهبوا إلى أن الأقانيم غير الجوهر القديم وأن كل واحد منها إله وصرحوا بالتثليث وقالوا إن الله ثالث ثلاثة ثم ذكروا أن طائفة من النسطورية قالت إن كل واحد من الأقاليم الثلاثة حى ناطق موجود وصرحوا بالتثليث كالملكانية . ولم أطلع على شبهة استند إليها كلا من هاتين الطائفتين فى قولهم بالتثليث .

وقد بين الله تعالى فى كتابه العزيز أن التثليث كفر فقال (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)

وذكر فى عدة آيات ما يفيد أن الإله واحد لا متعدد .

والأدلة المتقدمة لإثبات الوحدانية كافية فى الرد عليهم وعلى كل من يقول بالتعدد)[1] .

وبإنتهاء حديثنا عن صفة الوحدانية تكون قد انتهينا من الحديث عن الصفات السلبية الخمس فإلى صفات المعانى .

أختبار :

س١ :

ما معنى السلبية ؟ . . وماهى الصفات التى يشمل عليها هذا النوع من الصفات .

عرفى صفة « القدم » ثم بين أنواع القدم . وعرفى كل نوع منها . ثم بين المراد منها فى بنا هذا . ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله ـ تعالى ـ عقلا ونقلا .

---

(١) القول السديد فى علم التوحيد للشيخ محمد أبى دقيقة ص ٨٢ ج ١ .

س ٢ :

عرفى صفة البقاء ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى عقلا ونقلا .

س٣ :

عرفى صفة المخالفة للحوادث . . ثم أشرحى التعريف ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله ـ تعالى عقلا ونقلا .

بينى رأى السلف والخلف فيما يوهم مماثلة الله ـ تعالى للحوادث مع التمثيل ولماذا ؟ ولماذا ذكر القرآن الكريم مايوهم مماثلة الله ـ تعالى للحوادث ؟ . وما المراد بالحوادث ؟

بينى منشأ الخلاف بين السلف والخلف فيمايوهم المماثلة . من هم السلف؟ ومن هم الخلف ؟ .

س ٤ :

عرفى صفة القيام بالنفس ثم أشرحى التعريف شرحاً وافياً يستبان منه المراد من الصفة . . ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله ـ تعالى ـ عقلا ونقلا .

س ٥ :

عرفى صفة الوحدانية ثم أشرحى التعريف . ثم بينى الفرق بين الواحدنية والأحدية . ثم أقيمى الدليل العقلى والنقلى على ثبوت كليتهما لله تعالى ـ من الذين رشحوا للألوهية غير الله تعالى وكيف القرآن الكريم عليهم ؟ .

حدثينا عن الطوائف التى خالفت عقيدتنا فى الوحدانية ثم بينى شبههم ووضحى كيف تردين عليها .

(حـ) المعاني

تقـــديم

ما تشتمل عليه من صفات

الصفة	تعريفها	الدليل عليها	تعلقاتها
القدرة	تعريفها	الدليل عليها	تعلقاتها
الإرادة	»	»	»
العلم	»	»	»
الحياة	»	»	-
السمع	»	»	تعلقاتها
البصر	»	»	»
الكلام	»	»	»

تقـــديم :

بعد أن تحدثنا عن الصفات السلبية التى يتنزه بها المولى - سبحانه وتعالى - عن أى نقص يتوهم بذاته ولا يليق به فإنه يتحتم علينا أن نبين صفات الكمال والجلال وهى الصفات الثبوتية أو صفات المعانى كما يقول المتكلمون .

وهذا النوع من الصفات يشتمل على صفات سبع : هى

القـــدرة - الإرادة - العلم - الحيـــاة - السمع - البصر - الكلام .

وقد جرت عادة المتكلمين أن يبدأوا الحديث فى الصفات بالحديث عن الصفات السلبية ولعل وجهتهم فى ذلك أن التخلية مقدمة على التحلية ولهم فى ذلك وجهتهم الوجيهة .

صفة القدرة :

تعريفها - لغة واصطلاحا - شرح التعريف - الإخراج بالمحترزات .

الدليل عليها - نقلا وعقلا .

تعلقاتها - بمعنى حدود عملها - أو ميدانها الذى تعمل فيه .

---

* تعريفهـــا :

القدرة لغة - الاستطاعة .

واصطلاحه . هى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق علمه تعالى وإرادته .

* شرح التعريف :

١ - أزلية - الأزل : هو ما قبل وجود المخلوقات أى حين كان الله تعالى ولاشيء معه وانتهى بوجود المخلوقات ومالا يزال مبدؤه وجود أول المخلوقات ولا نهاية له . فمعنى صفة أزلية : أنها موجودة بلا أولية وباقية بلا آخرية .

٢ - يتأتى بها : أى وظيفتها فوق إتصاف الذات بها أنها توجد الممكن أو تعدمه .

٣ - الممكن : هو الذى يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى لذاته .

٤ - على وفق علمه تعالى وإراته : أن ماخصصه الله بإرادته أبرزه بقدرته فتعلق الإرادة لكونه أزليا سابقا على تعلق القدرة لكونه تنجيزيا حادثا .

والترتيب هنا بين تعلق الصفتين : أى بين أختصاص الصفتين وماتقومان به لا بين الصفتين أنفسهما لأنه لا ترتيب بين القدماء وإلا كان المتأخر حادثا .

وبهذا يتضح أن قدرة الله - تعالى - صفة قديمة لا أول لوجودها وباقية

فلا آخر لوجودها . فهي موجودة بلا أولية وباقية بلا آخرية فقد كانت حين كان الله ولا شيء معه وستظل حين يكون الله ولا شيء معه لأنها عين ذاته سبحانه وتعالى .

ووظيفتها : إيجاد أو إعدام الأشياء التي تقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى بواسطة الذات نفسها وعلى وفق ما خطت لها صفتا العلم والإرادة .

فالإرادة والعلم هما أداتا التخطيط والقدرة أداة التنفيذ .

• الإخراج بالمحترزات :

١ - أزلية : خرج بها صفات البشر الحادثة أي أنها ليست كصفات البشر .

٢ - قائمة بذاته تعالى : خرجت بها قدرات البشر المحدودة التي تمنحها لهم قدرة الله - سبحانه وتعالى .

٣ - يتأتى بها خرج بها ما يتوهم من أن القدرة فاعلة بذاتها وأشارت إلى أن التأثير حقيقة للذات وإسناد التأثير مجاز لكونها سببا فيه .

وبناء عليه فإنه يحرم أن يقال فعلت القدرة كذا لأن ذلك يوهم أنها مؤثرة بنفسها .

٤ - إيجاد الممكن وإعدامه . خرج بالممكن الواجب والمستحيل فإن تعلق القدرة بهما مستحيلا . وذلك لأنها إما أن تتعلق بهما تعلق إيجاد أو إعدام .

فإن تعلقت بالواجب لتوجده كان ذلك عبثا وتحصيل حاصل لأن الواجب: هو الثابت الذي لا يقبل العدم أبد لذاته : فإيجاده تحصيل حاصل وعبث وهما محالان على الله فاستحال ما أدى إليهما وهو تعلق القدرة بالواجب إيجاداً .

وإن تعلقت به لإعدامه وهو الثابت الذي لا يقبل العدم كان معناه قلب الحقائق أي قلب حقيقة الواجب من ثابت لا يقبل العدم إلى ممكن يقبل الوجود والعدم وقلب الحقائق محال فاستحال ما أدى إليه من تعلق القدرة بالواجب إعداماً .

بهذا يتضح أن القدرة يستحيل عليها أن تتعلق بالواجب إيجاداً أو إعداماً والمستحيل كذلك .

وذلك لأنها إن تعلقت بالمستحيل لإعدامه وهو المنتفى الذى لا يقبل الثبوت أصلا لذاته كان معنى ذلك تحصيل الحاصل لأنها والحالة هذه تعدم المعدوم وتحصيل الحاصل محال فاستحال ما أدى إليه من تعلق القدرة بالمستحيل إعداماً .

وإن تعلقت به لإيجاده وهو الذى لا يقبل الوجود كان معنى هذا قلب حقيقته من معلوم لا يقبل الثبوت إلى ما يقبل الثبوت والإعدام وهى حقيقة الممكن وقلب الحقيقة محال فاستحال ما أدى إليه وهو تعلق القدرة بالمستحيل إيجاداً .

وبذلك يتضح أن تعلق القدرة بالمستحيل إيجاداً وإعداماً محال .

وإذا ثبتت استحالة تعلقها بالواجب أو المستحيل تبين جواز تعلقها بالممكن الذى هو القسم الثالث لها فى الحكم العقلى وهو المطلوب .

• الدليل عليها :

لا يخامر عاقلا شك فى أن العالم وما فيه من سكون وحركة أثر من آثار الله : أوجده بقدرته وأودع فيه من نظام مبدع كريم بحكمته ما يجعل المتأمل أدنى تأمل يقر إقراراً لا يخالطه ريب فى أن الله على كل شىء قدير .

يقول الشيخ محمد الغزالى :

(العالم وما فيه من سكون وحركة أثر لقدرة الله سبحانه وتعالى وليست لشىء ما قدرة ذاتية يستمدها من طبيعته المجردة .

فإذا رأيت البذور تشق التربة وتنمو رويداً رويداً لتستوى على سوقها فذاك بقدرة الله .

وإذا رأيت الأمواج تلطم الشطآن رائحة غادية لاتهدأ حتى تثور فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت القاطرات أو الطائرات تنهب الفضاء وتطوى الأبعاد وتحمل الأثقال فذلك بقدرة الله .

وإذا رأيت البشر يموج بعضهم فى بعض وينفعلون بالحب والبغض والفرح والحزن وينطلقون عاملين أو يهدأون نائمين فذلك بقدرة الله .

وسواء شعرت أو لم تشعر فنبضات قلبك فى حناياك وسريان دمك فى عروقك وكمون الحس فى أعصابك وتجـــدد الحياة فى خلاياك وانسكاب الإفرازات من غددك ذلك كله بقدرة الله .

لاتحسبن شيئاً فى الكون قادراً بنفسه . فكما أن القدرة أبدعته (أولا من عدم فقد أودعت فيه من أسرارها وبثت فيه من آثارها مايدل عليها[1].

ولقد لفت القرآن الكريم الأنظار وفتح الأبصار على آثار الله فى كونه العريق وبين لمن عنده قلب أو ألقى السمع وهو شهيد قدرته وجلال عظمته : كما شهد بذلك العقل الواعى المستنير .

فماذا قال القرآن وبماذا وجه العقل .

(أ) الدليل النقلى : قول الله تعالى .

١ — أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ،[2] .

فلفتت الآيات الأنظار إلى آثار قدرة الله المودعة فى هذه الموجودات

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ٩٦ .

(٢) الغاشية .

تلك التى تشير إشارات واضحات إلى قدرته سبحانه وتعالى دون أن تصرح الآيات بلفظ القدرة .

٢ — آية أخرى تنفى العجز عنه سبحانه وتعالى ونفى العجز يقتضى القدرة بلا شك (وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديراً)[١] ولذلك ذيلت الآية نفسها بنص القدرة .

٣ — آية من آيات كثيرة تصرح بقدرته سبحانه وتعالى (ولله ملك السموات وأرض والله على كل شىء قدير)[٢] .

(تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير)[٣] .

(ب) الدليل العقلى :

١ — ثبت بالدليل العقلى والنقلى أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لهذه الكائنات دقيقها وكبيرها علويها وسفليها : ومن كان هكذا شأنه فهو قادر بلا شك .

٢ — لو لم يكن الله قادراً لكان عاجزاً ولو كان عاجزاً ما وجدت هذه الكائنات ولا شىء منها . لكن عدم وجودها باطل بدليل مشاهدة وجودها فبطل ما أدى إليه وهو اتصاف الله بالعجز ووجب اتصافه تعالى بالقدرة .

٣ — يقول الإمام محمد عبده : (ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته . فلا بد يكون قادرا بالبداهة . لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد إنما يكون لسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان)[٤] .

---

(١) فاطر ٤٤ .

(٢) آل عمران ١٨٩ . (٣) الملك ١ .

(٤) رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٤١ .

• تعلقات القدرة :

إن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء : أو لم يخلق السموات والأرض وما بينهما وما فيهن ولم يعي بخلقهن .

وآثار قدرته تملأ الآفاق وتسترعي نظر النابه والغافل على حد سواء وتدل على طاقة لا تعرف الحدود ولا القيود .

ولكن ليس معنى هذا أن تطلب من هذه القدرة قلب الحقائق لإثبات أن الله قادر : كما يقول الدكتور زكي مبارك في البلاغ (إن الله لا يستطيع إخراجي من ملكه وإن الله لا يستطيع الجمع بين النقيضين)[1] .

فلقد أثبتت بالدليل عند شرحي لتعريف القـــدرة إلى إستحالة تعلقها بالواجب والمستحيل إيجاداً وإعداماً على حد سواء . والدكتور زكي مبارك يطلب تعلقها بالمستحيل المستحيل وعدم تعلقها بالمستحيل لتوجده لا ينقص من قدر القدرة . لأن في إيجاد المستحيل قلب للحقائق وذلك محال .

وقبل أن نشرع في بيان تعلقات صفة القدرة فإنه لا بد لنا من معرفة معنى تعلق الصفة : وعدم تعلقها :

معنى تعلق الصفة :

تعلق الصفة معناه إقتضاء الصفة أمراً زائداً على قيامها بموصوفها . والصفة المتعلقة هي التي تقتضي أمراً زائداً على قيامها بموصوفها .

فمثلا صفة القدرة قائمة بذاته تعالى وتقتضي مقدوراً تؤثر فيه الوجود أو العدم : ومثل القدرة في ذلك بقية صفات المعاني عدا صفة الحياة فكلها تقتضي ماتؤثر فيه وهذا متعلق لها :

---

(١) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالي ص ٩٨ (بتصرف) .

وتعلقها به إقتضاؤها إياه لتؤثر فيه الوجود أو العدم .

وعدم تعلق الصفة معناه عـــدم إقتضاء الصفة أمراً زائداً على قيامها بموصوفها .

والصفة غير المتعلقة هى التى لا تقتضى ولا تطلب أمراً زائداً على قيامها بموصوفها : وذلك كصفة الحياة . فإنها صفة قائمة بموصوفها ولا تقتضى أمراً زائداً على قيامها بموصوفها .

والصفات التى تتعلق من صفات الله كلها هى ست صفات فقط : هى القدرة والإرادة والعلم والسمع . والبصر . والكلام .

وسنبين بمشيئة الله ـ تعالى عند حديثنا عن كل صفة من هذه الصفات تعلقها : وأمامنا الآن صفة القدرة . فما هو متعلقها وتعلقاتها ؟

قدرة الله تتعلق بالممكن ولا تتعلق بالواجب والمستحيل . أما تعلقها بالممكن فلأنها صفة تؤثر فى الأشياء الوجود أو العدم والذى يقبل الوجود مرة والعدم مرة أخرى هو الممكن حيث أن الممكن هو ما يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى .

وأما عدم تعلقها بالواجب فلأن الواجب هو الثابت الذى لا يقبل العدم أبداً لذاته . فلو تعلقت به لتوجده كان ذلك تحصيلا لما هو حاصل وتحصيل الحاصل محال : وإن تعلقت به لتعدمه وهو الثابت الذى يقبل العدم ابداً كان فى ذلك قلب لحقيقة الواجب وقلب الحقائق محال . فاستحال إذن تعلقها بالواجب .

وأما عدم تعلقها بالمستحيل فلأن المستحيل هو المعدوم الذى لا يقبل الثبوت أبداً لذاته : ففى تعلقها به لإيجاده قلب للحقائق كما أن فى تعلقها به لإعدامه وهو المعدوم تحصيل لما هو حاصل فعلا وقلب الحقائق وتحصيل الحاصل محالان فاستحال إذن تعلقها بالواجب .

وأما عن تعلقها الممكن . فللقدرة بالممكن تعلقان :

١ — صلوحى قديم : وهو صلاحيتها فى الأزل وفيما لا يزال للإيجاد والإعدام .

أى أن قدرة الله صالحة قبل خلق العالم لخلق العالم : والعالم هو كل من وما سوى الله .

٢ — تنجيزى حادث : وهو إيجادها الممكن وإعـــدامها إياه بالفعل فيما لا يزال .

هذا ويذكر صاحب الجوهر (١) للقدرة تعلقات سبعة تفصيلية هى :

١ — صلوحى قديم : وبينا ماهيته سلفا .

٢ — تنعلق بعدمنا فيما لا يزال قبل وجودنا .

٣ — تتعلق باستمرار الوجود العدم .

٤ — تتعلق بإستمرار للعدم بعد الوجود .

٥ — تتعلق بإيجادنا بالفعل بعد العدم السابق .

٦ — تعلق بإعدامنا بالفعل بعد الوجود .

٧ — وبإيجادنا بالفعل حين البعث .

من هذه التعلقات السبعة التى ذكرت يتضح لنا .

أن القدرة صالحه لإيجاد أو إعدام كل ما يقبل الوجود والعدم سواء أكان موجوداً بالفعل أن تعدمه أو معدوما بالفعل أن توجده .

ويقع فى هـذا الحيز كل من وليس هناك واجب الوجود غير الله ـ تعالى

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة لشيخ الإسلام إبراهيم البيجورى ص ٧٠ (بتصرف) .

أى أن ما سوى الله - تعالى يقسع فى دائرة الإمكان التى تنالها القدرة إيجاد أو إعداماً .

وقريب من هذا الذى وضحت ما يقرره الدكتور / سيد عبد التواب وهو يبين معنى أن الله على كل شىء قدير . حين :

وفى ضوء لهذا نستطيع أن نقرر أن معنى قدرة الله على كل شىء يتمثل فى أمرين .

١ — أن قدرة الله صالحة لإيجاد أو إعدام كل مايقبل الوجود والعدم سواء أوجدته بالفعل أو لم توجده بأن لم يوجد أصلا أووجد بقدرة المخلوق .

٢ — إن جميع الموجودات بالفعل مستندة فى إيجادها إلى الله - تعالى - إما بالمباشرة أو بالواسطه)[١] .

وإلى هنا نكون قد انتهينا من صفة القدرة وتليها صفة الإرادة .

صفة الإرادة :

(ا) تعريفها : لغة واصطلاحا : وشرح التعريف .

(ب) الدليل عليها : عقلا ونقلا

(ج) تعلقاتها .

(د) الفرق بين الإرادة والأمر .

تعريفها :

الإرادة لغة : مطلق القصد :

واصطلاحا : هى صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يخصص الله بها الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة .

---

(٢)العقيدة الدينية فى ضوء القرآن الكريم للدكتور / سيد عبد التواب ص ٧٥ .

شرح التعريف :

الشطر الأول من التعريف وهو « الإرادة صفة أزلية قائمة بذاته تعالى » سبق شرحه سلفا .

ومعنى « يخصص الله بها الممكن » أن الإرادة صفة تخصيص وتحديد والقدرة صفة تنفيذ : فهي تنفذ ما خصصت الإرادة فى زمانه المعينين فالله يخصص بإرادته الممكن بالوجود بـــدل العدم والعكس والعلم بدل الجهل والعكس [الخ]

فلو أراد الله أن يخلق العلم الذى نعيش فيه على نحو آخر فى قوانينه ونظمه ما عارضه فى ذلك معارض ولكان له سبحانه وتعالى ما أراد فهو الذى يقول عن نفسه (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)(١) .

ومعنى « ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة » هى الأمور المتنافية وقد حدد صاحب الجوهرة هذه الأمور المتقابلة بستة متقابلات . بيانها هكذا .

١ — الوجود يقابل العدم وبالعكس .

٢ — بعض الصفات يقابل البعض الآخر ككونه أبيض يقابل كونه أسود مثلا وهكذا .

٣ — وبعض الأزمنة يقابل البعض الآخر فكونه فى زمن نوح يقابل كونه فى محمد عليهما والصلاة والسلام وهكذا .

٤ — وبعض الأمكنة يقابل البعض الآخر ككونه فى مصر مثلا يقابل كونه فى بلاد الشام وهكذا .

٥ — وبعض الجهات يقابل البعض الآخر ككونه فى الشرق مثلا يقابل كونه فى الغرب وهكذا .

---

(١) يس : ٧٨ .

٦ — وبعض المقادير يقابل البعض الآخر : فكون طويلا مثلا يقابل كونه قصيراً وهكذا الخ[١] .

الإخراج بالمحترزات :

قولنا « صفة أزلية قائمة بذاته تعالى » جنس فى التعريف يشمل جميع صفات المعانى فكلها أزلية وقائمة بذاته تعالى .

وقولنا « يخصص الله بها الممكن ببعض مايجوز عليه من الأمور المتقابلة » قيد فى التعريف خرجت به بقية الصفات الأخرى من قدرة وعلم وسمع وبصر وحياة وكلام فالقدرة مثلا صفة تأثير لا تخصيص مثلا وكذا العلم والسمع والبصر فلانها صفات إنكشاف لا صفات تخصيص كالإرادة الخ :

إذن فالإرادة صفة تخصيص وتحديد والقدرة صفة تنفيذ وتأثير فهى تنفيذ ماخططت لها الإرادة فى زمانه ومكانه المعينين .

الدليل عليها :

لقد أقام المتكلمون للإرادة أدلة نقلية وأخرى عقلية نكتفى منها بما يلى :

نقلا : ١ — قوله تعالى : (إن ربك فعال لما يريد) [٢] .

٢ — قوله تعالى : (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)[٣] .

وعقلا : أنه تعالى — لو لم مريداً لخالق جميع الممكنات التى وقعت ويقع لكان مكرها مقهوراً على فعلها أو بعضها فلا يكون تعالى متمكنا من الفعل والترك ويكون تعالى عاجزاً دفع ما يقهره .

ولو كان كذلك ما وجدت هذه الكائنات . ولكن عدم وجودها باطل بالمشاهدة فبطل ماأدت إليه وهو كونه تعالى مكرها ووجب أتصافه تعالى بالإرادة وهو المطلوب .

---

(١) شرح البيجورى على الجوهرة لشيخ الإسلام إبراهيم البيجورى ص ٧٢

(٢) هود ١٠٧ . (٣) يس ٨٤ :

الفرق بين الإرادة والأمر :

لاشك أن الإرادة والأمر متغايران .

فالإرادة كما بينا ، صفة تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلة .

هذا الإنسان غنى ولو شاء ربك لكان فقيراً ، وهو قصير ولو أراد ربك لكان غير قصير .

أما الأمر ، فهو طلب الفعل كالأمر بالصلاة والصوم والزكاة والحج مثلا والنهى هو طلب الترك كأن ينهانا ربنا عن قول الزور وعن شرب الخمر مثلا .

والأمر والنهى هما مناطا التكليف مثلا فيجب على المسلم المكلف أن يفعل ما أمر ربه وأن يجتنب مانهاه عنه .

فمن امتثل الأمر واجتنب النهى استحق الثواب ومن تنكر الأمر وفعل المنهى عنه استحق العقاب وسواء امتثل الإنسان الأمر أم خالفه وسواء أكان شقيا أم سعيداً فإن ماهو عليه وما يختم له به موافق كل الموافقة لما أراده الله ـ سبحانه وتعالى ـ له .

وبما أن الإنسان ـ فى الظاهر ـ يقوم بالعمل أمراً ونهياً طائعاً مختاراً فهو إذن مثاب أو معاقب على هذا العمل الذى أتاه بمحض اختياره وإرادته غاية الأمر أننا بعد وقوع الشيء نعلم أنه مطابق لما أراده الله بنا .

وبناء على ما تقدم فإننا نورد هذه التفريعات .

(ا) يأمر الله بالشيء ويريده　　كإيمان المؤمن

(ب) لا يأمر الله بالشيء ولا يريده ككفر المؤمن

(ح) يأمر ولا يريد　　كإيمان الكافر

(د) لا يأمر ويريد   ككفر الكافر

وبهذا يتضح لنا أن الإرادة تغاير الأمر .

وينبغى على المؤمن أن يعمل بما أمر الله ويجتنب ما نهى الله ولا يبحث عما أراده الله به قبل وقوعه وبناء عليه فانه لامحل لهذا التساؤل الذى طالما يتردد على الشفاه . إذا كان الله أراد بنا هكذا فلماذا يعذبنا على مراده .

يقول الإمام جعفر الصادق :

« إن الله أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً فما أراده بنا طواه عنا وما أراده منا أظهره لنا فينبغى ألا ننشغل بما أراده بنا عما أراده منا » .

تعلقات الإرادة :

إرادة الله تتعلق بالممكن دون الواجب والمستحيل .

أما أنها تتعلق بالممكن فلأنها صفة ترجح وجود الشىء على عدمه والعكس والذى يقبل أن يترجح وجوده على عدمه والعكس هو الممكن . حيث أنه هو الذى يستوى بالنسبة لذاته وجوده وعدم وجوده فيحتاج إلى مرجح يرجح الوجود على العدم أو العكس والذى يقوم بذلك هو إرادة الله . فهى تتعلق بالممكن فقط .

والإرادة لا تتعلق بالواجب لأن الواجب - كما بينت سلفا عند حديثى عن عدم تعلق القدرة بالواجب - هو الثابت الذى لا يقبل العدم أبدا لذاته فذاته إذن مقتضية للوجود ومنافية للعدم . ومن هنا فان ذاته لا تقبل الترجيح الذى هو متعلق الإرادة :

فالإرادة لو تعلقت بالواجب لتوجده وهو الوجود كان ذلك تحصيلا للحاصل وتحصيل الحاصل محال

وإن تعلقت بالواجب لتعدمه وهو الذى لاتقبل ذاته العدم كان فى ذلك

قلبا للحقائق وقلب الحقائق محال كذلك .

فلذلك استحال تعلق الإرادة بالواجب :

وكما يستحيل تعلق الإرادة بالواجب فإنه يستحيل كذلك تعلقها بالمستحيل .

ذلك لأنها إن تعلقت بالمستحيل لإيجاده وهو المعدوم الذى لا يقبل الثبوت أصلا لذاته كان فى ذلك قلب لحقيقته وقلب الحقائق محال

وإن تعلقت به لتعدمه وهو المعدوم الذى لا يقبل الثبوت أصلا لذاته كان فى ذلك تحصيل للحاصل وتحصيل الحاصل محال .

إذن فتعلق الإرادة بالمستحيل مستحيل :

فالإرادة إذن لا تتعلق إلا بالممكن : ولها بالممكن تعلقان .

١ - تعلق صلوحى قديم : وهو صلاحية الإرادة فى الأزل لتخصيص كل ممكن بأى أمر من الأمور المتقابلة الجائزة عليه .

٢ - تنجيزى قديم : تخصيص الإرادة فى الأزل كل ممكن ببعض مايجوز عليه بدل البعض الآخر .

وإلى هنا يتضح لنا أن الله فاعل مختار لكل ما كان ومايكون لايستكرهه أحد على شىء من تخصيص هذه الكائنات بما كانت عليه وما ستكون عليه .

فما يرى الإنسان فى هذا الكون الواسع الجنبات من تمايز فى السمات وتغاير فى الطباع .

ليس إلا مظهراً من مظاهر إرادة الله سبحانه وتعالى .

وكون هذه الموجودات خاضعة فى تحديدها وتخصيصها لله - سبحانه وتعالى لايعنى خلو الكون من الأسباب والمسببات . فالعالم كله خاضع لسنن ثابتة لاتضطرب ولا تختلف .

يقول الشيخ محمد الغزالى :

ومعنى هذا أن علمه ـ تعالى ـ محيط بالأمس واليوم والغد بالخفى وبالمعلن بالدنيا والآخرة وأن هذا العلم لم يسبق بجهل ولا يعدو عليه نسيان ولا يمكن أن يخالف الواقع .

فهو علم يشرق على كل شيء فالحاضر والغائب والقاصى والدانى أمام علمه سواء .

قال تعالى (إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) [1].

شرح التعريف :

معنى كونها « صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى » سبق شرحه .

ومعنى كونها « متعلقة بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات تعلق إحاطة وإنكشاف دون سبق خفاء أو جهل » .

أن علم الله تعالى يتعلق بجميع الأشياء تعلقا تنجيزيا قديما فيعلم الله ـ سبحانه وتعالى الأشياء من الأزل على ما هى عليه ووجودها بالأمس أو اليوم أو غداً لا يؤدى إلى التغير فى صفة العلم أو حدوثها فالمتغير والحادث هو المعلوم لا صفة العلم نفسها :

---

(١) فصلت ٤٧

الإخراج بالمحترزات :

قولنا (صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى) .

جنس فى التعريف يشمل جميع الصفات الوجودية فكلها قديمة وقائمة بذاته تعالى : وقولنا (تتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات) قيد فى التعريف خرجت به القدرة والإرادة فكلتاهما لا يتعلق بالواجبات أو المستحيلات كما بينا سلفا .

(وشمول الإراده وعموم القدره . وكون الله ـ سبحانه وتعالى ـ يفعل ما يريد من يريد وكيف يريد ليس معناه أن أمور الخلق والرزق . وشئون القبض والبسط وحظوظ الرفعة والضعة والإعزاز والإذلال والنصر والهزيمة أن هذه جميعاً تصدر على طريقة الإرتجال السريع أو الخواطر السانحة أو تتم اتفاقا وتقع مصادفات عارضة ! كلا كلا .

فإن الكون كله خاضع لشبكة دقيقة النسج من الأسباب والمسببات والسنن الثابتة الخالدة والقوانين المترابطة المتكاملة لا تضطرب ولا تختلف ولو أجمع البشر على مناقضتها .

فالثمار يتم نضجه بالإرادة والقدرة :

ولكن مظهر الإرادة والقدرة ـ فيما نعرفه ـ من غرس وسقى وتعهد وزمان ومكان .

والجنين يكتمل بشراً سوياً بالإرادة والقدرة .

ولكن اكتماله فى أطوار وأحوال لابد من توافرها ويستحيل أن يولد بغيرها) (١) .

---

(١) من كتاب عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١٠١ - ١٠٢

ثم يقول : (وأصحاب العقول الضيقة والأفكار القاصرة يحسبون أن وصف الله عزوجل بأن يفعل ما يشاء معناه أن أحـــكامه لاضابط لها ولا رابط بينها .

ولعلهم يقيسون سعة السلطان الآلهى على ماعهدوه من تصرفات ذوى السلطة فيهم . أولئك الذين يخبطون خبط عشواء ويعبثون عبث الحمقى تعالى الله عما يظن الجاهلون علواً كبيراً .

إن الأسباب والمسببات هى المفاتيح الملقاة بين أيدى البشر ليصلوا بإدارتها إلى ما وراءها من خير أو شر .

وعموم المشيئة والقدرة مقيد بما شرع الله فى كونه أو بين عبادة من قوانين كونية أو قوانين شرعية .

كذلك ليس معنى أن الله يفعل ما يشاء أن يثيب العاصى أو يعذب الطائع أى أنه يجوز عليه الظلم ويقع منه الغبن ! !

وهذا جهل شنيع ونسبة ذلك إلى الله تكذيب لما قال فى كتابه العزيز ثم إن هذه العدالة مردها إلى ما ينبغى لله من كمالات بداهة) [1] .

هذا وسنلقى مزيداً من الضوء على قضيتنا هذه عند حديثنا على القضاء والقدر إن شاء الله .

---

(1) عقيدة المسلم للشيخ محمد الغزالى ص ١٠٢

صفة العلم :

(أ) تعريفها : وشرح التعريف والإخراج بالمحترزات

(ب) الدليل عليها نقلا وعقلا

(جـ) تعلقاتها .

(د) إحاطته بجميع الموجودات

تعريفها :

العلم لغة : مطلق الإدراك : أى سواء كان على وجه التسليم والقبول أم لا.

واصطلاحا :

هو صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى تتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق إحاطة وانكشاف دون سبق خفاء أو جهل .

وقولنا (تعلق إحاطة وانكشاف دون سبق خفاء أو جهل) فيه آخر فى التعريف خرجت به كل من صفة الحياة والكلام . وبقيت لدينا صفتا السمع والبصر فإنهما كذلك صفتا انكشاف ولكن هناك تغاير فى ما عليه كل صفة من الثلاث .

الدليل عليها :

أقام المتكلمون أدلة عدة على وجوب العلم لله سبحانه وتعالى نذكر منها ما يلى .

نقلا : ١ — قوله الله تعالى (وأسروا قولكم أو اجروا به إنه عليم

بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) [١] .

٢ — قوله — تعالى (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) [٢] .

٣ - قوله تعالى (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير) [٣] .

عقلا : ثبت بالدليل أن جميع الكائنات حادثة وأن محدثها هو الله سبحانه وتعالى . ولقد اشتملت هذه الكائنات على نظام بديع وصنع عجيب وترتيب دقيق وأودع فى كل منها من الخصائص ماجعله مستعداً لأداء ماخلق لأجله فى هذه الحياة وكل فعل هكذا شأنه يدل على أن فاعله عالم .

إذا يستحيل بداهة أن يوجد جاهل هذا العالم المحكم لصنع العجيب الأسرار كما أنه يستحيل على خالقه أن يوجده وهو جاهل أسراره وبواطنه والحكم المودعة فيه وإلا ما استطاع إيجاده بهذا الإحكام العجيب وإذا انتفى الجهل ثبت العلم وهو المراد .

إحاطة علمه تعالى بجميع الأشياء :

لاشك أن علم الله - سبحانه وتعالى - محيط بجميع الأشياء واجبها وجائزها ومستحيلها : موجودات كانت هذه الأشياء أومعدومات إحاطة تامة بما هى عليه وماكانت عليه وما ستكون عليه إن كان التغير سيعتريها .

---

(١) الملك ١٣ - ١٤ (٢) الأنعام ٥٩
(٣) آل عمران ٢٩ .

والدليل على إحاطة العلم نقلا قوله الله تعالى :

(وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) .

وعقلا : وأما العقل فإنه يحكم بأن العلم الشامل لازم لذاته تعالى فإن جهله ببعض ما فى الكون ينفى هيمنته عليه وخلقه إياه وقد أثبتنا أنه خالق العالم بالدليل فدل ذلك على تمام علمه وشموله لجميع الأشياء .

ثم هب أننا سلمنا جدلا بما يقوله الجاحدون من محدودية العلم فإن تخصيصه بالبعض دون البعض الآخر لا بد له من مخصص فيكون محتاجا إلى غيره . وقد نفينا عنه سبحانه وتعالى الاحتياج بالدليل فدل ذلك على عدم المخصص و بالتالى على تمام العلم وشموله . وهو المطلوب

تعلقاتها :

علم الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيء ولذلك فهـــو يتعلق بالواجب والمستحيل والجائز تعلق إنكشاف .

وللعلم تعلق واحد : « تنجيزى قديم » وهو تعلق العلم أزلا بالواجب والجائزات والمستحيلات تعلق إحاطة وإنكشاف دون سبق خفاء أو جهل .

هذا وعلم الله لا يصح أن يوصف بأنه كسبي أى مكتسب ذلك لأن العلم المكتسب هو العلم الحاصل عن النظر والإستدلال وهذا يكون مسبوقا بالجهل والجهل على الله محال . وما ورد مما يوهم مثل هذا العلم المكتسب فى جانب مؤول .

فمثلا قول الله تعالى (ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) .

فليس معناها لندرك ما لم نكن نعلم ولكن ليظهر لهم متعلق علمنا . أى (لنعلم) بضم النون وكسر اللام .

صفة الحياة :

معناها ـ الدليل عليها .

تعريفها :

هى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته ـ تعالى ـ تقتضى صحة أتصافه تعالى بنحو الإرادة والعلم . فالإتصاف بالحياة شرط للاتصاف بنحو هذه الصفات .

ومعنى اتصاف الله بالحياة أن حياته تعالى تختلف عن حياتنا وعن حياة غيرنا من المخلوقات ـ لحياته تعالى حياة كاملة لا يعلم حقيقتها إلا الله كسائر صفاته وأن حياة كل الموجودات مستمدة منها وأنها غير مسبوقة بعدم أو مدركة بفناء فهى من الأزل وإلى مالا نهاية .

الإخراج بمحترزات التعريف :

هى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ، جنس فى التعريف يشمل جميع صفات المعانى .

، تقتضى صحة أتصافه ، الخ قيد فى التعريف خرجت به بقية صفات المعانى .

الدليل عليها :

أقام المتكلمون أدلة عدة على صفة الحياة نذكر منها ما يلى :

نقلا : قوله تعالى : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم)[1] .

---

(١) البقرة ٢٥٥ .

وقوله تعالى : (وعنت الوجوه للحي القيوم)[1] .

وقوله تعالى : (وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده)[2] .

وعقلا : أنه تعالى : قد اتصف بالقدرة والإرادة إلى آخر الصفات التي تثبت بالدليل له سبحانه وتعالى وهذه الصفات لا تثبت إلا لمن اتصف بالحياة فاتصافه بهذه الصفات دليل قاطع على الحياة وهو المطلوب .

ويصاغ الدليل العقلي هكذا :

« لو لم يكن سبحانه وتعالى حيا ما جاز اتصافه بصفات السمع والبصر والكلام وغيرها من الصفات . لكن وجب اتصافه تعالى بهذه الصفات بالدليل فوجب اتصافه تعالى بالحياة : وهو المطلوب :

يقول الشيخ محمد الغزالي وهو يتحدث عن صفة الحياة :

(أطلق لخيالك العنان وتصور كل ما تنتجه الأيدي الحية من أعمال وما تنشئه العقول الحية من أفكار وما تهتز به الأفئدة الحية من مشاعر .

واجعل هذا الخيال يضم أشتات ذلك من مشارق الأرض ومغاربها .

وليتجمع ما حدث في الأعصار الخالية وما يحدث اليوم وما سوف يحدث غداً إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

إن مظاهر الحياة المفعمة بالقوة والإنتاج لا تعدو شيئاً مذكوراً بالنسبة إلى الحياة الإلهية الواسعة بل هي أثر ضئيل من أعمال الحي الذي لا يموت الذي ينفخ من روحه في الموات فيهتز وفي الجماد فيتحرك)[3] .

---

(١) طه : ١١١ .   (٢) الفرقان : ٥٨ .

(٣) عقيدة المسلم - للشيخ محمد الغزالي ص ١٠٣ - ١٠٤ .

صفة السمع :

- تعريفها ..
- الدليل عليها .. عقلا ونقلا ..
- تعلقاتها ..

تعريفها :

سمع الله - سبحانه وتعالى صفة وجودية قديمة قائمة بذاته - تعالى - تنكشف بها الموجودات إنكشافاً تاماً يغاير الإنكشاف بصفتى العلم والبصر.

ومعنى هذه الصفة أن الله سبحانه وتعالى يسمع كل ماترددد الألسن دون أن يشغله سماع عن سماع فلا يشغله سماع زيد عن سماع عمر مثلا ودون أن تشتبه عليه اللغات أو يؤثر فى سماع إياها ضجيج وهو سبحانه وتعالى لايسمع بجارحة كما تحدثنا عن ذلك سابقاً .

وقد بين بعض العارفين هذه الصفة حين قال عنه سبحانه وتعالى [إن الله - سبحانه وتعالى - يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء فى الليلة الظلماء] .

هذا ويجب الاعتقاد بأن الإنكشاف بالسمع غير الإنكشاف بالبصر أن كلا منهما غير الإنكشاف بالعلم ولكل حقيقة يفوض علمها لله تعالى .

وليس الأمر على مانعهده من أن البصر يفيد بالمشاهدة وضوحاً فوق العلم بل جميع صفاته تامة كاملة يستحيل عليه الخفاء والزيادة والنقص إلى غير ذلك .

الإخراج بالمحترزات :

قولنا « صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى » جنس فى التعريف يشمل جميع صفات المعانى .

وقولنا « تنكشف بها الموجودات » قيد فى التعريف خرج به صفات القدرة والإرادة والحياة والكلام . فإنها لا تنكشف بها الموجودات .

وقولنا « يغاير الإنكشاف بصفتى العلم والبصر » قيد آخر فى التعريف خرج به صفة العلم وصفة البصر .. حيث أن الإنكشاف بثلاثتهم يختلف .

الدليل عليها :

أقام المتكلمون على ثبوت صفة السمع لله أدلة عدة نوجز منها مايلى :

نقلا : قوله تعالى : [قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير] (١) .

وقوله تعالى : [لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى] (٢) .

وقوله تعالى : [ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم] (٣) .

عقلا : أنه تعالى لو لم يتصف بالسمع لا يتصف بضدها وهو الصمم والصمم نقص والنقص عليه تعالى محال . فوجب اتصافه تعالى بصفة السمع وهو المطلوب .

والذى يدل على أن صفة السمع صفة كمال من تعرى منها يكون ناقصاً أن إبراهيم عليه السلام أتخذ من فقد السمع موطن ذم للأصنام حين ندد بها فقال لقومه العابدين لها فى معرض ذمها والتعريض بها [هل يسمعونكم إذ تدعون] (٤) .

(١) المجادلة - ١ .　(٢) طه - ٤٦ .

(٣) المجادلة - ٧ .　(٤) الشعراء .

فدل ذلك على أن المودع فى الفطر أن من شأن الإله أن يكون سميعاً يجيب من دعاه ويسمع نجوى من ناجاه .

تعلقاتها :

سمع الله ـ سبحانه وتعالى ـ يتعلق بالموجودات فقط . سواء كانت هذه الموجودات ممكنة كالعالم أم واجبة الوجود كالمولى سبحانه وتعالى ولا يتعلق بالمعدوم سواء كان هذا المعدوم لا يقبل الثبوت أصلا كالمستحيل أم كان يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى كالممكن فى حالة إنعدامه .

وتعلق السمع بالموجـــود من واجب وممكن فى حالة وجوده له تعلقات ثلاثة .

١ — صلوحى قديم : وهو صلاحية السمع فى الأزل للتعلق بما ومن سيوجد من الممكنات .

٢ — تنجيزى قديم : وهو تعلقها أزلا بذات الله ـ تعالى وصفاته تعلق إنكشاف .

٣ — تنجيزى حادث : وهو تعلقها فعلا بالممكنات بعد وجودها تعلق إحاطة وإنكشاف .

صفة البصر :

تعريفها .

الدليل عليها .

تعلقاتها .

تعريفها :

بصر الله سبحانه وتعالى ـ صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى ـ بها إنكشاف جميع الموجودات إنكشافاً تاماً يغاير الإنكشاف بصفتى العلم والسمع .

ومعنى هذه الصفة فى جانب الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن الرؤية الإلهية تستوعب من جميع الجهات فى وقت واحد وأنها غير محجوبة بظلام أو ببعد مسافة أو بساتر مادى أو بغيره مهما كان .

كما أنها ليست محدودة بجهة دون أخرى فالله يرى المخلوقات جميعها فى وقت واحد ولا تشغله رؤية ولا يمنعه ستر أو حجاب . كما أن رؤيته ليست بآلة مثلنا . وإلا كان مماثلا للحوادث وقد انتفى بالدليل عنه ذلك .

الإخراج بالمحترزات :

قولنا : « صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى » جنس فى التعريف يشمل صفات المعانى كلها .

وقولنا « بها إنكشاف جميع الموجودات » ، قيد أول فى التعريف به صفات القدرة ـ الإرادة ـ الحياة ـ الكلام .

وقولنا : « يغاير الإنكشاف بصفتى العلم والسمع » ، قيد ثان فى التعريف خرجت به صفتا العلم والسمع .

الدليل عليها :

أقام المتكلمون على صفة البصر أدلة نقلية وأخرى عقلية نذكر منها مايلى :

من النقلية :

قوله تعالى : (له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع)[1] .

وقوله تعالى : (هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير)[2] .

من العقلية :

أنه تعالى لو لم يتصف بالبصر لاتصف بضده وهو العمى - والعمى نقص والنقص عليه تعالى محال - فاستحال ما أدى إليه وثبت نقيضه وهو البصر وهو المطلوب .

تعلقاتها :

بصر الله سبحانه وتعالى يتعلق بالموجودات فقط — كالسمع تماماً - سواء كانت هذه الموجودات ممكنة كالعالم مثلا أم واجبة الوجود كالمولى سبحانه وتعالى .

ولا يتعلق بالمعدوم : سواء كان هذا المعدوم لا يقبل الثبوت أصلا كالمستحيل أم كان يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى كالممكن في حالة إنعدامه .

وتعلق البصر بالموجود من واجب وممكن في حالة وجوده له تعلقات ثلاثة :

١ - صلوحي قديم : وهو صلاحية البصر في الأزل للتعلق بما سيوجد من الممكنات .

٢ - تنجيزي قديم : وهو تعلقها أزلا بذات الله - تعالى - وهي تعلق إنكشاف .

---

(١) الكهف ، ٢٦ . (٢) التغابن ، ٢ .

٣ - تنجيزى حادث : وهو تعلقها فعلا بالممكنات بعد وجودها تعلق إحاطة وانكشاف .

صفة الكلام :

تعريفها :

الدليل عليها

تعلقاتها

معنى قولنا القرآن كلام الله .

تعريفها :

كلام الله تعالى - صفة وجودية أزلية قائمة بذاته تعالى ليست بحروف ولا أصوات منزهة عن الترتيب والتقديم والتأخير . تدل على جميع الواجبات والمستحيلات والجائزات منزهة عن السكوت النفسى وعن الآفة الباطنية .

شرح التعريف :

قولنا « ليست بحرف ولا صوت منزهة عن الترتيب والتقديم والتأخير » يعنى أن الكلام الإلهى ليس لفظا تصنعه الشفتان واللسان وتضبطهما الرئة والحنجرة والأسنان فذلك شأن الإنسان لا وصف الله .

وقولنا « تدل على جميع الواجبات والجائزات والمستحيلات » يعنى أنها تدل على أن الله واحد قادر موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص كما تدل على الأمر بالطاعات وعلى النهى عن المحرمات وعلى الوعد بالثواب لمن أطاع وعلى الوعيد بالعقاب لمن عصى وعلى الإخبار بجميع ما كان وما يكون وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن هناك بعثا وحسابا وجنة ونارا وثوابا حتى لو أزيل عنا الحجاب وأطلعنا الله على هذه الصفة لفهمنا منها كل شيء .

وقولنا « ومنزهة عن السكوت النفسى » ـ عـــدم إرادة الكلام مع القدرة عليه .

وقولنا (والآفة الباطنية) الآفة الباطنية هى : حالة تمنع من الكلام القدرة عليه كالخرس مثلا .

وكلام الله بهذا المعنى يسمى كلاما نفسيا ويدل عليه الكلام اللفظى دلالة التزامية عرفا . فإن من أضيف له كلام لفظا دل عرفا على أن له كلاما نفسيا . وقد أضيف لله ـ تعالى ـ كلام لفظى كالقرآن فيدل التزاماً عرفا على كلام الله النفسى .

يقول الشيخ رشيدرضا فى تعليقه على رسالة التوحيد للإمام محمد عبده .

إن الله تعالى جعل للناس طرقاً عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسباً فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم فالعلم هو القوة أو الصفة التى تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب وفيها قوة أخرى تتصرف بها فى المعلومات وتصورها بصور قابلة للإعلام قابل العلم بها . فيها يتمكن الإنسان من إفادة غيره ما شاء من علمه وهى صفة الكلام .

فما كان منه فى النفس يسمى كلاماً نفسياً ويعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت فى نفسى كذا وحدثتنى نفسى وقال عمر يوم السقيفة زورت فى نفسى كلاماً .

وما يحصل به الإفادة والإعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما ويوجه إلى من يراد إعلامه به فيعلمه يسمى كلاماً لفظياً .

وقد استعير لفظ العلم الذى يستعمله البشر فى أنفسهم للعلم الإلهى المحيط بكل شىء . واستعير لفظ الكلام للشأن الإلهى الذى به يوحى الله إلى ملائكته ورسله ما شاء من العلم ويكلم من شاء وحياً من وراء حجاب فقيل إن لله كلاماً هو صفة له أى شأن من شئونه هو مصدر الوحى إفادة العلم للأنبياء والملائكة وسمى ما يوحيه إليهم كلاماً أيضاً . وليس فى اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل فى كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسى عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم .

فالكلام النفسى هو صورة العلم الذاتى فى النفس كما أن العلم صورة للمعلوم فيهـــا .

الإخراج بالمحترزات :

قولنا « صفة أزلية قائمة بذاته تعالى » جنس فى التعريف يشمل جميع صفات المعانى .

وقولنا « ليست بحرف منزهة إلى آخر التعريف قيد فى التعريف خرجت به كل صفات المعانى عدا صفه الكلام كما نزه كلام الله النفسى القديم عن أى شبهه يوردها خيال جامح حول كلام الله أو عن أثارة الشك عن وجه شبه بينه وبين كلام البشر الحادث .

الدليل عليها :

أقام المتكلمون أدلة عقلية وأخرى نقلية لإثبات صفة الكلام له ـ سبحانه وتعالى — نذكر منها ما يلى .

الدليل النقلي :

• قوله تعالى : [وكلم الله موسى تكليما] [1] .

• قوله تعالى : [تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات] [2] .

• وقوله تعالى [ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم] [3] .

الدليل العقلي :

(ا) أنه - تعالى لو لم يتصف بصفة الكلام النفسي لاتصف بضدها وضدها نقص والنقص على الله تعالى محال . فاستحال ما أدى إليه وثبت نقيضه - وهو المطلوب . وقد احتج القرآن على بطلان عجل بني إسرائيل بقوله [أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا] [4] .

(ب) أجماع الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين على أنه تعالى متكلم فقد ثبت منهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أنهم كانوا يقولون لأقوامهم أمر الله بكذا ونهى عن كذا وهذا من أقسام الكلام فثبوتهما يثبت صفة الكلام .

---

(١) النساء — ١٦٤ . (٢) البقرة - ٢٥٣ .

(٣) لقمان - ٢٧ . (٤) طه - ٨٩ .

تعلقاتها :

الكلام كالعلم تماماً يتعلق بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات وإن كان يختلف عنه فى أن تعلق العلم تعلق إنكشاف على حين أن تعلق الكلام تعلق دلالة وإفهام وله تعلق واحد .

١ — تنجيزى قـــديم : وهو تعلق الكلام فى الأزل بجميع الواجبات والمستحيلات والممكنات تعلق دلالة وإفهام .

مامعنى قولنا القرآن كلام الله . ؟

أثبتنا فى صدر حديثنا عن الكلام أن كلام الله باعتباره صفة لله ليس صوتا ولا حرفا فبأى معنى يطلق على القرآن أنه كلام الله وهو المكون من حروف ؟

والواقع أن القرآن تارة يطلق على الكلام النفسى القديم . وتارة أخرى يطلق على السور والآيات المكتوبة فى المصحف .

فهو بالاطلاق الأول هو الصفة القديمة الذى تحدثنا عنها وأقمنا الدليل عليها ولذلك شدد السلف النكير على من قال عن القرآن إنه مخلوق .

كما أوذى الإمام أحمد بن حنبل وحبس لقوله بخلق القرآن :

وأما بالإطـــلاق الثانى أى حين يطلق على الكلام المكتوب بين دفتى المصحف المحفوظ فى الصدور فهو مخلوق وحادث بلا شك . فقد قال تعالى حاكياً عن القرآن « إنا أنزلناه فى ليلة القدر »[1] . كما قال فيه « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »[2] .

---

(١) سورة القدر - ١ .   (٢) الإسراء - ١٠٦ .

لكن تأدبا مع الله لا يصح أن يوصف القرآن بأنه حادث إلا فى مقام التعليم فقط .

الآراء فى معنى كلامه تعالى :

اختلف أهل الملل والمذاهب فى معنى كلامه تعالى .

١ — فعرفه أهل السنة بما ذكرنا وأقاموا على ذلك من الأدلة ماذكرنا .

٢ — وعرف الحنابلة والحشوية ، كلامه تعالى بأنه الحروف والأصوات المتتالية المترتبة ويزعمون أنها قديمة .

٣ — وعرف المعتزلة الكلام بأنه الحروف والأصوات الحادثة ثم بينوا أنها غير قائمة بذاته تعالى ثم بينوا معنى كونه متكلماً . أنه خالق الكلام فى بعض الأجسام ، ولذلك فهم يؤولون قوله تعالى [وكلم الله موسى تكليما] بأنه خلق الكلام فى الشجرة .

وهذا الرأى مردود بأن التأويل هنا لاداعى له . فلقد خلق الله فى موسى عليه السلام القدرة على كلامه النفسى

إن الكلام لفى الفؤاد وإنما　　جعل اللسان على الفؤاد دليلا

يقول الشيخ محمد الغزالى :

« الكلام هو وسيلة للإبانة عما فى النفس من معارف ونصائح ورغبات شتى وتفهيم ذلك للآخرين ، ولا شك أن الله سبحانه وتعالى مستحق لهذا الوصف ، فقد عهد إلى ألوف من ملائكته بالقيام على شئون الإحياء والإماتة ، وفى أنحاء العالم العريض ، كما عهد إلى ألوف منهم بشئون شتى لا ندرى منها إلا القليل .

وهذا التسخير الدائم خاضع لأوامر الله التى يتكلم بها خلقاً ورزقاً ورفعاً وخفضاً ومحواً وإثباتاً وتقديرا وتدبيراً .

وما حفل به علم الله فوق الحصر وما يدل على هذا العلم من كلمات لانهاية لها كذلك .

إن أحدنا ـ في مباشرة أعماله المحدودة يحتاج إلى قاموس من الألفاظ فما ظنك برب العالمين وهو يحكم ملكوته الواسع العظيم .

ألا ترى أن كلامه من السعة والإستبحار على النحو الذى يقول فيه :

[ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم][1] .

---

(١) لقمان : ٢٧ .

أختبار

س ١ :

ما المراد من المعانى هنا . . . ؟ وما هى الصفات التى يشتمل عليها هذا النوع من أنواع الصفات . . . ؟ ولماذا أخرنا الحديث عن هذا النوع من الصفات عن سابقة . ؟

س ٢ :

عرفى صفة القدرة لغة واصطلاحا ، ثم أشرحى التعريف . ثم أخرجى بالمحترزات ، ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله - تعالى عقلا ونقلا ، ثم وضحى تعلقاتها .

س ٣ :

عرفى صفة الإرادة لغة واصطلاحا ثم أشرحى العريف ثم أخرجى بالمحترزات ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفات لله - تعالى عقلا ونقلا ثم وضحى مع التمثيل الفرق بين الإرادة والأمر ، ثم بينى تعلقاتها .

س ٤ :

عرفى صفة العلم لغة واصطلاحا ، ثم أشرحى التعريف ثم أخرجى بالمحترزات ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى عقلا ونقلا - هل لعلمه تعالى حدود . . ؟ وضحى تعلقات العلم . .

س ٥ :

عرفى صفة : « الحياة » ثم أشرحى التعريف ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله - تعالى عقلا ونقلا .

س ٦ :

عرفى صفة السمع والبصر ثم أشرحى تعريف كلتيهما ثم أخرجى بالمحترزات ثم أقيمى الدليل على ثبوت كلتيهما لله - تعالى عقلا ونقلا ثم وضحى تعلقات كلتيهما .

س ٧ :

عرفى صفة الكلام ، ثم أشرحى التعريف وأخرجى بالمحترزات ثم أقيمى الدليل على ثبوت هذه الصفة لله تعالى - عقلا ونقلا ثم وضحى تعلقاتها . . ثم بينى معنى قولنا القرآن كلام الله - تعالى ، ثم وضحى آراء أهل الملل والمذاهب فى معنى كلامه - تعالى . .

الباب الثالث

أفعال العباد بين الجبر والاختيار

الفصل الأول : أفعال العباد وأشهر المذاهب فيها

« الثاني : القضاء والقدر

تتمـــة :

١ ـ التوفيق والخذلان

٢ ـ الوعد والوعيد

٣ ـ السعادة والشقاء

٤ ـ الصلاح والأصلاح

بين الجبر والاختيار عاشت الإنسانية حائرة مضطربة قلقة .

تقول بالاختيار وحرية الإرادة وتزعمهما لنفسها فيفجعها الواقع بما يزيل قواتها هذه ويلغى أختيارها الذى ظنته لنفسها ويعطل وجوده وإذا بها مبهوته ترى نفسها ريشة فى مهب الرياح تسيرها الأقدار أنى تشاء .

وتقول بالجبر فلا يصدقها الواقع الذى تعيش فيه والذى ترى على صفحته الهادئة أو الثائرة آثار فكرها وعملها وثمار كدحها ونصبها .

فلا هى بالحرة الطليقة التى تفعل ما تشاء وتدع ما تريد . ولاهى بالمقهورة المجبورة التى لا يد لها فيما يفعل بها .

إنها تعيش متأرجحة بين الجبر والاختيار .

مسألة أفعال العباد من المسائل التى تضاربت فيها الآراء واختلفت فيها المذاهب وتحيرت دونها العقول ووجدت فيها ميداناً فسيحاً للجدل والمناقشة.

ولم تكن مسألة أفعال العباد وليدة الفكر الإسلامى النابعة فلقد سبقه إليها فلاسفة اليونان ومفكرو السريان وحكماء الزرادشتين وأحبار اليهود وقساوسة النصارى . فلقد تساءلا الجميع دون أن تتحد الإجابة لدى رجال الفكر الواحد على هذا التساؤل : هل الإنسان فاعل مختار فيما يأتى وما يذر من أعمال أم أنه كالريشة المعلقة فى الهواء تحركها الرياح أنى تشاء ؟ أو بتعبير معاصر : هل الإنسان مخير أم مسير . . ؟

وكانت بداية ظهور مسألة أفعال العباد فى الفكر الإسلامى مع بداية العصر الأموى حين أختلط المسلمون بغيرهم من فرس ويونان ورومان وانتشرت الآراء الفلسفية بين المسلمين ودار جدل طويل فى العقيدة الإسلامية وتعدد الكلام فى القدر واتجاه إرادة الإنسان [illegible] تطاحنت الأفكار والآراء كما تطاحنت المذاهب والاتجاهات وكثرت الفرق الكلامية التى تمثل كل فرقة منها — فى قضيتنا هذه — منهجاً فى الفكر الإسلامى كما تفرعت آراء فرعية [illegible] عن هذه المذاهب الثلاثة ولم ترق إلى مستوى المذهب .

وبذلك نشأت مشكلة أفعال العباد فى الفكر الإسلامى وهى مشكلة لها مكانها فى الفكر الإسلامى . ذلك لأنها مشكلة خطيرة ذات أتصال وثيق بوحدانية الإله وأحديته وإنفراده بالخلق والرزق والإيجاد والتصوير بقدر صلتها بتكاليف العباد وثوابهم وعقابهم .

وموطن الحيرة فى أفعال العباد أن المتأمل المدقق يجد نفسه تتردد بين عاملين متنازعين . فبقدر أعتقادها فى تفرد الله بالخلق والإيجاد فهو مالك هذا الكون ومليكه حيث لا يقاسمه فى ملكه أو ملكوته مقاسم أو ينازعه فى أيهما منازع إذ بنا نجد أن العبد مثاب على طاعته معاقب على عصيانه .

ومن هذا المنطلق وجدت المذاهب سبيلها إلى التعدد والتشقق بقدر ما وجدت هذه المذاهب المتعددة المتنافر أدلتها التى تؤيد به سمتها التى أعتقدته سبيلا قويما لها .

فقال قوم بأن العبد خالق لأ فعاله الاختيارية أتفاقا مع التكاليف وما يترتب عليه من ثواب وعقاب وذكر لمذهبه هذا ما يعضده من أدلة عقلية ونقلية .

وقال آخرون بأن العبد مجبور لا سلطان له فى شىء أو عليه . موافقة منهم لمبدأ أنفراد الله بالخلق والإيجاد .

وتوسط غير هؤلاء وأولئك فذهب إلى أن الخلق لله وللعبد كسب .

لكن هذه المذاهب والآراء رغم تشققها فقد اتفقت فيما يلى . —

١ — أن الله واحـــد لا شريك له فى ملكه أو ملكيته لهذا الكون اللاحب الجنبات .

٢ — أنه الخالق المستقل بالخلق المعبود بحق .

٣ — أنه الخالق لذات الإنسان فما قال أحد من أرباب المذاهب أنه خلق نفسه . كما أنه الخالق لأفعال العباد الإضطرارية .

وسبيلنا الآن أن نوضح مذاهب العلماء فى قضيتنا هذه وأدلتهم ووجه الصواب فى مشكلتنا هذه . ثم نعرج على القضاء والقدر فنعرف معناهما : وهل الإيمان بهما ينافى الأخذ بالأسباب ؟ . . . ومتى يجوز الإحتجاج بهما ومتى لا يجوز . . ؟

فعلى بركة الله تعالى

الفصل الأول

أفعال العباد وأشهر المذاهب فيها

(ا) مذهب الجبرية .

(ب) مذهب المعتزلة .

(ج) مذهب الأشاعرة .

(د) رأى ابن رشد .

(ه) رأى الإمام محمد عبده .

(و) رأى الفيلسوف إقبال .

(ز) تعقيب .

كل الكائنات من فعله تعالى :

فلا خالق غيره ولا رازق سواه . ولا مصير لهذا الكون وما فيه من أجرام إلا هو ولا مردها إلا إليه .

ولا محاسب لها ولا مثيب ولا معاقب غيره .

ولهذا فإن أفعال العباد تشمل .

أفعال العباد :

التوفيق والخذلان ، الوعد والوعيد ، الثواب والعقاب والسعادة ، والشقاء وغير ذلك وسنتناول كل هذه المباحث بالتفصيل .

أفعال العباد :

أتفق المتكلمون فيما عدا الجبرية على أن أفعال العباد تنقسم إلى قسمين :

(أ) أضطرارية :

وهى التى لا يشعر معها الإنسان بأن له عليها قـــدرة وأختياراً مثل أرتعاش اليد من البرد وإحمرار الوجـــه من الخجل وإصفراره من الوجل وما إلى ذلك .

(ب) أختيارية :

وهى التى يشعر الإنسان معها بأن له عليها قدرة وأختياراً مثل تصرفات الإنسان الأختيارية التى يمارس بها نشاطه فى الحياة كذهابه إلى مكان ما أو بقائه فى مكانه الذى كان به كمذاكرته الآن أو تركها .

ولا شك أن الفرق بين الحركتين واضح .

وإنه لمن البداهة أن يفرق الإنسان بين حركة الإرتعاش وحركة البطش فيدرك أن الأولى أضطرارية والثانية أختيارية .

أما الجبرية فإنهم لا يفرقون بين الأفعال الاختيارية والإضطرارية ويرون أن أفعال العباد كلها أضطرارية .

مذاهب المتكلمين :

يتفق المتكلمون جميعاً على أن الفعل الإضطرارى مخلوق لله وليس للعبد دخل فيه أصلا .

أما الفعل الاختيارى فهو محل الخلاف .

لقد تعددت مذاهب المتكلمين فى الأفعال الاختيارية وسنذكر آراء كل مقرونة بأدلته .

(أ) مذهب الجبرية :

أفعال العباد كلها مخلوقة لله - تعالى - وليس للعبد فيها كسب ولا أختيار بل هو مجبور كالحجر الملقى فى البحر تحركه الأمواج كما تشاء أوكالريشة المعلقة فى الهواء تحركها الرياح كما تريد .

دليلهم النقلى : قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملون) .

وقوله تعالى : (الله خالق كل شىء) .

الدليل العقلى :

فعل العبد سبق به علم الله ، وكل ما سبق به علم الله لابد من وقوعه .

∴ فعل العبد لابد من وقوعه .

ردت أدلة الجبرية :

فرد الدليل النقلى . بأن هذه الآيات معارضة بالآيات التى تثبت للعبد عملا . مثل قوله تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) وقوله تعالى : (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) .

كما رد الدليل العقلى ، بأن العلم صفة إنكشاف لا صفة تأثير ، وبذلك نرفض المقدمة الثانية (وكل ما سبق به علم الله لابد من وقوعه) فيسقط الدليل وهذا المذهب باطل لوجوه :

الوجه الأول :

لو كان العبد مجبوراً لما أثيب وعوقب على العمل لكنه يثاب ويعاقب فهو إذن غير مجبور .

الوجه الثانى :

لو كان العبد مجبوراً للزم أحـد أمرين أما نسبة الظلم إلى الله أو نسبة الكذب إلى الرسل وكلاهما محال . فما أدى إليه وهو كون العبد مجبوراً محال.

الحكم على الجبرية :

هم غير كافرين لأمرين :

(ا) لأنهم يقصدون التوحيد باسناد الأفعال كلها إلى الله تعالى :

(ب) ولأن نسبة الظلم إلى الله - تعالى - والكذب إلى الرسل ليس نص مذهبهم وإنما ذلك لازم المذهب : ولازم المذهب ليس بمذهب حتى يؤدى إلى الكفر .

(ب) مذهب المعتزلة :

العبد خالق لأفعاله الاختيارية بقدرة خلقها الله فيه .

أدلتهم :

للمعتزلة على مذهبهم أدلة عقلية ونقلية :

النقلى : قوله تعالى : (من عمل صالحاً فلنفسه) .

وقوله تعالى : (أن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم) .

العقلى : لو لم يكن العبد موجداً لعمله لما أثيب وعوقب لكنه يثاب ويعاقب عليه فهو إذن موجد لعمله .

ردت أدلة المعتزلة :

رد الدليل النقلى : بالآيات التى تسند العمل إلى الله تعالى: فدفعا للتعارض يجب تأويل الآيات فنقول : أسند العمل إلى العبد لأنه الكاسب له ولأنه محل العمل كما أسند إلى الله لأنه الخالق المؤثر .

ورد الدليل العقلى : بأن الثواب والعقاب والمدح والذم على الكسب لا على الإيجاد .

الحكم على المعتزلة :

هم غير كفار :لأنهم يهدفون بمذهبهم هذا إلى إثبات العدالة المطلقة لله تعالى: ولأنهم يرون أن خلق العبد لفعله مستند لقدرة خلقها الله فيه .

(ج) مذهب أهل السنة :

أفعال العباد الاختيارية مخلوقة لله وللعبد فيها كسب فليس مجبوراً فى جميع أفعاله ولا خالقا لها كلها .

أدلة أهل السنة :

لأهل السنة على مذهبهم أدلة عقلية ونقلية :

العقـــل :

١ ـــ فعل العبد ممكن وكل ممكن مقدور لله .

فعل العبد مقدور لله .

٢ ـــ لو كان العبد موجداً لأفعاله لكان عالما بتفاصيلها لكنه غير عالم بالتفصيل .

∴ هو غير موجد لهما .

النقـــلى :

قوله تعالى (والله خلقـكم وماتعملون) .

اعتراضات على مذهب أهل السنة :

وقد اعترض على مذهب أهل السنة بهذين الاعتراضين :

١ — من حجة العبد أن يقول لله لم تعذبنى والـكل فعلك .

ويرد هذا الاعتراض بأنه ـ سبحان وتعالى ـ لا يتوجه عليه سؤال من غيره . قال تعالى (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) .

وكيف يـكون للعبد حجة ولله الحجة البالغة فلا يسعنا إلاالتسليم المحض فى أن الفعل كله لله .

٢ — قام البرهان على وجـــوب أستقلاله تعالى بالأفعال . فنى إثبات الـكسب للعبد تجويز بدخول المقدور الواحد تحت قدرتين مع أن المقدور الواحد لا يدخل تحت قدرتين .

ويرد هذا الاعتراض ، بأنه ثبت بالبرهان أن الخالق هو الله كما ثبت بالضرورة أن لقدرة العبد مدخلا فى بعض الأفعال كحركة البطش دون البعض الآخر كحركة الارتعاش .

وللتوفيق بين الثابت بالبرهان والثابت بالضرورة نقول .

الله هو الخالق لفعل العبد وللعبد فى الفعل الاختيارى منه كسب والمقدور الواحد يدخل تحت قدرتين بجهتين مختلفتين فيدخل تحت قدرة الله بجهة الخالق وتحت قدرة العبد بجهة الكسب :

المختار من المذاهب فى أفعال العباد :

المذهب المختار فى أفعال العباد هو مذهب أهل السنة : لأن الجبرية

أفرطوا حيث نسبوا الأعمال كلها لله والمعتزلة فرطوا حيث نسبوا الأعمال كلها للعبد وتوسط أهل السنة حيث جعلوا الأفعال لله وللعبد فيها كسب وخير الأمور الوسط .

فالله ـ تعالى ـ هو الخالق للعباد ولأعمالهم فالأعمال كلها مرجعها إلى واحد وهو الله . وهذا مايعرف باسم « وحدة الأفعال » .

وعليه فالقول بأن شيئاً يؤثر بطبيعة كما تقول الفلاسفة أو بقوة مودعة فيه كما تقول المعتزلة قول باطل .

(د) رأى ابن رشد :

لقد انتهى ابن رشد فى قضيتنا هذه إلى أن أفعال العباد واقعة بعلتين .

الأولى : العلة الفاعلة :

وهى العلة التى توجد لدى الإنسان ولها القدرة على الفعل أو الترك فهى علة فاعلة كاملة الفعل والترك لكنها ليست كافية لوقوع الفعل الإنسانى بل لابد لوقوع الفعل بجوار هذه العلة من تهيئة المناخ الصالح ووجود الظروف المناسبة .

إذن فالقدرة الإنسانية وحدها ليست قادرة على إبراز وإيجـــاد فعل الإنسان .

الثانية : العلة الظرفية :

والعلة الظرفية هى مجموعة الظروف والملابسات التى تحيط بالإنسان وقت الفعل أو الترك وهذه هى العلة الظرفية .

إذن ففعل الإنسان لا يوجد بقدرة الإنسان وحده بل لا بد من مشارك معه فى إيجاده إذ كثيراً ما تتوفر للانسان إحدى العلتين ولا يؤدى ذلك لوجود الفعل فقد توجد لدى الإنسان العلة الفاعلة ثم لا توجد الظروف المناسبة وحينئذ لا يوجد الفعل .

ثم يتخذ ابن رشد من الفرق بين هاتين العلتين مايوفق به بين مايتعارض ظاهراً من نصوص الشرع الحنيف فحين تذكر النصوص للانسان مطلق الإرادة والاختيار يرى ابن رشد أن المقصود هنا هو كمال العلة الفاعلة ولاشك أنها كذلك كما يرى ابن رشد وحين تصوره النصوص مجبراً مسيراً كالريشة فى مهب الريح يرى ابن رشد أن المراد هو خضوع قدرته فى إيجاد فعله لسلطان الأسباب الخارجية الذى وضحناها سلفاً .

وعلى هذا فليس الإنسان مجبراً مطلقا كما أنه ليس مخيراً مطلقا . وليس قصد القرآن وصفه بأحد هذين الوصفين دون الآخر وإنما قصده الجمع بينهما إذ بهما يوجد فعل الإنسان .

(٥٠) رأى الإمام محمد عبده :

يرى الإمام محمد عبده أن للانسان اختياراً مع قوله بالسلطان الإلهى وأن لكل من الاختيار الإنسانى والسلطان الإلهى فلك خاص به .

ذلك لأنه رأى كثيراً من الناس قد حلا لهم أن يربطوا سلوك الإنسان بعجلة قدر يجب تسير فى طريقه اللانهائى ورأى أن هذا الفكر جر الحقيقة من ذيلها إذ أن الانسان - فى نظر الامام - لو ابتعد عن المهاترات الكلامية لأدرك أن حرية الانسان مساوية تماماً لوجوده فلا يحتاج ثبوتها إلى دليل أو برهان .

ولكننا مع التسليم الكامل بأن اجتهاد العقل أو تقدير الارادة لا يعطينا دائما الآثار الناشئة عن العمل فقد يريد المرء إرضاء صديق فيغضبه وقد يسعى لجلب خير فإذا به يسعى لجلب مضره وذلك راجع - فى نظر الامام - كذلك إلى قصور الوسيلة أو خطأ فى تقدير الوصول إلى الغاية .

ولكن كثيراً ما يرجع أخفاق سعيه إلى تلك القوة الغيبية التى هى أقوى من تدبيره وأحكم من تقديره بل هى أقوى من كل مدبر وأحكم من كل تقدير

وذلك كما لو هبت ريح فأغرقت بضاعته أو نزلت صاعقة فأحرقت ما شيته فهنا يظهر كيف يتغلب أمر القضاء.

وهكذا يتسنى القول بالاختيار الإنسانى مع القول بالسلطان الإلهى وتحقق مقومات كليهما فى فلكه الخاص.

لكن الجبريين يزعمون أن فى القول بكسب العبد لأفعاله الاختيارية وتوجيهه إياه بعلمه وإرادته إشراكا بالله واستعانة بغيره وجهلوا أن الشرك إنما هو فى الإستعانة بغير ما وجه الله إليه من الوسائل والأسباب كالإستعانة فى الحروب بغير قوة الجيوش والاستشفاء من الأمراض بغير الطب والدواء.

وأما الاستشكال بما سبق فى علم الله على حرية الإرادة الإنسانية ومحاولة التوفيق بين علمه تعالى وبين القول بحرية العبد فى أفعاله فهو من سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه على أنه قد يقال إن من المعروف أن العلم صفة كشف للواقـــع وليس صفة إلزام بالفعل فقد يعلم أحد المعاندين أن عملا ما يغضب أميره عليه ويستوجب عقابه يعلم هذا علم اليقين ولكنه مع ذلك يعصى أميره دون أن يزجره علمه عن عصيانه.

فانكشاف الواقع لا يصلح فى نظر العقل مانعاً ملزماً [1].

(و) رأى الفيلسوف محمد إقبال :

وللدكتور محمد إقبال فى قضيتنا قولا رأيت إتماماً للفائدة أن أذيل بحثى به — فهو يقول :

[ولا شك أن ظهور ذوات لها القدرة على الفعل التلقائى ومن ثم يكون فعلها غير متنبأ به — يتضمن تحديداً لحرية الذات المحيطة بكل شىء] .

(١) من كتاب أضواء على العقيدة الإسلامية والأخلاق تأليف لجنة من أساتذة كلية أصول الدين ص ٧٤ .

ثم يقول :

[ولكن هذا التحديد لم يفرض على الذات الأولى ـ ذات الله ـ من الخارج بل نشأ عن حريتها الخالقة التى شاءت أن تصطفى بعض الذوات المتناهية ـ ذوات البشر ـ لتقاسمه فى الحياة والقوة والاختيار !] .

ثم يقول :

[ورب سائل يقول ولكن كيف يكون فى الإمكان التوفيق بين التحديد وبين القدرة المطلقة . ؟] .

ثم يقول :

[وكل فعل سواء أكان متصلا بالخلق أم غير متصل به هو نوع من التحديد يستحيل بغيره أن نتصور الله ذاتاً فعالة متحققة الوجود فى الخارج. ولو أننا تصورنا القدرة المطلقة تصوراً مجرداً لكانت مجرد نوع من القوة عمياء متقلبة الأهواء ولا حد لها والقرآن الكريم يصور الطبيعة تصويراً واضحاً محدداً يوصفها عالما يتألف من قوى يتعلق بعضها ببعض وعلى هذا فهو ـ أى القرآن الكريم ـ يعتبر قدرة الله المطلقة وثيقة الصلة بحكمته الإلهية ويرى أن قدرة الله غير المتناهية تتجلى لا فيما هو متعسف صادر عن الهوى وإنما فى المتواتر المطرد المنظم .

ثم يقول :

[فالمعصية الأولى للانسان ـ معصية آدم ـ كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار ، ولهذا تاب الله على آدم وغفر له وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسراً بل هو خضوع عن طواعية للمثل الأخلاق الأعلى خضوع

ينشأ عن تعاون الذوات الحرة المختارة عن رغبة ورضى ، والكائن الذى قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركات الآلة لا يقدر على فعل الخير ، وعلى هذا فإن الحرية شرط فى عمل الخير !] .

ثم يقول :

[وكون المشيئة الالهية اقتضت ذلك دليل على ماالله من ثقة فى الانسان!]
ولقد بقى على الانسان أن يبرهن على أنه أهل لهذه الثقة ! [1]
ماذا يريد الدكتور / إقبال أن يقول :

إن إرادة الانسان التى تخلق من تلقاء نفسها فيها تحديد لإرادة الله المطلقة إذ كانت هناك إرادات تعمل مستقلة عن تلك الارادة الشاملة .

ولا تعارض هنا فإن الله سبحانه وتعالى بإرادته الشاملة ـ خلق إرادات تعمل حرة فى حدود معينة هى حدود الامكان البشرى .

إن الحوادث الواقعة فى الوجود هى فى الواقع تحديد لقدرة الله لأن القدرة تجرى بما أقتضته الحكمة الالهية التى أودعت فى الوجود نظاما مطرداً والنظام فى ذأته قيد من غير شك ، فهناك إذن صلة محكمة بين الله والانسان هى صلة القدرة المطلقة بالقدرة العاملة داخل قدرتها فقدرة الله هى قدرة مطلقة وقدرة العبد تعمل فى داخلها .

---

(١) هذه نقول متفرقة من كتاب تجديد الفكر الدينى للدكتور / محمد إقبال من ص ٩٤ إلى ص ١٠٠ .

(ز) تعقيب :

هذه لمحات خاطفة من كثير من آراء القوم فى قضيتنا هذه تلك التى طال الجدل وأمتد حتى استنكره القرآن الكريم . فقال :

[سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون](٢) .

كما أنكرته السنة المطهرة .

فمن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة ليلا فقال ألا تصليان فقال على أنفسنا بيد الله ولو شاء ليعثنا فأعرض الرسول ـ صلى الله عليه وسلم عنه مستنكراً ثم إنصرف وهو يردد (وكان الإنسان أكثر شيء جدلا) .

فالجدل فى قضيتنا هذه بغيض أنكره القرآن الكريم والسنة المطهره وخير ما يقال فى قضيتنا هذه ما قاله الإمام جعفر الصادق . .

(إن الله أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً فما أراده بناطواه عنا وما أراده منا أظهره لنا فينبغى ألا ننشغل بما طواه عنا عما أظهره لنا) .

لقد أمرنا ربنا بالصلاة والصوم والزكاة بل وفعل الخير ونهانا عن الشر والإثم فعلينا أن نعمل بما أمر وننتهى عما نهى : أما صحيفة الغيب المطوية عنا فليس لنا أن نناقش فيها لأن الذى قدرها علينا حجبها عنا لأن الغيب لله وحده .

---

(٢) الأنعام : ١٤٧ .

ولما كانت الأوامر واضحه والنواهى واضحة حملها نبى كريم قال عنها (الحلال بين والحرام بين) والغيب محجوب عنا فإن الإنسان حين يترك الأمر ويفعل النواهى يكون مخالفاً لتعاليم ربه فيستحق العقاب وحين يفعل الأوامر ويجتنب النواهى يكون فاعلا للخير فيستحق الثواب وكأنه فى كلتا الحالتين ينشىء ذلك من تلقاء نفسه إنشاء .

بقى علينا أن نعرف ماهو القضاء ؟ وما هو القدر ؟ وما يدور حولهما من تساؤلات بعد أن عرفنا آراء بعض العلماء فى فعل العبد هل مخلوق لله وحده أم للعبد وحده أم لهما معاً : ثم ألقينا بعض الأضواء على هذه المشكلة .

والفصل التالى يوضح بعض جوانب القضاء والقدر فى إيجاز وجيز : فإلى هناك .

اختبـــار :

س ١ :

قسمى أفعال العباد إلى اضطرارية واختيارية ثم عرفى مع التمثيل والتوضيح كل قسم منهما .

ثم وضحى مع التعليل مذاهب العلماء فى أفعال الاختيارية .

س ٢ :

وضحى مذهب الجبرية فى أفعال العباد الإختيارية ، ثم بينى أدلتهم على ماذهبوا إليه عقلا ونقلا .

ثم وضحى الرد على أدلتهم ، ثم اذكرى الحكم عليهم ، ولماذا ؟

س ٣ :

بينى مذهب المعتزلة فى أفعال العباد الاختيارية ، وأدلتهم العقلية والنقلية على ماذهبوا إليه .

ثم اذكرى ماذكر المعارضون لهذا المذهب من رد على أدلتهم العقلية والنقلية ، وبماذا تحكمين عليهم ، ولماذا ؟

س ٤ :

بينى مذهب أهل السنة فى أفعال العباد الاختيارية ، ثم وضحى أدلتهم على ماذهبوا إليه عقلا ونقلا ، ثم اذكرى ماذكر المعارضون لمذهبهم من اعتراضات عليه ، ثم وضحى كيف تردين عليها .. ثم ماهو المذهب المختار لديك ؟ ولمـاذا ؟

س ٥ :

لابن رشد والإمام محمد عبده ومحمد اقبال آراء فى قضيتنا هذه أشيرى بإيجاز إلى كل منها .

الفصل الثانى

القضاء والقـــدر

(ا) معنى القضاء والقدر

(ب) حكم الإيمان بالقضاء والقدر

(ج) الايمان بالقضاء والقدر
لا ينافى الأخذ بالأسباب

(د) متى يجوز الاحتجاج بالقدر
ومتى لايجوز ؟

بعد أن بينا مذاهب العلماء فى مذاهب العلماء فى هذا التساؤل
« إلى من ينتسب عمل الإنسان ؟ » ..

أ إلى الله ـ تعالى ـ خالصاً .. ؟ كما هو مذهب الجبرية أم للعبد بقدرة خلقها الله ـ تعالى ـ فيه كما هو مذهب المعتزلة أم لله ـ تعالى ـ والعبد فيه كسب كما هو مذهب أهل السنة .

فإنه يجدر بنا إتماما للمراد أن نعرف شيئاً عن القضاء والقدر كقضية من قضايا العقيدة الاسلامية كثر الجدل حولها بصورة رآها الإسلام مضيعة للوقت فحرم الخوض فيها .

وأحسب أن الإسلام يوم حرم الخوض فيها حرمه بين المسلم والمسلم لكنه ـ فى تقديرى ـ لم يحرمه حين يجادل غير المسلم المسلم فى عقيدته فى القضاء والقدر بهدف النيل من الإسلام .

فهب أن معاديا للإسلام حاول أن يتخذ من نظرة الإسلام

للقضاء والقدر مكاناً المز الاسلام وغمزه ، هل يقول الاسلام لفتاه المستهدفة عقيدته الحقة فى القضاء والقدر قل له لقد نهينا عن الخوض فى القضاء والقدر لا .

إن القرآن الكريم يوضح منهج الاسلام فى ذلك فيقول :

[ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون][1] .

وعملا بما دعانا إليه ديننا فإننا سنلقى بعض الضوء على عقيدة الاسلام فى القضاء والقدر بعد أن نعرفهما على اختلاف مذاهب العلماء فى ذلك .

---

(١) العنكبوت - ٦ .

تعريف القضاء والقدر

القضاء : لغة :

لقد وردت مادة القضاء فى اللسان العربى مستعملة فى عدة معان .

١ - الحكم : قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما) فقضيت هنا بمعنى حكمت .

٢ - الامر : قال تعالى (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً) فقضى بمعنى أمر .

الاعلام : قال تعالى (وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علواً كبيراً) فقضينا بمعنى أعلمنا .

٤ - الإرادة : قال تعالى (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) فقضى هنا بمعنى أراد .

٥ - الإيجاد على وجه الإبداع والاحكام والإتقان قال تعالى : (فقضاهن سبع سموات فى يومين) أى خلق السموات والارض على وجه الإبداع والاحكام والإتقان حسبما اقتضت الحكمة فى وقتين معينين .

وأما اصطلاحا :

فللعلماء فيه مذاهب ..

١ - الاشاعرة : هو إرادة الله بالاشياء فى الازل على ماهى عليه فيما لا يزال .

٢ - مذهب الماتريدية : هو إيجاد الاشياء مع زيادة الاحكام والاتقان .

٣ - مذهب الحكماء : هو أن القضاء عبارة عن علمه تعالى بما ينبغى أن يكون عليه حتى يكون على أحسن نظام ويعبرون عنه بالعناية .

والقدر : لغة :

لقد وردت مادة القدر فى اللغة العربية مستعملة كذلك فى عدة معان :

١ - العلم المحيط بمقادير الأشياء وجميع أحوالها التى تكون عليها كقوله تعالى (إنا كل شىء خلقناه بقدر) .

٢ - القدر الصادر عن فاعله كما عليه .

٣ - الترتيب والحد الذى ينتهى إليه الشىء قال تعالى : (وقدر فيها أقواتها) أى رتب أقواتها .

واصطلاحا :

للعلماء فيه مذاهب .

١ - الأشاعرة : هو إيجاد الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أراده الله تعالى : فهو حادث .

٢ - الماتريدية : هو علمه تعالى أزلا بصفات المخلوقات من حسن وقبح ونفع وضرر وغير ذلك فهو قديم .

٣ - الحكماء : هو خروجها إلى الوجود لمعين بأسبابها على الوجه الذى تقرر فى القضاء .

حكم الإيمان بالقضاء والقدر ودليله :

الايمان بالقضاء والقدر واجب بالدليل السمعى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربعة : يشهد أن لا إله إلا الله

وأني رسول الله بعثني بالحق ويؤمن بالبعث بعد الموت ويؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره .

الايمان بالقضاء والقدر يستلزم الرضا بهما :

وقد اعترض على هذا الاستلزام بأنه يلزمه الرضا بالكفر والمعاصي لأن الله قضى بهما وقدرهما على الشخص والرضا بالكفر كفر وبالمعاصي معصية .

وقد رد هذا الاعتراض بجوابين :

١ ـ الكفر والمعاصي مقضى ومقدر لاقضاء ولاقدر والواجب الرضا به هو القضاء والقدر لا المقضى والمقدر .

٢ ـ أن الكفر والمعاصي لها جهتان :

(أ) جهة كونهما مقضيين ومقدرين لله ومن هذه الجهة يجب الرضا بهما .

(ب) جهة كونهما منتسبين للعبد ومن هذه الجهة لا يجب الرضا بهما .

الايمان بالقضاء والقدر لاينافي الأخذ بالأسباب :

معنى الإيمان بالقضاء والقدر التصديق بأن ماأوجده الله من الأشياء سواء أكان ذاتا أم صفة فإن إيجاده بغاية الإحكام والإتقان على الوجه الأكمل وبأنه علم في الأزل ماتكون عليه المخلوقات فيما لا يزال .

لكن هذا لاينافي الأخذ بالأسباب فإن الله تعالى عالم أزلا بالمسببات وأسبابها وارتباط كل مسبب بسببه وترتبه عليه وعالم بأن العبد مختار في مباشرته الأسباب فيعلم أزلا أن فلاناً يأكل باختياره فيشبع .

فالله : سبحانه وتعالى : عالم بترتب المسببات على الأسباب التى يباشرها العبد وعلم الله : سبحانه وتعالى : بالأسباب والمسببات لايجعل العبد مضطراً أو مجبراً أو غير مختار فالإيمان بالقضاء والقدر إذن لاينافى الاخذ بالأسباب ولامؤاخذة العبد بمانسب إليه من خـــير أو شر لأن الإيمان بهما لم يتعد التصديق بأن الله تعالى علم الأشياء وعلى ماهى عليه فيما لايزال : وقد علم أزلا أنى أباشر الأسباب باختيارى وأن لى عملا أحاسب عليه : فليس الإيمان بالقدر داعيا لترك الأخذ بالأسباب والقرآن الكريم يدعونا إلى مباشرة الأسباب والأخذ بها فيقول .

١ - (فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه)

٢ - (وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل)

٣ - (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) .

متى يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر ومتى لايجوز ؟

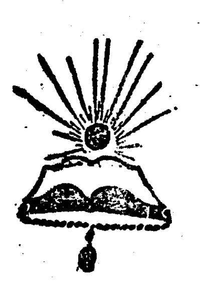
هناك حالة واحدة يجوز فيها الاحتجاج بالقضاء والقدر وحالتين أخرتين لايجوز فيها الاحتجاج بالقضاء والقدر :

فالحالة التى يجوز فيها الاحتجاج بالقدر هى - ماكانت بعد الوقوع فى الشىء ولدفع اللوم عنه : كما فى حديث الصحيحين فقد ورد (أن روح أدم التقت مع روح موسى فقال موسى لأدام أنت أبو البشر كنت سبباً لإخراج أولادك من الجنة بأكلك من الشجرة ؟ فقال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله لكلامه وخط لك التوراة بيده تلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فقال النبى صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى « أى غلبه » عليهما الصلاة والسلام .

والحالتان اللتان لا يجوز الاحتجاج بهما فهما :

(ا) قبل الوقوع فى الشىء توصلا إليه بأن يقول الشخص قدر الله على القتل مثلا أو السرقة أو الزنا توصلا الوقوع فى أية خطيئة من هذه الخطايا .

(ب) بعد الوقوع فى الشىء للتخلص من الحد أو نحوه كما إذا وقع إنسان فى خطيئة من هذه الخطايا مثلا فاحتج بأنها قدر الله عليه ليتخلص من الحد .



إختبـــار

عرفى القضاء والقدر لغة واصطلاحا على اختلاف مذاهب العلماء فيه ، ثم بينى حكم الايمان بالقضاء والقدر ودليله ، ثم أجيبى عن هذه التساؤلات مؤكدة إجابتك بالاستدلال عليها :

(ا) ماهو حكم الايمان بالقضاء والقدر ؟

(ب) هل الإيمان بالقضاء والقدر يستلزم الرضا بهما ؟

(جـ) متى يجوز الاحتجاج بالقضاء والقدر ومتى لايجوز ؟

تتمـــة

☆ التوفيق والخذلان

☆ الوعد والوعيد

☆ السعادة والشقاوة

☆ الصلاح والأصلح

بعد أن بينا آراء العلماء فى أفعال العباد والقضاء والقدر فإنه يتعين علينا إتماما للمراد أن نتناول بالحديث هذه النقاط الآتية :

التوفيق والخذلان

تعريفهما لغة . . مذاهب العلماء فيها شرعا .

التوفيق لغة . . التأليف . . تقول وفقت بين المتخاصمين . إذا ألفت بينهما

وشرعا للعلماء فيه مذاهب .

١ ـ مذهب أبي الحسن الأشعري : هو خلق قدرة الطاعة في العبد وقد فسر قدرة الطاعة في العبد . . . بأنها العرض المقارن للطاعة . . وعليه فيكون الكافر غير موفق إذ لم يخلق الله فيه قدرة الطاعة بهذا المعنى .

وقد أعترض على أبي الحسن بأن الشخص مكلف قبل الطاعة مع أنه قبلها على مذهبه ليس فيه قدرة فيلزم عليه تكليف العاجز وهو ممنوع .

وأجيب بأنه قادر بالقوة حيث أنه متصف بسلامة الأسباب والآلات .

٢ ـ مذهب أمام الحرمين : هو خلق قدرة الطاعة في العبد والداعية إليها ـ وقد فسر قدرة الطاعة بسلامة الأسباب والآلات .

ولما كان الكافر متوافراً فيه قدرة الطاعة بمعنى سلامة الأسباب والآلات زاد قيد الداعية ، الميل النفساني ، لكي يخرج الكافر .

٣ ـ مذهب بعض العلماء : هو خلق الطاعة نفسها .

الخذلان . . . لغة . . . ترك النصرة والإعانة . . . تقول خذل فلان فلانا إذا ترك نصرته وإعانته .

وشرعا . . . للعلماء فيه مذاهب .

١ ـ مذهب أبي الحسن الأشعري : هو خلق قدرة المعصية في العبد . وقد فسر قدرة المعصية بالعرض المقارن للمعصية .

٢ ـ مذهب أمام الحرمين : هو خلق قدرة المعصية في العبد والداعية إليها

وقد فسر قدرة الطاعة بسلامة الأسباب والآلات ولما كانت سلامة الأسباب والآلات موجودة كذلك فى المؤمن الطائع زاد قيد الداعية إليها لكى يخرج المؤمن الطائع من الخذلان .

فالمخذول لا يطيع وهو الحق إذ لا قدرة له على الطاعة على رأى الأشعرى ولا ميل عنده على رأى أمام الحرمين خلافاً لبعضهم حيث قال أن المخذول يطيع ويجمع بينهما بأن المخذول لا يطيع من حيث ما خذل فيه .

٣ — مذهب بعض العلماء : هو خلق المعصية نفسها .

الوعد الوعيد

الوعد . . . هو التأميل فى الثواب .

الوعيد . . . هو التخويف بالعقاب .

وقد أتفق الأشاعرة والماتريدية فى أن الوعد لا يتخلف ولكنهم أختلفوا فى الوعيد هل يتخلف أم لا ننظر .

الوعد . . . أتفق الأشاعرة والماتريدية على أن وعد الله المؤمنين بالجنة لا يتخلف شرعا بأدلة عقلية ونقلية .

الأدلة العقلية :

(ا) لو تخلف أعطاء الموعود به لزم الكذب واللازم باطل فكذا الملزوم وهو التخلف .

(ب) الخلف فى الوعد نقص . وكل نقص فى حق الله محال ∴ أذن فالخلف فى حق الله محال .

(ج) وعد الله مبنى على التنجيز وكل مبنى على التنجيز لا يجوز تخلفه ∴ أذن وعد الله لا يجوز تخلفه .

الأدلة النقلية :

(ا) قوله تعالى (وعد الله لا يخلف الله الميعاد) .

(ب) قوله تعالى (أن الله لا يخلف الميعاد) .

(ج) قول الرسول صلى الله عليه وسلم (من وعده الله على عمل ثوابا فهو منجزه له) .

الوعيد : الوعيد قسمان : -

(ا) وعيد على الكفر .

(ب) وعيد على معصية غير الكفر .

ولقد أتفق الأشاعرة والماتريديه على الوعيد على الكفر لكنهم أختلفوا في الوعيد على المعصية غير الكفر .

(ا) وعيد على معصية الكفر : أتفق الجميع على أن الوعيد على معصية الكفر لا يجوز تخلفه لقوله تعالى . (أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فهذه الآية مقيدة لعموم قوله تعالى (أن الله يغفر الذنوب جميعاً) فكأن المعنى أن الله يغفر الذنوب جميعا عدا الذنب في معصية الكفر فإن الله لا يغفرها .

(ب) وعيد على معصية غير الكفر : أختلف الأشاعرة والماتريدية في الوعيد على معصية غير الكفر .

١ — مذهب الأشاعرة : يجوز تخلف الوعيد على معصية غير الكفر بأدلة عقلية ونقلية .

الأدلة العقلية : (ا) الخلف في الوعيد لا يعد نقصا بل يعد كرما يمتدح به كما يشير إليه قول الشاعر العربي .

وانى وأن أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادى ومنجز موعدى

الأدلة النقلية ... قوله تعالى ... (أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

وقول الرسول — صلى الله عليه وسلم (ومن أوعده الله على عمل عقابا فهو بالخيار إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه) .

وقد اعترض على هذا المذهب بأن تخلف الوعيد يلزم عنه مفاسد كثيرة .

(أ) الكذب فى خبره تعالى . وقد قام الإجماع على تنزيه خبره تعالى عن الكذب .

وقد رد هذا الاعتراض بأن الكريم إذا أخبر الوعيد فاللائق بكرمه أن يبنى أخباره به على المشيئة وأن لم يصرح بها فاذا قال الكريم لأعذبن فلانا من الناس فنيته أن شئت وعليه فلا يلزم الكذب بخلاف وعد الكريم فانه مبنى على الجزم والتنجيز يدل على ذلك قول الرسول - صلى الله عليه وسلم (من وعده على عمل ثواباً فهو منجزه له ومن أوعده على عمل عقابا فهو بالخيار إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه) .

(ب) تبدل القول وقد قال تعالى (ما يبدل القول لدى)

ورد هذا الاعتراض بأن الممنوع إنما هو تبديل القول فى وعيد الكفار أو من لم يرد الله العفو عنه :

(جـ) تجويز عدم خلود الكفار فى النار :

ورد هذا الاعتراض بأن جواز تخلف الوعيد فيما إذا كان وارد فيمن يجوز العفو عنه فلا ينافى خلود الكفار فى النـــار لأنه لا يجوز العفو عنه فلا ينافى خلود الكفار فى النار لأنه لا يجوز العفو عن الكفر .

٢ - مذهب الماتريدية : يمتنع تخلف الوعيد لأنه لو تخلف للزم الكذب فى خبره تعالى .

وهذا مردود بأن وعيد الكريم مبنى على المشيئة فلا يلزم الكذب وامتناع تخلف الوعيد عندهم إنما يكون فى غير المغفور له أما هو فخرج من عموم آيات الوعيد .

السعادة والشقاء

العلماء في السعادة والشقاوة مذهبان

المذهب الأول .. مذهب الأشاعرة . . أن السعادة هي الموت على الايمان باعتبار تعلق علم الله أزلا بذلك .

سعيد .. من علم الله موته على الإيمان

والشقاوة .. هي الموت على الكفر باعتبار تعلق علم الله أزلا بذلك والشقى .. من علم الله موته على الكفر . . فالخاتمة تدل على السابقة .

فان ختم له بالإيمان دل على أنه في الأزل كان من السعداء وأن تقدمه كفر وأن ختم له بالكفر دل على أنه فى الأزل كان من الأشقياء وأن تقدمه إيمان . .

يدل على ذلك حديث الصحيحين . (أن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمله أهل الجنة .

فالسعادة والشقاوة عند الاشاعرة أزليتان لا تتغيران وعليه فليس كل من فوز السعيد وشقاوة الشقى باعتبار الوصف القائم به فى الحال من الإيمان فى الأول والكفر فى الثانى بل باعتبار ما سبق أزلا فى علمه تعالى :

ولهذا لم يتحول كل واحد من السعيد والشقى عما سبق أزلا فى علمه تعالى فالسعيد لا ينقلب شقيا وبالعكس وإلا لزم إنقلاب العلم جهلا وهو بديهى الاستحالة .

المذهب الثانى . . مذهب الماتريدية :

السعادة . . هي الإيمان في الحال والسعيد هو المؤمن الحالى . . .

فإذا مات على الكفر فقد انقلب شقيا بعد أن كان سعيداً .

والشقاوة هي الكفر في الحال .. والشقي هو الكافر الحالي فإذا مات على الإيمان فقد إنقلب سعيداً بعد أن كان شقيا فالسعادة والشقاوة حادثتان متغيرتان .

ولاشك أن الأشاعرة والماتريدية لم يختلفوا إلا في المراد من لفظ السعادة ، والشقاوة فقط فالخلاف بينهم لفظي فقط وليس خلافا حقيقياً ، لكنهم متفقون في الأحكام .

فالأشاعرة نظروا للمآل باعتبار مافي علم الله والماتريدية نظروا للحال فهم متفقون على ما يلي ..

١ ـ من مات على الإيمان يكون سعيدا ومن مات على الكفر يكون شقيا .

٢ ـ يجوز الارتداد على من علم الله موته على الإيمان ويجوز على من علم الله موته على الكفر .

٣ ـ ما في علم الله لا يتبدل . وما يظهر للعباد في الدنيا يتبدل .

الصلاح والأصلح

الصلاح .. هو النافع .. ويقابله الفساد كالإيمان فى مقابلة الكفر ..

والأصلح هو الأنفع ومقابلة الصلاح .. كـكون محمد فى أعلا الجنان فى مقابلة كونه فى أسفلها ...

مذاهب العلماء :

يختلف المتكلمون فى الصلاح والأصلح هل هما واجبان على الله أم جائزان عليه سبحانه وتعالى .

(ا) مذهب المعتزلة وأدلتهم :

أتفق المعتزلة على القول بوجوب الصلاح والأصلح على الله سبحانه وتعالى .

بمعنى أنه إذا كان هناك أمران فى أحدهما صلاح الإنسان وفى الآخر فساده وجب على الله سبحانه وتعالى أن يفعل الصلاح منهما دون الفساد .

كما أنه إذا كان هنا أمران فى أحدهما ما به صلاح الإنسان وفى الاخر ما به ما هو أصلح وجب على الله أن يفعل الأصلح منهما .

غير أن المعتزلة فى تحديد ميدان الصلاح والأصلح فريقان .

١ ـ معتزلة بغداد .. يرون وجوب الصلاح والأصلح على الله لعبادة فى الدنيا والدين . والمراد بالأصلح الأوفق فى الحكمة والتدبير .

٢ ـ معتزلة البصرة .. يرون وجوب الصلاح والأصلح على الله لعباده فى الدين فقط .. والمراد بالأصلح الانفع ..

أدلة المعتزلة :

للمعتزلة على مذهبهم هذا أدلة عدة نذكر منها . . .

١ ـ لو لم يجب على الله فعل الصلاح والأصلح لعباده للزم العجز أو الجهل أو البخل أو السفه أو العبث لكن ماذكر باطل فى حقة سبحانه وتعالى فبطل ما أدى إليه وهو جواز ترك الصلاح والأصلح .

وثبت وجوب الصلاح والأصلح على الله تعالى وهو المطلوب .

وبيان هذه الدليل :

أن ترك الأصلح أن كان لعدم القدرة .. لزم العجز .. وإن كان للقدرة عليه وتركه لعدم العلم به لزم الجهل وإن كان لعلمه ويقدر عليه وشح به لزم البخل وأن كان تركه لغير ما ذكر ولكن لغرض فاسد لزم السفه وأن كان لا لغرض أصلا لزم العبث وكل ذلك على الله محال فاستحال ما أدى إليه من جواز ترك الصلاح والأصلح على الله وثبت وجوب الصلاح والأصلح .

وهذا أهو الدليل العقلى الذى أقامه المعتزلة لمذهبهم ولقد أقاموا لمذهبهم أدلة نقلية كثيرة نذكر منها ما يلى . ـ

١ ـ قول الله تعالى : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) .

٢ ـ قول الله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) .

(ب) مذهب أهل السنة :

يرى أهل السنة أن الصلاح والاصح غير واجبين على الله سبحانه وتعالى لان الله لا يجب عليه شىء وأن هناك خلافا بسيطا بين الاشاعرة الماتريديه لا حاجة بنا إليه فى هذا المختصر .

أدلة أهل السنة على مذهبهم :

لأهل السنة على مذهبهم هذا أدلة عقلية ونقلية نذكر منها ما يلي .

• النقلية :

١ - قول الله تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) .

٢ - قول الله تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)

٣ - قول الله تعالى .. (أفرأيت من أتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) .

• العقلية :

١ - لو وجوب على الله فعل أو ترك لما كان مختارا لأن المختار هو الذى أن شاء فعل وأن شاء ترك . لكن ثبت أن الله متصف بالارادة والاختيار .

٢ - لو وجب على الله فعل الصلاح والاصلح لما خلق الكافر الفقير المعذب فى الدنيا والاخرة لأن الاصلح له عدم خلقه أو اماتته صغيرا . أو سلب عقله .

٣ - لو وجب على الله فعل الصلاح والأصلح لما [illegible] الأطفال والجمادات والأسقام .

اختبار

س ١

عرف كلا من التوفيق والخذلان لغة وشرعا على مختلف المذاهب في ذلك مع التفصيل والتوضيح .

س ٢

ما المراد من الوعد .. ؟ وما المراد من الوعيد . ا هل وعد الله المؤمنين بالثواب يتخلف ؟ ولماذا ؟ حدثنا عن مذهب العلماء وأدلتهم على وعيد الله تعالى على معصية غير الكفر . وما هو المذهب المختار لديك ولماذا ؟

س ٣

للاشاعرة والماتريدية في السعادة والشقاء موطنا اتفاق واختلاف . حدثنا عما اتفقوا عليه في قضيتنا هذه وما اختلفوا فيه ثم عرفي السعادة والشقاء على مذهبي كلتيهما .

س ٤

بين مع التمثيل المراد من الصلاح والاصلح في عرف المتكلمين ثم حدثنا بشيء من التفصيل عن مذهبي المعتزلة وأهل السنة وأدلتهم في قضيتنا هذه . وما هو المذهب المختار لديك ؟ ولماذا ؟

الباب الرابع

الرؤية

- ✡ معنى الرؤية
- ✡ مذاهب العلماء فيها
- ✡ مذاهب العلماء في وقوع الرؤية في الدنيا للأولياء.
- ✡ من يرون الله - تعالى - ومن لا يرونه في الآخرة

يختلف الباحثون فى العقيدة الاسلامية فى كون رؤية الله - تعالى - جائزة أم غيرها جائزة ولكل وجهته التى هو موليها والتى يراها تقترب من الصواب بقدر ماتبتعد وجهة غيره عنه وتبتعد عن الباطل بقدر ماتقترب وجهة غيره منه .

لكن واحدة من هاتين الوجهتين لم تقل فى قضيتنا هذه مايؤدى بها إلى الكفر - والعياذ بالله تعالى - فإحداهما إما منزهة محيلة ، والاخرى مجيزة مستدلة بظاهر النص والكل مجتهد له - بالدرجة الدنيا - ثواب المجتهد المخطىء فى الاجتهاد .

ماذا قالت المجيزة الموجبة وبم استدلت ؟

ثم ماذا قالت المحيلة المحيلة وبم استدلت ؟

الصفحات التالية تحمل الخبر اليقين .

الرؤية

تعريف الرؤية :

نعنى بالرؤية هنا . . رؤية الله سبحانه وتعالى وتعريف الرؤية بهذا المعنى . . هى إنكشاف الله ـ تعالى ـ للرائين بأبصارهم من غير كيف ولا إنحصار .

مذاهب العلماء فى رؤية الله :

المتكلمون فى جواز وقوع الرؤية وفى استحالة هذا الوقوع فريقان فريق يرى جواز الوقوع فى الدنيا ووجوب الوقوع يوم القيامة وهم أهل السنة . وفريق يرى استحالتها فى الدنيا وفى الآخرة وهم المعتزلة وسنورد رأى كل منهما مدعما بأدلته التى رآها برهاناً لمذهبه .

(أ) مذهب أهل السنة فى الرؤية ، وأدلتهم :

يرى أهل السنة أن الرؤية جائزة الوقوع فى الدنيا واجبة الوقوع يوم القيامة واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية ونقلية نذكر منها ما يلى :

* الدليل العقلى :

(أ) الله موجود وكل موجود يصح أن يرى فالله يصح أن يرى .

(ب) كما جاز أن يعلم البارى من غير كيفية وإدراك صورة جاز أن يرى كذلك لأن الرؤية نوع من العلم .

* الدليل النقلى :

قوله تعالى . . حكاية عن موسى عليه السلام .

(رب أنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر

مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) .

وقد استدل أهل السنة بهذه الاية من وجهتين .

• الأولى . . سؤال موسى عليه السلام للرؤية يدل على جوازها فلو لم تكن جائزة لما سألها .

ونظم الدليل هكذا .

لو كانت الرؤية ممتنعة في الدنيا ما سألها موسى عليه السلام ذلك لأن موسى عليه السلام نبي يعلم ما يجب في حق الله تعالى وما يستحيل وما يجوز إذ لا يجوز على نبي من الأنبياء الجهل بأحكام الألوهية . فلو كانت الرؤية مستحيلة لما طلبها موسى عليه السلام لكنه طلبها . فتكون الرؤية جائزة .

وأما الدليل على طلب موسى لها فإن القرآن الكريم ذكر ذلك صراحة فقال حاكيا عنه أنه قال (رب أرني أنظر إليك) .

• الثانية . . تعليقها على ممكن وهو استقرار الجبل .

ونظم الدليل من هذه الجهة هكذا .

رؤية البارى علقت على أمر ممكن . وكل ما علق على الممكن فهو ممكن ينتج رؤية البارى ممكنة .

ولقد وقعت فعلا لنبينا محمد — صلى الله عليه وسلم — ليلة الإسراء والمعراج فقد رأى ربه في هذه الليلة بعيني رأسه وهما في محليهما .

٢ — . . أدلة وجوب الوقوع في الآخرة :

• أقام أهل السنة على مذهبهم من أن الرؤية واجبة الوقوع شرعا في الاخرة للمؤمنين في الجنة أدلة عدة من القرآن والسنة .

٢ — . أدلة وجوب الوقوع فى الاخرة :

أقام أهل السنة على مذهبهم من أن الرؤية واجبة الوقوع شرعاً فى الاخرة للمؤمنين فى الجنة أدلة عدة من القرآن والسنة .

• فمن القرآن الكريم . .

قوله تعالى . . (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) .

» » . . (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فقد فسرت الحسنى بالجنة وفسرت الزيادة بالتمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وقوله تعالى (على الأرائك ينظرون) .

وقوله تعالى معيراً الكفار بحرمانهم من النظر إلى وجه الكريم (كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) .

• ومن السنة :

قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم (أنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) . . . والمقصود من التشبيه عدم الشك والخفاء . . أى رؤية لا شك فيها ولا خفاء . . لا أن يكون المرئى كالبدر صورة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن ذلك كذلك . . الحديث المشهور الذى رواه واحد وعشرون عن أكابر الصحابة ولفظه من رواية أبى هريرة فى الصحيحين (أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم هل تضارون[1] فى القمر ليلة البدر قالوا لا يا رسول الله . قال فهل

---

(١) تضارون بتشديد الراء ، بمعنى هل تشكون فى رؤية القمر ليلة القدر .

تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب قالوا لا يارسول الله قال فإنكم ترونه كذلك) .

(ب) .. مذهب المعتزلة . وردهم على أهل السنة ورفضه وأدلتهم وردها

يرى أهل المعتزلة أن رؤية الله سبحانه وتعالى مستحيلة فى الدنيا والاخرة . ولذلك فهم يرفضون مذهب أهل السنة يردون أدلتهم ثم يقيمون أدلتهم العقلية والنقلية على مذهبهم .

١ — رفض المعتزلة أدلة أهل السنة والرد عليهم :

لقد أعترضت المعتزلة على الدليل النقلى الذى أقامه أهل السنة على مذهبهم وهو قول الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام .. (رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى) الاية :

فقد استدل أهل السنة بهذه الاية على مذهبهم من وجهين :

• الوجه الاول أنها لو لم تكن جائزة ما سألها موسى عليه السلام فهو نبى يعلم ما يجب لله وما يستحيل عليه وما يجوز فى حقه :

فقد اعترض المعتزلة على هذا الوجه بأن موسى عليه السلام لم يسأل الرؤية لنفسه وإنما سألها لجهل قومه الذين قالوا (أرنا الله جهرة) وهو يعلم استحالتها ليجاب بالمنع فيعلم قومه ذلك :

ورد المعتزلة هؤلاء مردود ، بصريح الاية متى تصرح بأن موسى طلبها لنفسه فقد قال ما يحكيه عنه القرآن الكريم (رب أرنى أنظر إليك) ولم يقل أرهم لينظروا إليك .

على أن محققى المفسرين قالوا أن طلب موسى للرؤية كان قبل طلب قومه بزمن بعيد .

وأيضاً . سياق الآيات يفيد أن موسى ـ عليه السلام طلبها لنفسه وليس لقومه . فسياق الآية هكذا (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك) الآية كما أن قوله تعالى ان ترانى لا يفيد استحالة الرؤية والوجه الثانى تعلقها على أمر ممكن وهو استقرار الجبل بدلا من تحركه وهو ممكن فقد اعترضت المعتزلة على هذا الوجه بأن المراد الاستقرار حال التحرك وهو مستحيل لأن كونه متحركا ساكنا فى وقت واحد جمع بين النقيضين وهذا محال ورد هذا بأن المقصود أن تذهب الحركة ويأتى بدلا منها السكون وهذا ممكن لا محال .

أدلة المعتزلة :

أورد المعتزلة على مذهبهم أدلة عقلية ونقلية نذكر منها ما يلى

• الأدلة العقلية

الدليل الأول . لو كان البارى مرئياً لكان مقابلا للرائى بالضرورة فيكون فى جهة وتحيز وهذا محال .

ورد هذا الدليل بأن كونه تعالى فى جهة وحيز ممنوع إذ الرؤية قوة يجعلها الله فى خلقه لا يشترط فيها مقابلة المرئى ولا كونه فى جهة وحيز على أن هذه الأمور من المقابلة والجهة والحيز أمور عادية يجوز تخلفها .

الدليل الثانى :

أن رؤية البارى أما أن تكون بواسطة اتصال شعاع العين بالمرئى وهو البارى كما هو رأى بعض العلماء فى كيفية الإبصار وأما أن تكون بواسطة إنطباع المرئى فى حدقة الرائى وعلى رأى البعض الآخر وكلاهما ممتنع فى حق البارى سبحانه وتعالى .

فاتصال شعاع العين بالمرئى يستلزم المقابلة كما يستلزم الجرمية والمقابلة والجرمية محالان على الله تعالى .

كما أن الانطباع يستلزم كذلك صورة وجرماً والصورة والجرم كذلك محالان على الله سبحانه وتعالى .

ويرد هذا الدليل .. بأن ما ذكر من مستلزمات الأجسام والله سبحانه وتعالى ليس جسما .

كما يرد هذا الدليل أيضاً بأن رؤية البارى مخالفة لرؤية الحوادث ماهية أو هوية ومن هنا فانها مختصة بقيود وشروط تخالف القيود والشروط اللازمة لرؤية الحوادث .

٥ الدليل النقلى :

١ - قوله تعالى (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) .

ويرد هذا الاستدلال بأن الآية نفت إدراك الله بالأبصار بالصورة المعروفة عند العرب الذين كانت تخاطبهم الآية أنذاك .

٢ ـ أن سؤال الرؤية لم يذكر فى موضع من القرآن الحكيم إلا استعظمه الله تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) .

وقوله تعالى (وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) .

وقوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيراً) .

ويرد هذا الدليل . بأن ما استنكره القرآن وسماه ظلما وعتوا ورتب عليه الوعيد ليس طلبهم الرؤية ولكن لتعنتهم وعنادهم .

٣ ـ قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء) .

ووجه الاحتجاج بهذه الاية أن الله سبحانه وتعالى قصر تكليمه للبشر على أحوال ثلاثة :

الأول : الوحي : الثاني : كونه من وراء حجاب : الثالث : إرسال الرسل وكل واحد من هذه الثلاثة يستلزم عدم الرؤية أما الوحي ، فلأنه لم يكن مشافهه بل كان فى المنام أو بطريق الإلهام فليست معه رؤية وأما التكلم من وراء حجاب فعدم الرؤية فيه واضحة وأما إرسال الرسل وإيحائه فإنه صريح فى عدم المشافهة المستلزم لعدم الرؤية .

وإذا ثبت عدم الرؤية وقت الكلام فهو ثابت أيضاً فى وقت غير وقت الكلام .

ورد هذا الدليل بأن قصر تكليم الله تعالى للبشر على الاحوال الثلاثة إنما هو فى الدنيا ونحن لانقول بوجوب الرؤية فيها :

ويؤيد هذا ما قيل فى سبب نزول الآية وهو أن اليهود قالوا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم أنه لا يعد نبيا إلا من يكلمه الله وينظر إليه كما كلم موسى ونظر إليه . ومن هنا فاتنا لن نؤمن بك حتى يحصل لك ما حصل لموسى فبين لهم النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام لم ينظر إلى الله فنزلت الاية لتصديق النبي صلى الله عليه وسلم فى قوله .

وبذلك يتضح لنا أن الرأى الصواب فى موضوعنا هذا هو ما رآه أهل السنة من أن الرؤية جائزة فى الدنيا واجبة يوم القيامة .

مذاهب العلماء فى وقوع الرؤية فى الدنيا للأولياء :

الرؤية فى الدنيا لغير الانبياء حالتان حالة اليقظة ، وحالة النوم .

أولا : حالة اليقظة : للأشعرى فيها قولان أرجحهما المنع وهو الحق بل ذهب بعض العلماء إلى تكفير من أدعى أنه رأى ربه يقظة :

ثانياً : حالة النوم : وهذا جائز الوقوع فقد حكى صاحب الجوهرة أن الإمام أحمد ابن حنبل رأى ربه مائة مرة فى المنام(١) .

وبذلك يثبت لدينا أنها جائزة الوقوع مناما فى الدنيا للأولياء :

من يرون الله ومن لا يرونه فى الاخرة :

القائلون بوقوع الرؤية يوم القيامة يبينون من سيرون ربهم يوم القيامة فيحصرونه فيما يلى :

١ - مؤمنو الأمة المحمدية اتفاقا .

٢ - مؤمنوا الامم السابقة على الأظهر :

٣ - أهل الفترة على القول بنجاتهم .

٤ - مؤمنوا الجن فى الموقف إجماعا وفى الجنة على الراجح :

٥ - الملائكة على الراجح وقيل الذى يراه من الملائكة جبريل فقط

كما يبينون من لا يرونه فيحصرونهم فى الكفار والمنافقين لقوله تعالى :

(كلا أنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)

---

(١) ارجعى إلى شرح البيجورى ، على الجوهرة لشيخ الإسلام ابراهيم البيجورى صـ ١٢٥ طبعة إدارة المعاهد الازهرية .

الاختبار

س ١

(ا) ما معنى الرؤية . . ؟

(ب) حدثنا عن مذاهب العلماء فيها وأدلتهم عليها .

(جـ) كان قوله تعالى - حكاية عن موسى - عليه السلام [رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى] الآية دليلا لأهل السنة اتخذه المعتزلة دليلا على مذهبهم المخالف فكيف وجه كلاهما الآية لتكون دليلا على مذهبه ؟

(د) أى المذهبين أحق بالاعتبار أمذهب أهل السنة أم مذهب المعتزلة ؟ ولماذا ؟

(هـ) حدثنا عن مذاهب العلماء فى وقوع الرؤية فى الدنيا للاولياء

(و) من هى الفئات التى ستري ربها يوم القيامة على رأى من يرى أن الرؤية واقعة للمؤمنين فى الجنة يوم القيامة ؟

فهرست

والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم

عبد السلام محمد عبده